القسم الأول

دراسة نقديَّة
وتوجيهات شرعيَّة

obeikandl.com

obeikandl.com

الصوت

أنواعه وصفاته

إنَّ مما امتنّ الله تعالىٰ به علىٰ عباده الصوتَ الحسن الذي تتلذَّذ بسماعه الآذان ، وتنسكب عذوبته في القلوب ، وتنشرح له الصدور ، وتنجذب إليه الأعماق ، وتأنس به النفوس ، وتتأثَّر به العواطف ، وتتهيَّج معه المشاعر حتىٰ ذهب بعض أهل التفسير إلى أنَّ المقصود بقوله تعالىٰ : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١] : الصوت الحسن .

وحيث كان حُسْن الصوت صفةً طيِّبةً في المخلوق فقد جمَّل الله تعالىٰ به صفوة خَلْقه من الأنبياء والمرسلين ، فجاء في الحديث : « ما بعث الله نبيّاً إلاّ حسنَ الصوت »[1] . وجاء في وصف داود عليه السلام أنَّه كان حسن الصوت في النياحة علىٰ نفسه وفي تلاوة الزبور ومناجاته لربِّه حتىٰ كان يجتمع الإنس والجنُّ والوحش والطير لسماع صوته .

ونظراً إلىٰ قيمة الصوت الجميل وقوَّة تأثيره الإيجابيِّ في نفوس المستمعين إليه كان الرسول الكريم محمد ﷺ يمدحه ويُثني علىٰ صاحبه ، وحسبنا أن نذكر هنا موقفه من أبي موسىٰ الأشعريِّ عندما سمعه يرتِّل القرآن الكريم بصوت جميل وإيقاع حسن إذ أقبل عليه مستبشراً ،

---

(١) أخرجه الترمذيّ في الشمائل عن قتادة ، وزاد قوله : « وكان نبيُّكم حسن الوجه حسن الصوت » .

فقال له : « يا أبا موسى ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود »[١] .
وكان يقول مؤكّداً ذلك : « الله أشدُّ أَذَناً إلىٰ الرجل الحسن الصوت يتغنّىٰ بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلىٰ قينته »[٢] .

ولقد مدح الناس حُسْن الصوت وأثْنَوا علىٰ صاحبه بما يليق به ، فجاء في الأشعار ما يدلُّ علىٰ ذلك نحو قول الراجز :

والطيـر قـد يسـوقـه للمـوت إصغـاؤه إلـىٰ حنيـن الصـوتِ

وقال ابن الرُّوميِّ في وصف مغنٍّ جميل الصوت :

فكـأنَّ لـذَّة صـوتـه ودبيبهـا سِنَـةٌ تمشّـىٰ فـي مفـاصـل نُعَّسِ

والصوت الحسن لا تنجذب إليه قلوب العقلاء فحسب ، بل يتأثَّر به كلُّ ذي سمع من مخلوقات الله سبحانه . فالجِمال تتأثَّر بالحُداء الذي يجتذب سمعها ، ويستحثُّ نشاطها رغم بلادة طبعها ، فتستخفُّ الأحمال الثقيلة مع سماعه ، وتستقصر المسافات الطويلة ، ويتفجَّر في عزائمها من النّشاط ما يُسكرها ويُولهها .

قال النُّوَيْريُّ في نهاية الأرب :

(فتراها إذا طالت عليها البوادي ، واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت مُنادي الحُداء تمدُّ أعناقَها وتُصغي إلىٰ الحادي ناصبةً آذانها ، وتسرع في سيرها حتىٰ تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها ، ورُبّما تُتلِف أنفسَها في شدَّة السير وثقل الحمل ، وهي لا تشعرُ به لنشاطها) .

والنحل تلك الحشرة العاملة تستطيب حُسْن الصوت ويُطربها سماعه

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذيّ عن أبي موسىٰ .
(٢) أخرجه ابن حبان والبيهقي عن فضالة بن عبيد .

حتىٰ قالوا : إنَّها أطرب الحيوان كلِّه إلى الغناء ، وإنَّ أفراخها لا تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن .

وكانوا يقولون في مدح الرجل بطيب العِشرة : إنَّ جليسه لطيب عشرته لأطرب من الإبل علىٰ الحُداء والنَّحل علىٰ الغناء .

ورحم الله ابن عبد ربِّه عندما قال :

فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشدَّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن؟

وأمّا الصوت القبيح فهو منفِّر للأسماع ، مزعج للقلوب مُوحش للنفوس ، يضيق معه الصدر ، ويضطرب به الشعور ؛ لذلك ذمَّ الله تعالىٰ أنكر الأصوات وأقبحها في الأسماع فقال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] . وهذا الكلام الكريم الذي جاء في معرض التأديب يدلُّ بمفهومه علىٰ مدح الصوت الحسن . والنفوس بطبعها تعشق كلَّ جميل ، وتنفر من كلِّ قبيح . لذلك لم يجرؤ الشُّعراء والأُدباء علىٰ مدح القبيح من الأصوات بل سارعوا إلى ذمِّه وكراهته في السمع ، وتحدَّثوا عن نُفرة النُّفوس منه ، فقال ابن الرّوميِّ في مغنٍّ قبيح الصوت :

إنّـك لـو تسمـع ألحـانـه ... وتلـك اللـواتـي ليـس يعـدوهـا
لخلـت مـن داخـل حُلْقـومـه ... مـوسـوسـاً يخنـق معتـوهـا

وقال آخر :

يا قُبحَ ما سمعت أُذْناي من نغمٍ ... تلقىٰ النفوسُ به التبريحَ والجزَعا
قد أوقدتْ نارَه في السمع حَنْجرةٌ ... مثل الصواعق فيها الهول قد قَبَعا
جنادل قلت في الآذان قد وجبتْ ... أم سقف بيتٍ علىٰ سُكَّانه وقعا

والصوت الحسن يطيب سماعه في الأُذُن ، ويعذُب في القلب ،

وتتذوَّق النّفس لذَّتَهُ إذا جاء موزون المخارج متناسب المطالع والمقاطع ، فيزيده ذلك حُسْناً وبهاءً ورونقاً ولذَّةً وتأثيراً . وكم من صوت جميل ضعُفت قُوَّة تأثيره في الآذان ، وقلَّت نشوة المستمعين إليه لفقده خصلتي التوازن والتناسب في مخارجه ومطالعه .

أنواع الحلوق وصفاتها :

تحدَّث العلماء عن أنواع الحلوق وصفاتها وأسمائها ، فجعلوها طائفتَيْن : محمودةً ومذمومةً ، وقسموها عبر الطائفتين إلىٰ الأنواع والصفات الآتية :

أ ـ أنواع الحلوق المحمودة وصفاتها :

١ ـ **الشَّجيُّ ، والنَّدِيُّ ، والرطب** : وهذه أغلاها وذروة سنامها .

٢ ـ **الزوائديُّ** : وهو الذي فيه نُغُم زائدة متكاثفة ، ومثله المنغَّم .

٣ ـ **المجلجل** : وهو الذي تُسمع له جلبة مع القُوّة التي تفرح بها الأذن .

٤ ـ **الأبحُّ** : وهو الذي به خشونة مستملَحة خِلْقةً مصحوبة بشجىً مثلما اشتهاه كشاجم بقوله :

أشتهي في الغِناء بحَّة حَلْقٍ ... ناعمِ الصوت متعَبٍ مكدودِ

وقيل لإسحاق : أيُّ الحلوق أحسن؟ فقال : الأبحُّ المَتْعوب .

٥ ـ **المدوَّر** : وهو المتوسِّط المائل إلىٰ الجهارة .

٦ ـ **الجهِر** : وهو القويُّ الغليظ البيِّن المنغَّم .

٧ ـ **الأَمْلس** : وهو الصافي .

ب ـ أنواع الحلوق المذمومة وصفاتها :

١ـ **الأجَشُّ ، والشعث ، والمحنق** : وهو الحزِق الضيِّق .

٢ـ **القطيع** : وهو يشبه صوت المغنِّي المحصور ، ولا يمكن لصاحبه أن يستوفي النَّغم .

٣ـ **المظلِم** : وهو الذي تقع نغمته خافتةً معمَّاةً لا تستبينها الأُذن .

٤ـ **المنطقيّ** : وهو دون المظلم .

٥ـ **الخَرق** : وهو الذي اتَّسع ، وأفرط حتىٰ تخرج النغمة منه مبدَّدة زائدة القدر ، ومثله : المنتشِر : أي الذي ينتشر النَّغم فيه .

٦ـ **المصلصل** : وهو المحتدّ اليابس الذي لا نداوة فيه .

٧ـ **المبلبل** : وهو الذي تضطرب فيه النّغمات ، وتزول عن أمكنتها .

٨ـ **المرتعد** : وهو الذي كأنَّ صاحبه مقرور .

٩ـ **المنعصر** : وهو الأحدبيُّ ، أي الذي يشبه صوت الأحدب من الناس حيث يخرج صوته رفيعاً مخنوقاً .

١٠ـ **الجاسي** : وهو ضدُّ النّاعم .

١١ـ **المقطَّع** : وهو الذي يكون له قعقعة تشبه كلام أهل البادية .

١٢ـ **الرِّخْو** : وهو الذي كأنَّما يعجن النَّغمة عجناً أو يمضغها مضغاً .

وسائل تحسين الصوت وعلاج الحَلْق :

ذكروا أنَّ من الأشياء التي تُلائم الحلق وتحسِّن الصوت : شربَ الماء الحارِّ علىٰ الرِّيق ، وشُرب دُهن اللَّوز علىٰ الرِّيق وعلىٰ الجوع ، والغرغرة بالفريك المدقوق بالسُّكَّر ، والقصب الحلو المشويّ ، وشُرب السويق ،

وشراب البنفسج بالماء الحارّ ، وشُرب ماء الباقِلّىٰ ، واستعمال السِّواك بالغداة ، وشرب العسل الممزوج بالماء الفاتر أو الحار المقبول . وذكروا أيضاً أنَّ الإنشاد يُديم حُسن الصوت والانقطاع عنه طريقٌ إلى انغلاقه وتغيُّره .

وأمَّا علاج الحلق وطرد الآفات عنه ، فقد تحدَّثت كُتُب الطبِّ عنه بصورةٍ مفصَّلة ، ونقتصر هنا على ذكر بعض النَّصائح المفيدة في ذلك .

قيل : إنَّ أجود الأشياء في علاجات الحلوق أن تُمرَّن بالكدِّ حتىٰ تندبغ . والصوت يزداد حُسْناً وصفاءً وحدَّةً في المواضع الواسعة الخالية والأماكن المجصَّصة الصُّلْبة مثل الأزاج وما شاكلها ، ويكتسب الغِلظة والجمود والشَّعث بضدّ ذلك . وكلّما لاقىٰ الصوت المواضع الصُّلْبة المُلْس كان أصفىٰ وأحدَّ .

وقالوا : إنَّ التهاون بأوصابه وعدم المبادرة إلىٰ معالجته وكثرة السَّهر يُفسِدُه ، وكذلك إدمان أكل الحموضات والمواد الحادَّة يُؤثِّر علىٰ سلامته وخاصّةً لأصحاب الحلوق اليابسة . وذكروا : أنَّ الهواء البارد يُفسد الصوت ، وخاصَّة في الشتاء ، وفي حال تقلُّب الطَّقْس المفاجىء .

أقول : ومن أكرم وسائل تقوية الصوت وتهذيبه وتحسينه والحفاظ على جماله ورونقه كثرة تلاوة القرآن الكريم تلاوةً تستوفي كامل أشراط صحَّتها وخصائص جودتها ومحاسن قبولها ، وذلك بلزوم قواعد التجويد وأُصول الترتيل ، وصفوة ذلك أن يعطيَ كلَّ حرفٍ حقَّه صفةً ومخرجاً . فمَن ثابر علىٰ ذلك ، واستكثر منه ؛ اعتاد في كلامه العاديّ أن يمنح حروف كلماته حقَّها كاملاً من الصفة والمخرج ، عندها تخرج من حَنجرته ، وتنساب علىٰ لسانه منضبطةَ المطالع متوازنةَ المقاطع ، ينسكب إيقاعها في الآذان انسكابَ الذَّهب في قوالبه ، وينساب لحنها في الأسماع

انسياب الماء في مسالكه ، فلا هو يشذُّ عنها ولا يبغي عليها .

وحسبنا دليلاً علىٰ ذلك قوله ﷺ : « أحسِنوا الأصوات في القرآن »[١] . وقوله أيضاً : « ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن »[٢] .

وقيل لابن أبي مُلَيكة : أرأيت إن لم يكن حسنَ الصوت؟ قال : يُحسِّنه ما استطاع .

أقول : إنَّ أحكام تجويد القرآن تقوّي اللِّسان ، وتحسِّن البيان ، وتجمِّل صوت الإنسان ، فإذا خرج حرف الكلمة من مخرجها الطبيعي وأخذ كامل حقِّه من الوصف ؛ كان وَقْعه في الآذان مقبولاً ، ولو كان صوت الناطق به قبيحاً ، فكيف إذا كان صوت التالي للقرآن جميلاً ، فلا ريب في أنَّه سيزداد حُسناً وجمالاً بفضل أحكام التجويد وأُصول التلاوة القرآنية التي التزمها وسار علىٰ هديها .

ومن قال : إنَّ الأحاديث الشريفة حضَّت علىٰ أن نزيِّن تلاوة القرآن بأصواتنا الجميلة لا أن نزيِّن الأصوات بتلاوة القرآن ، نحو قوله ﷺ : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم »[٣] ، وقوله : « لكلِّ شيءٍ حِلْية وحِلية القرآن الصوت الحَسَن »[٤] ، وقوله : « حسِّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القُرآن حُسْناً »[٥] .

أقول : إنَّ هذه الأحاديث الشريفة يحمِل مضمونُها إلىٰ جانب المعنىٰ الظاهر منها الدلالة علىٰ أنَّ الأصوات تُزيَّن بتلاوة القرآن للحيثيّات التي

---

(١) رواه الطبرانيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) رواه أبو داود عن أبي لبابة رضي الله تعالىٰ عنه .
(٣) رواه أبو داود والنَّسائيّ وابن ماجه عن البراء بن عازب رضي الله تعالىٰ عنه .
(٤) رواه عبد الرزّاق في جامعه والضياء عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه .
(٥) رواه الدارميّ عن البراء بن عازب رضي الله تعالىٰ عنه .

ذكرناها والأدلّة التي بسطناها إلىٰ جانب كوننا مأمورين بتلاوة القرآن الكريم بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . وقوله : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

وقوله ﷺ : « اقرؤوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه »[1] .

فإذا قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، وكان أحدنا قبيح الصوت ، وجزمنا بأنَّ الصوت لا يجمل بتلاوة القرآن ، فهنا نسأل : متى يجوز لقبيح الصوت أن يقرأ كلام الله ، حيث لا نتصوَّر منه التغنّي بالقرآن لقبح صوته؟

ويترتَّب علىٰ ذلك أنَّه لا يجوز لمن قَبُح صوته أن يقرأ القرآن ، وهذا خلاف النصوص الآمرة بتلاوة كتاب الله ، والناهية عن هجر تلاوته ، فنستنتج من خلال النصوص ومناقشاتها أنَّ المؤمن عندما يقرأ القرآن يستقيم لسانه بالنُّطْق بأحرف الكلمات بصورة صحيحة وبإيقاعات رتيبة تنجم عن إعطاء كلِّ حرف حقَّه مخرجاً وصفةً ، فيعود القرآن بالفضل علىٰ تاليه بتحسين صوته إلىٰ جانب ما يستعمله الإنسان من العوامل الكسبيَّة في تحسين الصوت بالتلاوة ، لكي لا يقع في محذور قوله ﷺ : « ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن » .

* * *

(١) رواه مسلم عن أبي أُمامة .

الغِناء في نظر الشَّرْع

الغِناء بكسر الغين هو مصطلح قُصِد به ما يمارسه الإنسان من التطريب والترنُّم بالكلام مشوباً بالعاطفة والإحساس والرقَّة في حال الفرح والترح ، فتبعث عليه مجالس السرور والابتهاج ومناسبات الأحزان والمآسي . وهو وضع تعبيريٌّ عمّا في أعماق الإنسان من المشاعر والانفعالات والتأثُّرات واللَّواعج . فمعْبَرته الأساسيَّة الوجدان ، ووسيلته الرئيسيّة الألحان ، ومادَّته الكلمات الموزونة .

وقلَّما نجد إنساناً لم يمارس الغناء في حياته ولو في بعض الأحوال بينه وبين نفسه في حال خلوته أو مع أصحابه وإخوانه في مجالس سمرهم أو في حقول عملهم . وذلك لأنَّ الإنسان مخلوق عاطفيٌّ إلىٰ جانب كونه مجبولاً علىٰ العقل . فعندما يتفجَّر بركان العواطف بين جوانحه تعتريه حالة نفسيَّة يكون الغناء أحد مسالك ظهورها ومظاهر التعبير عنها .

والغِناء بهذا المفهوم أمر محمود لا يعتريه مقت ولا استنكار في نظر الدِّين الحنيف . بل تضافرت الوقائع والشواهد والنصوص الشرعيَّة علىٰ إباحته وحِلِّ ممارسته ما لم يجنح به ممارسه عن نهج الفضيلة ومسار الأخلاق الإنسانيّة النبيلة . وهو من الفُسحة التي تضمَّنها شرع الله تربيةً للإنسان ورعايةً لنفسه وإيناساً لوجدانه وتقديراً لمشاعره وتسليةً لقلبه .

وإذا كانت البراءة الأصليَّة من قواعد التشريع الإسلاميِّ في إباحة الأشياء فإنَّ الغناء يدخل تحت شعارها ، وثمَّة نصوص ووقائع في دين الله

تؤكِّد حلَّه ، نذكر منها قوله ﷺ : « الهوا والعبوا فإنِّي أكره أن يُرىٰ في دينكم غلظة »[1] .

وحيث كان الغناء مظهراً من مظاهر الزينة في حياة الإنسان في أفراحه ومسرّاته ، فلا أجد حرَجاً في الاستدلال علىٰ إباحته بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] . والزينة منها الحِسّي ومنها المعنويّ . والصوت الحسن والألحان التي تهتزُّ بها الحناجر من بعض مظاهر الزينة التي تفيض في حياة الناس فضْلاً من الله ربِّ العالمين .

وأما الوقائع ؛ فقد جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت : دخل عليّ أبو بكر رضي الله عنه وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنِّيان بما تقاولت به الأنصار يومَ بُعاث ، وليستا بمغنِّيتين ، فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك يوم عيد ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر إنَّ لكلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدنا » .

ومن طريق آخر عنها رضي الله عنها قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنّيان بغناء بُعاثٍ ، فاضطجع علىٰ الفراش وحوَّل وجهه ، ودخل أبو بكر فانتهرني ، وقال : مزمارة الشيطان عند النبيِّ ﷺ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : « دعهما » .

قال بعضهم : لا يحسبنَّ أحد أنَّ الجاريتين فتاتان شابَّتان من الإماء بل هما طفلتان صغيرتان ، والعرب تطلق علىٰ الفتاة الصغيرة جارية لأنّها بدأت تجري . فرسول الله ﷺ أنقىٰ وأطهر من أن يبيح لنفسه الجلوس في حضرة فتاتين شابَّتَين أجنبيَّتين ، تغنِّيان بصوتيهما الجميلين ، وهو يستمع

---

(١) رواه البيهقيّ .

إليهما . كيف نجوِّز ذلك عن رسول الله ﷺ ، وهو الذي حذَّر من خطر الاختلاط وسوء عاقبته ، ودعا إلى نبذ سلوكه في واقع العلاقات ، لأنَّه معبرة إلىٰ الفساد وسبيل إلىٰ الانحراف عن نهج الفضيلة؟ .

وجاء في الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت جارية من الأنصار في حِجْري فزففتُها ، فدخل رسول الله ﷺ ، ولم يسمع غناءً ، فقال : « يا عائشة ألا تبعثين معها من يُغنِّي فإنَّ هذا الحيَّ من الأنصار يحبُّون الغناء » .

وجاء في رواية أُخرىٰ أوردها البخاريُّ وأحمد وابن ماجه : أنَّ قريبةً لأُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها زُفَّت إلىٰ أنصاريٍّ ، فقال رسول الله ﷺ : « أهديتم الفتاة؟ » ـ أي : هل زففتموها؟ ـ قالت عائشة : نعم ، قال : « أرسلتم معها من يغنِّي؟ » قالت : لا ، قال : « إنَّ الأنصار قوم فيها غزل ، فلو بعثتم معها جارية تضرب بالدفِّ وتغنّي؟ » قالت : تقول ماذا في غنائها؟ قال : « تقول :

أتيناكم أتيناكمْ فحيّونا نحيِّيكمْ
ولولا الحبّة السمراء لم نحلُلْ بواديكمْ

وفي رواية أخرى :

لولا الذهب الأحمر ما حلَّت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا ما سُمِّنت عذاريكم

وعندما عاد ﷺ من غزوة تبوك فرح المسلمون برجوعه فرحاً عظيماً ، فخرجت النساء والصِّبْيان والولائد يستقبلونه قائلين :

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وجاء أنَّه لما نزل في بيت أبي أيُّوب الأنصاري خرجت ولائد بني النّجار يرتجِزْنَ قائلات :

نحن جوارٍ من بني النّجار يـا حبّـذا محمـدٌ مـن جـار

وروىٰ عبد الله بن عبد الله بن أوس ابن عم مالك ، وكان من أفضل رجال الزهريِّ ، قال : مرَّ النبيُّ ﷺ بجارية في ظلِّ فارع (حصن بالمدينة) وهي تغنّي :

هـــل علـــيَّ ويحكـــمُ إن لهـــوت مـــن حـــرجِ

فقال النبيُّ ﷺ : « لا حرج إن شاء الله » .

فلو كان الغناء حراماً لأنكر رسول الله ﷺ علىٰ تلك الجارية غناءها ذلك .

وقالت الرُّبَيِّع بنت معوِّذ : دخل عليَّ رسول الله ﷺ صبيحة عُرسي وعندي جاريتان تغنِّيان وتندبان آبائي الذين قُتلوا يوم بدرٍ وتقولان فيما تقولان :

وفينـا نبـيٌّ يعلـم مـا فـي غـدِ

فقال : « أما هذا فلا تقولوه ، لا يعلم ما في غدٍ إلاّ الله عزَّ وجلَّ » ، فلم ينهَ رسول الله ﷺ الجاريتين عن الغناء ، ولكن نهاهما عن أمر يمسُّ العقيدة ، وهو وصفهم رسول الله بأنَّه يعلم الغيب ، فردّهما إلىٰ المعتقد الصائب وهو : « لا يعلم الغيب إلاّ الله » .

وجاء في الصحيح أنَّه كان للرسول الكريم حادٍ حسن الصوت يُقال له (أنجشة) ، وكان يسوق إبلاً عليها نسوة رسول الله ﷺ ، وهو يحدو ، ويُنشِد شيئاً من الشِّعر والرّجز وما فيه تشبيب ، فقال ﷺ : « يا أنجشة ، رويدك سوقاً بالقوارير » ، فسمّىٰ النساء : قوارير لشدَّة تأثُّرهنّ ، فلم ينه

أنجشة عن الحُداء ، ولم يعنِّفه بشدَّة علىٰ ما جاء به من التشبيب ، وإنَّما تلطَّف به ، ودعاه إلىٰ الترفُّق بالنِّساء اللّواتي يركبن معه[1] . ولو كان الأمر حراماً لنهاه عنه منذ البداية .

وكان ﷺ يطلب من أصحابه أحياناً أن يسمعوه شيئاً من النشيد والأراجيز ذات الأنغام العذبة والأصوات الشجيَّة ، فروىٰ الطبرانيُّ عن سلمة بن الأكوع : أنَّه ﷺ خاطب أحد الصحابة قائلاً : « انزل يا عامر ، فأسمعنا من هَنيّاتك » ـ أي أراجيزك ـ . بل أقول : كان ﷺ يشارك أصحابه إنشادهم وأراجيزهم أثناء أعمالهم ، فقد جاء أنَّه ارتجز هو والصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم حين بنىٰ المسجد في المدينة المنوّرة ، فكان يردِّد أثناء العمل مع المسلمين ، فيقولون مرتجزين :

اللهمّ لا خير إلاّ خير الآخره فارحم الأنصار والمهاجره

والرسول الكريم كان يقولها معهم هكذا :

اللهم لا خير إلاّ خير الآخره فارحم المهاجرة والأنصار

وجاء في السِّيَر نبأُ مشاركته إيّاهم في الارتجاز بشعر عامر بن الأكوع[2] ، يوم حفر الخندق في غزوة الأحزاب ، فكان ﷺ ينقل التراب وهو يقول مع أصحابه :

اللّٰهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـدَّقنـا ولا صلَّينـا

فـأنـزلَـنْ سكينـةً علينـا وثبِّـت الأقـدام إن لاقينـا

والمشركون قد بغَوا علينا وإن أرادوا فتنـةً أبينـا

---

(١) ذكر بعضهم أن دعوته إياه إلى الترفُّق لم تكن خشية تأثُّر النِّساء بصوته ، بل خوفاً عليهنّ من حركة الإبل وتهيّجها بألحانه .

(٢) وجاء أيضاً أن هذه الأبيات من شعر عبد الله بن رواحة . انظر : « نور اليقين » للخضري.

ولا يخفىٰ علىٰ أحدٍ أنَّ هذا الضرب من الإنشاد أثناء العمل يكون حافزاً للإنسان علىٰ العمل ، ويزيد من همَّته ونشاطه فيه ، ويسلِّيه عن التعب والنّصب المتوقَّع حدوثه بسببه ، فيستمرُّ فيه دون أن تفتر همَّته أو تضعف عزيمته .

ولقد ذهب جلَّة علماء الإسلام والثِّقات من أئمَّته إلىٰ إباحة الغناء النظيف والتطريب بالشِّعر الحسن ، فقال الإمام الشافعيُّ (رحمه الله تعالىٰ) : الشِّعر كلام ؛ فحسنه حسن وقبيحه قبيح . ومهما جاز إنشاد الشِّعر بغير صوتٍ وألحان جاز مع الألحان . فإنَّ أفراد المباحات إذا اجتمعت كانت مباحاً ، ومهما انضمَّ مباح إلىٰ مباح لم يحرم إلاّ إذا تضمَّن المجموع محظوراً لا تتضمَّنه الآحاد ، ولا محظور ها هنا .

وساق الإمام الشافعيُّ في معرض ذلك أدلَّةً من الصحيح ، ثمَّ قال بعد ذلك :

لم يزل الحُداء وراء الجِمال من عادة العرب في زمان سيدنا رسول الله ﷺ وزمان الصحابة ، وما هو إلاّ أشعار تؤدَّىٰ بأصوات طيِّبة وألحان موزونة ، ولم يُنقَل عن أحد من الصحابة إنكاره . بل رُبَّما كانوا يلتمسون ذلك تارةً لتحريك الجِمال وتارةً للاستلذاذ . فلا يجوز أن يُحرَّم من حيث إنَّه كلام مفهوم مؤدّىً بأصوات طيِّبة وألحانٍ موزونة . اهـ

وسُئل العزّ ابن عبد السلام عن استماع الإنشاد في المحبَّة والرقص ، فقال : الرقص بدعة لا يتعاطاه إلاّ ناقص العقل ، ولا يصلح إلاّ للنِّساء ، وأمّا سماع الإنشاد المحرِّك للأحوال السنيَّة المذكِّرة للأمور الآخرة ، فلا بأس به ، بل يُندَب عند الفتور وسآمة القلب ، ولا يُحظر إلاَّ لمن في قلبه هوىً خبيث فإنَّه يُحرِّك ما في القلب . اهـ

ونُسِب إلى بعض الصحابة والتابعين والأئمَّة وخلفاء المسلمين أنَّهم

أصغَوا إلىٰ الغناء ، واستمعوا إلىٰ بعض المغنِّين ، وامتلأت كُتُب الأدب « كالأغاني » و « العقد الفريد » و « نهاية الأرب » بأخبار ذلك ، منها ما حسُن سنده ومنها ما ضعُف ، إلاّ أنَّ ما ورد من الأدلَّة والنصوص والوقائع نحو ما ذكرناه يكون حُجَّةً في الغناء المباح الخالي من دواعي المجون وتهييج الشَّهْوة وإفساد القيَم والأخلاق والمعاني الإنسانيَّة الكريمة ، والخالي من آلات اللَّهْو ومجالس السمر الخاسر .

وأمّا الغناء المثير لكوامن الشهوة الباعث علىٰ الافتتان المشوب بالتخنّث والتغنُّج الذي تُستَعمل فيه ألفاظ الفسق والفجور والذي يُنسي سامعه ذكر الله والآخرة والإيمان ، ويُغرِقه في لُجَّة اللَّهْو والعصيان ، فهو محرَّم باتِّفاق . هذا إذا كان من الرجال في حضرتهم ، وأمّا إذا كان من الرجال في حضرة النِّساء فالحرمة أشدُّ ، والأشدُّ منه تحريماً بلا خلاف إذا كان من المرأة في حضرة الرجال .

ولقد جاء في عموم تحريم هذا الضَّرْب من الغناء عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

« من استمع إلىٰ صوت غناءٍ لم يُؤذَنْ له أن يستمع إلى صوت الروحانيِّين في الجنَّة »[1] .

وروىٰ الطبرانيّ والخطّابيّ عن ابن عمر رضي الله عنهما :

« أنَّ النبيَّ ﷺ نهىٰ عن الغناء والاستماع إلىٰ الغناء ، وعن الغيبة والاستماع إلىٰ الغيبة ، ونهىٰ عن النَّميمة والاستماع إلىٰ النَّميمة » .

فالغِناء لم يُبَح في الإسلام علىٰ إطلاقه ، وإنَّما خضع حِلُّه وتحريمه لقاعدة درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح ، فإذا ترتَّب علىٰ ممارسته

---

(١) رواه الحكيم الترمذي .

الفساد ، وأغرق صاحبه في متاهة البعد عن منهج العبودية الخالصة لله ربِّ العالمين أصبح حراماً ، ووجب حينئذٍ استئصاله من نطاق الرَّغبات النفسيَّة التي لم يعلن الإسلام حربه عليها ، وإنَّما جاءت أحكامه وتشريعاته وتوجيهاته الحكيمة ضابطةً لتوجُّهاتها محكمةً لمسارها وفق تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم ، فلا يقبل من رغبات النفس الإنسانيّة وميولها ولذائذها ومسلياتها إلاّ ما التقىٰ منها صفاءَ الفطرة البشريَّة المنجذبة دائماً إلىٰ قطب المنهج الإلهيّ والدائرة في فلكه والمنسجمة مع روحه ومعانيه السامية ، وهذا ما أكَّده سيّد المرسلين بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تَبَعاً لما جئت به »[1] . وتلك هي صبغة دين الله الحقِّ الذي قال فيه سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ـ٥٣] .

وقال فيه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الروم : ٣٠] .

وأقول في خلاصة هذا الحديث :

إنَّ الغِناء النَّظيف الطاهر البريء من لوثات الشرِّ والانحراف والهبوط والسقوط في أوحال الرذيلة والمنكر والباعث علىٰ الخير والحقِّ والهدى والصلاح هو الغِناء الذي أباحه الإسلام ، وأما ما كان داعيةَ الانحراف

---

(١) رواه الحكيم وأبو نصر السجزي في الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو .

والزنى والفساد فهو الذي رفضه الإسلام ، واستاء من تفشِّيه بين الناس . والأدلَّة التي وردت في ذمِّ الغِناء ، ودعت إلى نبذه قُصِد بها الضَّرْب الثاني منه فقط .

ومن هذه الأدلَّة الشرعيّة المحرِّمة :

أولاً ـ في القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان : ٦] .

روىٰ ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنَّه سُئل عن هذه الآية فقال : (الغِناء) ، والذي لا إله إلاّ هو لا غيره .

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : أنَّه قال فيها : إنَّه الغِناء وأشباهه .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : ٦٤] . قال مجاهد : هو الغِناء والمزامير .

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

قال محمد بن الحنفيَّة ومجاهد : هو الغِناء .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ٣] .

٥ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] .

ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ لغو الحديث : هو الغناء .

٦ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم : ٥٩ـ٦١] .

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : ﴿سامدون﴾ هو الغناء بلغة حمير .

وقال مجاهد : هو الغِناء بقول أهل اليمن ، سمد فلان : إذا غنّىٰ .

أقول : هذه النصوص القرآنية لا تدلُّ صراحةً على تحريم الغناء ، ولا تقتصر دلالاتها علىٰ تحريمه ، بل يُراد بها معانٍ عِدّة والغناء الساقط بعض هذه المعاني .

ثانياً ـ في السنّة النبويّة الشريفة :

١ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ قال : « الغناء يُنبِت النِّفاق في القلب كما يُنبِت الماءُ البقل » .

رواه البيهقيّ وابن أبي الدنيا وكذا أبو داود ولكن دون التشبيه ، ورواه البيهقيُّ أيضاً موقوفاً .

ورواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « حُبّ الغناء يُنبِت النِّفاق في القلب كما يُنبِت الماء العشب » .

ورواه الديلّمي أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « الغناء واللَّهو ينبتان النِّفاق في القلب كما يُنبت الماءُ العُشب ، والذي نفسي بيده إنَّ القرآن والذكر ليُنبتان الإيمانَ في القلب كما يُنبت الماءُ العُشب » .

وذكره شيخ الإسلام الحافظ العسقلانيّ بهذا اللَّفظ موقوفاً على ابن مسعود . واستدل على حرمة الغناء بأنَّه جُعل ذكر الله مقابلاً للغناء لكونه ذكر الشيطان كما قابل الإيمان النِّفاق .

٢ـ عن أبي موسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

« من استمع إلىٰ صوت غِناءٍ لم يؤذَنْ له أن يستمع إلىٰ صوت

الروحانيّين في الجنَّة . قيل : وما الروحانيّون؟ قال : قُرّاء أهل الجنَّة » . رواه الحكيم الترمذيُّ .

٣ـ عن صفوان بن أُميَّة أنَّ عمرو بن قُرَّة قال : يا رسول الله كُتبت عليَّ الشِّقْوة فلا أراني أُرزق إلاّ من دُفِّي بكفِّي ، فتأذن لي في الغناء من غير فاحشة؟

فقال له رسول الله ﷺ : « لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة عين ، كذبت أيْ عدوَّ الله! لقد رزقك الله حلالاً طيِّباً ، واخترت ما حرّم الله عليك من رزقه مكان ما أحلَّ الله لك من حلاله ، ولو كنتُ تقدَّمتُ إليك لفعلتُ بك وفعلتُ ، قم عنِّي ، وتب إلىٰ الله » .

رواه البيهقيّ والطبرانيّ والديلميّ وأخرجه ابن ماجه في كتاب الحدود باب المخنَّثين .

٤ـ عن السائب بن يزيد : أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعائشة وقد دخلت لها قينة مغنيّة : « يا عائشة ، تعْرفين هذه قينة بني فلان ، أتُحبِّين أن تغنِّيك؟ » قالت : نعم . فغنَّتها ، فقال : « لقد نفخ الشيطان في منخريها » رواه أحمد والطبرانيُّ .

ولا يخفى علىٰ أحدٍ أنَّ قوله : « لقد نفخ الشيطان في منخريها » ذمٌّ لا مدح .

٥ـ عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في هذه الأُمّة خَسْف ومَسْخ وقَذْف » قيل : ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال : « إذا ظهرت القينات والمعازف واستُحِلَّت الخمر » .

رواه عبد بن حميد واللفظ له وابن ماجه مختصراً ، ومدار مسانيدهما علىٰ عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم وهو ضعيف ، وصحَّ من طُرُقٍ خلافاً لما وهم فيه ابن حزم ، فقد علَّقه البخاريُّ ، ووصله الإسماعيليُّ وأحمد

وابن ماجه وأبو نُعيم وأبو داود بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها ، وصحَّحه جماعة آخرون من الأئمّة . وفي ذكر القينات دليل علىٰ الغناء ، وهو من مظاهر الفساد حيث ذكر مع المعازف واستحلال الخمر .

٦ـ قال الأذرعيُّ في كتابه « غُنية المحتاج في شرح المنهاج » :

ومما يدلُّ على ذمِّه وذم متعاطيه ـ يعني الغِناء ـ من المتَّفق علىٰ صحَّته قوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » . ولم يأت رسول الله ﷺ بالغِناء ولا باستعمال المعازف واتِّخاذ القينات ، فإذاً هذه من الأمر المردود في نظر شرع الله .

وهناك في هذا الباب أحاديث كثيرة أهملنا ذكرها نظراً لشدَّة ضعفها .

ثالثاً ـ أقوال السلف رضي الله عنهم :

١ـ رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت :

إنَّ الله عزَّ وجلَّ حرَّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ، ثمَّ قرأت : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ . . ﴾ [لقمان: ٦] .

٢ـ روىٰ الطبرانيّ والخطّابي عن ابن عمر رضي الله عنهما :

نهى رسول الله ﷺ عن الغناء والاستماع إلىٰ الغناء وعن الغيبة والاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة .

٣ـ رُوي عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنَّه قال : ما تغنَّيْت قطُّ . فتبرّأ من الغِناء ، وتبجَّح بتركه .

٤ـ قال الضحّاك : الغناء مفسدة القلب مسخطة الربِّ .

٥ـ قال الشَّعْبيُّ : لُعِن المُغنِّي والمغنّىٰ له .

٦ـ قال الحكم بن عتيبة : حُبُّ السماع يُنبِت النِّفاق في القلب .

٧ـ قال الفضيل بن عياض : الغناء رُقْية الزِّنى .

٨ـ قال يزيد بن الوليد :

يا بني أُمَيّة ، إيّاكم والغِناء ، فإنَّه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنَّه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعله السُّكْر ، فإن كنتم لا شكَّ فاعلين ، فجنِّبوه النساء ، فإنَّ الغناء رقية الزنى .

ذكره النويريُّ في « نهاية الأرب » .

* * *

obeikandl.com

الضرب بالآلة والمزامير والملاهي

اختلف علماء الإسلام في حكم الآلات الموسيقيَّة كالدفِّ والمزامير والأوتار ؛ فكانوا في ذلك فريقين ، منهم من أباحها علىٰ إطلاقها ، ومنهم من أباح بعضها وحرّم بعضها الآخر . وشفع كلُّ فريق منهم رأيه بالأدلَّة والحُجج الشرعيَّة التي تُقَوِّي مذهبه .

والذين أباحوها على إطلاقها ذهبوا إلى أنَّ المزامير والأوتار ونحوها من آلات الطرب وضعت علىٰ صورة الحناجر التي هي الأصل في الأصوات . وسماع الأصوات الصادرة من حناجر الحيوانات والإنسان ليس حراماً لكونها طيِّبةً ، فلا قائل بتحريم صوت العندليب ونحوه من سائر الطيور الغِرِّيدة ، ولا فرق بين حَنْجرة وحَنْجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي لذلك أن يُقَاس علىٰ صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدميّ كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدفِّ وغيره .

غير أنَّ أصحاب هذا المذهب لا يخالفون أصحاب المذهب الثاني في تحريم ما كان مدعاةً للفسق والفجور وعوناً على الفساد ، فحيث وُجدت الفتنة والمفسدة أصبح استعمال هذه الآلات حراماً .

وأما القائلون بإباحة بعض هذه الآلات وتحريم بعضها الآخر فقد احتجوا بالأدلَّة من الكتاب والسنَّة ومواقف الصحابة والتابعين وكبار أئمَّة المسلمين . وذهبوا إلى أنَّ العلَّة في تحريم الملاهي والمزامير والأوتار

كونها شعار أهل الشرب والفسق لا للذَّتها ، وإلاّ لَقِيس عليها كلُّ ما يلتذُّ به الإنسان كالطعام والشّراب .

قال النُّويريُّ في نهاية الأرب :

ولكن حُرِّمت الخمور ، واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتىٰ انتهىٰ الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان ، فحُرِّم معها ما هو شعار أهل الشُّرْب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمه من قبيل الاتباع ، كما حُرِّمت الخلوة لأنّها مقدِّمة الجماع ، وحُرِّم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحُرِّم قليل الخمر وإن كان لا يُسكِر ؛ لأنَّه يدعو إلى السُّكْر . وما من حرامٍ إلاّ وله حرم يُطيف به . وحكم الحُرْمة ينسحب علىٰ حريمه ليكون حِمىً للحرام ووقايةً له وخِطاراً مانعاً حوله ، كما قال ﷺ : « إنَّ لكلِّ ملكٍ حمىً ، وإنَّ حمىٰ الله محارمه » . فهي محرَّمة تبعاً لتحريم الخمر . اهـ

وفي تفصيل الحديث عن تحريم هذا الضرب من الآلات والمعازف أقول :

لقد ذكر أصحاب هذا المذهب نصوصاً صريحةً في تحريم المعازف والأوتار وآلات الطرب التي يستعملها الفُسَّاق في مجالس لهوهم ، منها :

ما رواه مسدّد والبيهقيُّ في سننه الكُبرىٰ موقوفاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « الكُوبة حرام والدنُّ حرام ، والمعازف حرام ، والمزامير حرام » .

وما رواه عبد بن حُمَيد وابن ماجه ، وعلّقه البخاريُّ ، ووصله الإسماعيليّ وأحمد وأبو نعيم وأبو داود بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في هذه الأُمَّة خسف

ومسخ وقذف » قيل : ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال : « إذا ظهرت القينات والمعازف واستُحلَّت الخمر » .

وذكر بعض الحفَّاظ مصحّحاً أنَّه ﷺ قال : « ليكوننّ في أُمَّتي أقوامٌ يستحلّون الخزّ والحرير والخمر والمعازف » .

وهذا صريح ظاهر في تحريم آلات اللهو المطربة .

ومنها ما أخرجه الديلميّ عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « أُمِرْت بهَدْم الطبل والمزمار » .

وما رواه أحمد وأبو داود وابن حبّان عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ الله حرَّم علىٰ أُمَّتي الخمر والميسر والكُوبة ، وأشياء عدَّدها » .

وجاء في كتاب « كف الرّعاع عن محرَّمات اللَّهو والسماع » لابن حجر الهيثميِّ رحمه الله تعالىٰ ما نصُّه :

القسم الثالث عشر : الأوتار والمعازف كالطنبور والعود والصنج أي ذي الأوتار والرَّباب والجنك والكمنجة والسنطير والدريج وغير ذلك من الآلات المشهورة عند أهل اللَّهو والسفاهة والفسوق ، وهذه كلُّها محرَّمة بلا خلاف ، ومن حكىٰ فيها خلافاً فقد غلط أو غلب عليه هواه حتى أصمَّه وأعماه ، ومنعه هداه ، وزل به عن سنن تقواه .

وممَّن حكىٰ الإجماع علىٰ تحريم ذلك كلِّه الإمام أبو العبّاس القُرطبي ، وهو الثِّقة العدل ، فإنَّه قال كما نقله عن أئمَّتنا وأقروه :

أما المزامير والأوتار والكوبة فلا يختلف في تحريم سماعها ، ولم أسمع عن أحد ممَّن يعتبر قوله من السَّلَف وأئمة الخلف قد يُبيح ذلك ، وكيف لا يحرَّم وهو شعار أهل الخمور والفسوق ومهيِّج للشهوات

والفساد والمجون ، وما كان كذلك لم يشكَّ في تحريمه ولا في تفسيق فاعله وتأثيمه . اهـ

أقول : لقد سمّىٰ فقهاؤنا هذه المعازف والأوتار والكوبة ونحوها آلات لَهْو ، فحرَّموا التكسُّب بها ، وأوجبوا إتلافها ، وكانت عندهم كالميتة ونحوها . فلم يجوِّزوا بيعها ولا شراءها ولا أن تكون مهراً للمرأة ، ولا تصحُّ المعاوضة بها . وأما الآلات التي أُبيح الضَّرْب بها ، فمرهون حِلُّها بثلاثة أشياء :

١ـ نوع الآلة .

٢ـ المناسبة الداعية .

٣ـ الغناء المصاحب لها .

فلقد ورد إباحة الدفِّ في الأعراس وفي الأعياد لإضفاء جوِّ الفرح والبهجة في تلك المناسبات ، فجاء في الحديث : « أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدفِّ »[1] .

وروى الترمذيّ وحسَّنه ابن حِبّان في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال : « فصل ما بين الحلال والحرام الضرب بالدفِّ » .

ومرَّ معنا حديث الرُّبيِّع بنت معوِّذ الذي أخرجه البخاريُّ في صحيحه : كيف ضربت جويريات صبيحة عُرْسها بالدفِّ ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، ولم ينكر عليهنَّ .

كما جاء عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ رسول الله ﷺ سافر سفراً ، فنذرت جارية من قُريش لئن ردَّه الله تعالىٰ أن تضرب في بيت عائشة

---

(١) أخرجه الترمذيّ عن عائشة رضي الله عنها ولفظه : « واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف » وأخرجه البيهقي كذلك .

بـدفٍّ ، فلمّـا رجـع رسـول الله ﷺ ـ جـاءت الجـاريـة فقـالـت عـائشـة لرسول الله ﷺ : فلانة ابنة فلان نذرت لئن ردَّك الله تعالىٰ أن تضرب في بيتي بدُفٍّ . قال : « فلتضرب » .

قال النويريُّ : قال أبو الفضل ـ يعني الإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسيّ رحمه الله تعالىٰ ـ : هذا إسناد متَّصل ورجاله ثقات .

وقد قال رسول الله ﷺ : « لا نذر في معصية » ، فلو كان ضَرْب الدفِّ معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو منعها من فعله .

وأُبيح المزمار للرّاعي لكي تستريح الأغنام لصوته ، وتأنس أثناء رعيها بلحنه ، وتبقىٰ قريبة منه ، فلا تشذّ عن مرعاها ، ولا تغيب عن ناظرَيْ من يرعاها . ولقد احتجّوا لإباحته بحديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما ، وهو ما خرَّجه أبو داود في سُننه عن نافع قال : سمع ابن عمر رضي الله عنهما مزماراً ، فوضع إصبعيه على أُذنيه ، ونأىٰ عن الطريق ، وقال لي : يا نافع ، هل تسمع شيئاً؟ قلت : لا . قال : فرفع إصبعيه من أذنيه ، وقال : كنت مع رسول الله ﷺ ، فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا . اهـ

فلو كان المزمار حراماً في هذا الموطن لنهىٰ ابن عمر غلامه نافعاً عن الاستماع ، وكذلك رسول الله ﷺ عندما قال ابن عمر : « كنت مع رسول الله ﷺ ، فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا » . لأنَّه عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال ، فحيث لم ينه ابن عمر عن الاستماع ، واكتفى بوضع أصبعيه في أُذنيه ثمّ نزعهما عندما انقطع ؛ دلَّ على عدم حُرمة المزمار للرّاعي .

وأُبيح الطبل في الحرب والعيد وعند استقبال الحجيج للإعلام ونحوه ، فإذا تحقَّق الإعلام ونحوه بغيره فالعزوف عنه أولىٰ .

واشترط الشَّرع الحكيم ألاّ يصاحب هذه الآلات من ضروب الغِناء إلاّ ما طابت كلماته ، وسمت معانيه ، وكان لائقاً بطهارة الشريعة ، وسلامة العقيدة ، وصفاء العبادة . وأمّا ما يتعاطاه المخنَّثون والفُسَّاق من رذيل المعاني وخبيث الكلمات ، وما ينتشر منها في مجالس اللَّهو والفساد ، فلا نصَّ في إباحته ولا دليل على جوازه إلاّ عواصف الأهواء وضلالات الآراء .

* * *

obeikandl.com

الفيصل في إباحة الغناء وتحريمه

إنَّ الفيصل في الإباحة والتحريم هو منهج الله القويم .

ولمّا كان الإسلام دين الله الحقّ الذي ارتضاه لعباده حيث قال فيه :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

[المائدة : ٣] .

وجاء ناشراً للفضيلة ماحقاً للرذيلة آمراً بالحقِّ والخير والصلاح ناهياً عن الباطل والشرِّ والفساد ، وأُمر الناس بالتزامه وتطبيق مبادئه وأحكامه لقوله تعالىٰ :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وحُذِّروا من عاقبة الإعراض عن هديه وسلوك غيره إذ قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٦] .

فلقد اقتضىٰ ذلك أنَّ كلَّ ما دار من أقوال المكلَّفين وتصرُّفاتهم وأحوالهم في فلك ما جاء ناشراً له آمراً به فهو مقبول ما دام جارياً على قواعده منساباً في قنوات ضوابطه ، وكلُّ ما دار من تلك الأقوال والتصرُّفات والأحوال في فلك ما جاء ماحقاً له ناهياً عنه فهو مردود مذموم ، لا يُلتفت إليه ، ولا يُعوَّل عليه مهما تمحَّلْنا له الأعذار ، وادَّعينا

صفاءه من الأكدار ، لأنَّ الحسن ما حسّنه الشَّرع والقبيح ما قبّحه الشَّرع .

وأمّا دعوىٰ العادات وتغيُّرها والمجتمع وتطوُّره والحضارة وتقدُّمها والمدنيَّة ومظاهرها فكلُّ ذلك لا يستحقُّ أن نُعيره اهتماماً ، أو نوليه تقديراً واحتراماً إذا نبت في غير تُرْبة الإسلام ، وظهر خارج دائرته . فلقد ثبت أنَّ الإسلام أبطل كثيراً من أعراف الجاهليَّة وعاداتها وأفكارها ومعتقداتها التي خالفت أنوار هديه ، وابتعدت عن استقامته وطُهْره ، وأقام علىٰ أنقاضها الحقَّ الذي في ظلِّه تكمُن سعادة الإنسان ، ويكون خيره وفلاحه في دنياه وفي أُخراه . وأمّا ما كان من أعراف الجاهليَّة وعاداتها وأخلاقها موافقاً هديه وصفاءه وطهارةَ قيمه ومبادئه وعقائده ، فقد أقَرَّ الناسَ عليه ، وأيَّده بتوجيهاته الحكيمة وإرشاداته القويمة ، فازداد بها رونقاً وبهاءً .

ولمّا كان الغناء وما صاحبه من الآلات بعض ما يصدر من الإنسان ويمارسه في حياته من الأقوال والأفعال والأحوال ، فينبغي له أن يخضع لقواعد شريعة الإسلام وهديها قَبُولاً وردّاً ؛ فما وافق من ضروبه منهج الله وروح هديه بأن كان مدعاة إلى إثارة المشاعر الطاهرة والمعاني الكريمة والقيم الفاضلة فهو محمود لا غبار عليه ، وأما ما خالف من ضروبه هدي المنهج الإلهيِّ بأن كان داعياً إلىٰ الشرِّ والفساد ووسيلةً إلى النِّسيان والعصيان والسقوط في مستنقعات الخُسْران فهو مرفوض مخذول ، تجب محاربته ، ولا تجوز ممارسته .

وينبغي لنا أن نعلم أنَّ حظَّ الغِناء المقبول شَرْعاً من أوقات الإنسان المسلم وسلوكه يجب ألاّ يتعدّىٰ الحاجة إلى الملح للطعام ، فلا يسترسل فيه حتىٰ يصبح صبغةَ حياته وصفةً بارزة في مَلْء أوقات فراغه ، وإنَّما يمارسه في الظروف والمناسبات الداعية إليه والأحوال التي يحسُن فيها تناوله ، وقد سبقت الإشارة إليها في غضون حديثنا عن الغناء .

وأمّا الذين يغرقون فيه إلىٰ الأذقان ، ويجعلونه غاية همِّهم ومبلغ علمهم ، ويستكثرون منه في سائر مجالسهم وشتَّى أحوالهم ، ويجعلونه عمدةَ لقاءاتهم ومُسامراتهم فحسبي أن أقول لهم :

إنَّ ما جعله الله تعالىٰ في أعناقنا من أمانة الدِّين ومسؤولية عبادته وطاعته في العالمين ، يستدعي أن نغتنم أوقاتنا بما يزيدنا قُرباً منه سبحانه وَفْقَ ما أمرنا به وحضَّنا عليه من أمرٍ بمعروف ونَهْيٍ عن منكر وركوعٍ وسجودٍ وذكرٍ ودعاءٍ وجهادٍ وإنفاقٍ وفعلٍ للخير واستكثارٍ من الأعمال الصالحات . والمؤمن الحقُّ هو الذي يستكثر من الطاعات والقُرُبات ، ويتقلَّل من المباحات ، فلا يأخذ من المباح إلاّ ما يكون له عوناً علىٰ الطاعة وحافزاً علىٰ العبادة .

والغناء وآلاته مهما سمت معانيه ، وطهرت كلماته ، وزكت ألحانه ، ونَبُل تأثيره في الأسماع والقلوب ليس الوسيلة الفعّالة في الارتقاء بالإنسان إلىٰ أسمىٰ منازل القرب من الله ، بل هو كسائر الملذّات المباحة التي يتناولها الإنسان كالطعام والشراب والوقاع والنوم وراحة الأبدان ، فإذا أكثر منها أخلدتْه إلىٰ دنياه ، وأضعفت صلته بأُخراه ؛ لهذا شرع الله الصيام ، وجعل من أهمِّ أشراط صحَّته الانقطاع عن شهوات الطعام والشراب والوقاع خلال فترة أدائه ، فيكون ذلك حافزاً لروح العبد الصائم علىٰ الانطلاق إلىٰ منازل الملأ الأعلى في العبادة والمناجاة ، وشرع القيام في الليل ، وجعل سبيله هجر النوم وترك راحة البدن ؛ لينعتق العبد من جواذب الأرض ومرتع الشهوات ، وينطلق في معراج العبادة والقرب من الله ربِّ العالمين . فالتخفُّف من زينة الدنيا وشهوات الحياة سبيل الصالحين من العباد وخُلُق الغارقين في حبّ الله .

ولو كان الأمر غير ذلك لكان أولى الناس بالغناء وسائر الشهوات

المباحات الرسول الكريم ﷺ وأصحابه الكرام ومن جاء بعدهم من التابعين والأئمَّة الأعلام ودعاة الدِّين الثِّقات . ولكنَّ المقتفي أثر حياتهم والمتتبِّع لوقائع سيرهم يجد أنَّهم كانوا أكثر الناس إعراضاً عن الشهوات وتقلُّلاً من الملذّات وإقبالاً علىٰ الطاعات والأعمال الصالحات والدعوة إلىٰ الله ربِّ العالمين . فما كان للغناء المباح ولا لغيره من الشهوات المباحات أن يكون له نصيب من أوقاتهم وأحوالهم وميولهم أكثر من قطرات يجدون فيها تسلية لنفوسهم وتجديداً لنشاطهم وتحريكاً لهممهم ، حيث صعَّد الإسلام مفهوم الغِناء المباح ، فجعله ذا رسالة بنّاءة في حياة المسلمين بعد أن كان مجرَّد شهوة ونزوة ولهو وتسلية .

ولابأس في أن نختم هذا الحديث بجملة طيِّبة نصطفيها من كلام الإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزاليّ رحمه الله تعالىٰ من كتابه « إحياء علوم الدِّين » ، وهي ما يأتي :

قال أبو حامد رحمه الله تعالىٰ :

والسماع يحرُم بخمسة عوارض : عارض في المُسمِع ، وعارض في آلة السّماع ، وعارض في نظم الصوت ، وعارض في نفس المستمع أو في مواطنه ، لأنَّ أركان السَّماع هي : المُسمِع ، والمُستَمِع ، وآلة السّماع .

العارض الأوّل :

أن يكون المُسمِع امرأةً لا يحلُّ النَّظر إليها وتُخشىٰ الفتنةُ من سماعها ، وفي معناها الصبيُّ الذي تُخشىٰ فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة ، وليس ذلك لأجل الغِناء ، بل لو كانت المرأة بحيث تفتِن بصوتها في المحاورة في غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا

سماعُ صوتها في القرآن أيضاً ، وكذلك الصبيُّ الذي تُخاف فتنته . فإن قلت : فهل تقول : إن ذلك حرام بكلِّ حال حسماً للباب ، أو لا يحرم إلاّ حيث تُخاف الفتنة ، فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان :

أحدهما : أنَّ الخلوة بالأجنبيَّة والنَّظر إلىٰ وجهها حرام سواء خيفت منها الفتنة أو لم تُخَف ؛ لأنَّها مظنَّة الفتنة علىٰ الجملة . فقضىٰ الشرع بحسم الباب من غير التفاتٍ إلىٰ الصورة .

الثاني : أنَّ النَّظر إلىٰ الصبيان مباح إلاّ عند خوف الفتنة فلا يُلْحق الصبيان بالنِّساء في عموم الحَسْم ، بل ينبغي أن يُفصَّل فيه الحال .

وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين ؛ فإن قسناه على النَّظر إليها ، وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فَرْق ؛ إذ الشَّهوة تدعو إلىٰ النَّظر في أوَّل هيجانها ، ولا تدعو إلىٰ سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسَّة كتحريك السماع بل هو أشدُّ .

وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيدُ أثر في تحريك الشَّهوة ، فقياس هذا على النَّظر إلىٰ الصبيان أولىٰ لأنَّهم لم يُؤمروا بالاحتجاب كما لم يُؤمر النِّساء بستر الأصوات ، فينبغي أن يُتَّبع مثارُ الفتن ، ويُقصَر التحريم عليه ، هذا هو الأقيس عندي .

قال : ويتأيَّد بحديث الجاريتين المغنِّيتين في بيت عائشة رضي الله عنها ، إذ يُعلَم أنَّ النبيَّ ﷺ ـ كان يسمع صوتَهما ، ولم يحترز عنه ، ولكن لم تكن الفتنة مخوفةً عليه ، فلذلك لم يحترز . فإذاً يختلف هذا بأحوال الرّجل في كونه شابّاً وشيخاً ، ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال ، فإنّا نقول : للشيخ أن يقبِّل زوجته وهو صائم ، وليس للشابِّ ذلك ، والقُبلة تدعو إلىٰ الوِقاع في الصوم وهو محظور ، والسماع

يـدعـو إلـىٰ النَّظـر والمقـاربـة وهـو حـرام ، فيختلـف ذلـك أيضـاً بالأشخاص . اهـ

أقول :

وإنَّ استثناء بعضهم من هذا التحريم صوتَ المرأة بتلاوة القرآن وتنغيمها لقراءته غير جائز ، ولا نقول به ، ولقد نقل الأذرعيُّ عن القرطبيّ : أنَّ جمهور من أباح سماع الغناء حكموا بتحريمه من الأجنبيّة علىٰ الرجال والنِّساء ، وأنَّه لا فرق بين إسماع الشِّعر والقرآن لما فيه من تهييج الشَّهوة وخوف الفتنة لاسيَّما إذا لحَّنته ، فسماعه يؤثِّر في النَّفس قبل رؤية الشَّخص ، وأمّا تهييجه للشهوة وإيقاعه في الفتنة فلا شكَّ فيه . والحاصل أنَّ سماعهنَّ مظنَّة للشهوة قطعاً ، وأطال في تقريره ، وهو كما قال . اهـ

أقول :

ولنا دليل قاطع في هذه القضيَّة من كتاب الله تعالىٰ ، وذلك في قوله سبحانه مخاطباً نِساء الرسول ﷺ :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

فإذا كان الله تعالىٰ قد أمرهنَّ بعدم ترقيق الصوت حتىٰ لا يطمع بهنَّ الذي في قلبه مرض ، فكيف نجوِّز بعد ذلك تصوُّر إباحة الإسلام للمرأة الغناء أو قراءة القرآن في حضرة الرجال الأجنبيِّين؟

ويجب أن نعلم أنَّ أمر النِّساء بُني على السَّتر ، ولم يحكم الإسلام علىٰ صوت المرأة بكونه عورةً ـ رغم تحذيره من فتنته ـ دفعاً للحرج في مواطن الشهادات والمُساءلات في أمور الدِّين والمعاملات التي لا تتحقَّق مقاصدها ولا تظهر آثارها إلاّ بسماع صوتها .

ومن قال : إنَّ هذه الآية خاصَّة بنساء الرسول ﷺ قلنا : إنَّا لا نسلِّم لذلك ؛ لأنَّه أدب ، والأدب لا تلتزم به نساء دون نساء ، بل يُطالبن به جميعهنَّ في معيار الشَّرع .

ونحو هذا قوله تعالىٰ : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

فهذه الآية إذا قلنا : إنَّها خاصّة بنساء الرسول الكريم ﷺ ، ولا يتناول أدبها وتوجيهها سائر نساء المسلمين ترتَّب علىٰ ذلك أن يُباح للمرأة من غير نساء رسول الله ﷺ الخروج من بيتها متبرِّجةً ، ولا ريب في أنَّ هذا الحصر فاسد ، والعمل به باطل ؛ لأنَّ هدي الإسلام جاء آمراً المرأة بلزوم آداب الفضيلة من الستر والعفاف وتجنُّب الاختلاط وترك التبرُّج أمام الأجنبيّين ونحو ذلك .

ثمَّ أقول أخيراً : يكفينا مؤنة النِّقاش في هذه المسألة آية واحدة من كتاب الله هي الفيصل الذي لا ريب فيه : إنّها قوله تعالىٰ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

فالقرآن لم ينزل مؤدِّباً لنساءِ النبيِّ وحدهنَّ اللّواتي كُنَّ فوق مستوىٰ الشُّبُهات ، بل بلغن أعلىٰ مستويات الطهارة والعفاف والتقوى ، فكنَّ بذلك شامةً بين نساء العالمين ، فحريٌّ بهذا التأديب غيرُهنَّ من نساء المسلمين اللَّواتي لم يبلغن مبلغهنَّ في التقوىٰ والورع والصلاح ، ولكن نظراً لكونهنَّ قدوة لسائر نساء المسلمين خُصِصن بالخطاب الإلهيِّ . غيرأنَّ ماتحمله القدوة من المسؤوليَّة يتعداها إلىٰ سائر المقتدين بالاتباع فيما شُرع به الاقتداء ، وهذا ما أوضحته بجلاء الآية الآنفة الذكر .

العارض الثاني في الآلة :

بأن تكون من شعائر أهل الشرب أو المخنَّثين ، وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة ، فهذه ثلاثة أنواع ، ما عدا ذلك يبقىٰ علىٰ أصل الإباحة كالدُّفِّ وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين والضَّرْب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث في نظم الصوت :

وهو الشِّعر ، فإن كان فيه شيء من الخنا والفُحْش والهجاء أو هو كذب علىٰ الله عزَّ وجلَّ أو على رسوله أو علىٰ الصحابة كما رتَّبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك القائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنَّه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرِّجال . وأمّا هجاء الكفَّار وأهل البدع فذلك جائز .

فقد كان حسّان بن ثابت ينافح عن رسول الله ﷺ ، ويُهاجي الكفّار ، وأمره رسول الله ﷺ بذلك .

فأمّا النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحُسْن القدِّ والقامة وسائر أوصاف النِّساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنَّه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلىٰ المستمع ألا يُنزِّله علىٰ امرأةٍ معيَّنةٍ إلاّ علىٰ من تحِلُّ له من زوجةٍ أو جاريةٍ ، فإن نزَّله علىٰ أجنبيَّةٍ فهو العاصي بالتنزيل وإجالة الفِكْر به . ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأساً ، فإنَّ مَنْ غلب عليه عِشْقٌ نزَّل كلَّ ما يسمعه عليه ، سواءٌ كان اللَّفظ مناسباً أو لم يكن ، إذ ما مِن لفظٍ إلاّ ويُمكن تنزيله علىٰ معانٍ بطريق

الاستعارة ، فالذي غلب عليه عِشْقُ مخلوقٍ ينبغي أن يحترز من السماع بأيِّ لفظ كان ، والذي غلب عليه حبُّ الله تعالىٰ فلا تضرُّه الألفاظ ، ولا تمنعه عن فهم المعاني اللَّطيفة المتعلِّقة بمجاري همَّته الشريفة . اهـ

أقول : إن ما أشار الإمام الغزاليّ ـ رحمه الله ـ إلىٰ إباحته من النَّسيب والتشبيب مرهون بعدم إثارة الفتنة وتحريك كوامن الشهوة ، ولو إلىٰ امرأة غير معيَّنة . وأمَّا ما كان سبباً في تأجيج بركان الجنس والشهوة وتهييج الغرائز في النُّفوس نحو الفتنة والفساد فهو حرام باتّفاق .

العارض الرابع في المستَمِع :

وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان في غِرَّة الشَّباب ، وكانت هذه الصِّفة أغلب من غيرها عليه ، فالسماع حرام عليه سواء غلب علىٰ قلبه حُبُّ شخصٍ معيَّنٍ أو لم يغلب ، فإنَّه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدِّ والوصال والفراق إلاّ ويُحرِّك ذلك شهوته ، وينزِّله علىٰ صورة معيَّنة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة ، وتحتدُّ بواعث الشرِّ ، وذلك هو النُّصْرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالىٰ .

والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهواتُ ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلاّ في قلب قد فتحه أحد الجُنْدَين ، واستولىٰ عليه بالكليَّة . وغالب القلوب قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها ، فتحتاج حينئذٍ إلىٰ أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجه ، فكيف يجوز تكثير أسلحته وتشحيذ سيوفه وأسنَّته؟ والسماع المشحِّذ لأسلحة جند الشيطان في حقِّ مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن جميع السماع فإنَّه يستضْرِيه ، والله أعلم .

العارض الخامس :

أن يكون الشخص من عوامّ الخلق ، ولم يغلب عليه حبّ الله ، فيكون السّماع محبوباً ، ولا غلبت عليه الشهوة ، فيكون في حقِّه محظوراً ، ولكنَّه أُبيح في حقِّه كسائر أنواع الملذّات المباحة إلاّ أنَّه اتخذه دَيْدَنه وهِجِّيراه ، وقصر عليه أكثر أوقاته ، فهذا هو السفيه الذي تُردُّ شهادته ، فإنَّ المواظبة علىٰ اللَّهو جناية . وكما أنَّ الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرةً ، فبعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة علىٰ متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلىٰ لعبهم علىٰ الدوام ، فإنَّه ممنوع ، وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذْ فَعَله رسول الله ﷺ ، ومن هذا القبيل اللَّعب بالشِّطْرنج ، فإنَّه مباح ، ولكنَّ المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ، ومهما كان الغرضُ اللعبَ والتلذّذ باللَّهو ، فذلك إنَّما يُباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات ، لتنبعث دواعيه . اهـ

* * *

لمحة موجزة

عن تاريخ نشأة الغناء العربيِّ وتطوُّره

لم يكن الغِناء حديث العهد في حياة الإنسان بل تمتدُّ جذوره عميقة في تاريخ الإنسان الغابر حتى تصل إلىٰ العصور البدائيَّة ، ويمكن القول : إنَّه وُلِد بولادة حَنْجرة الإنسان وحناجر المخلوقات التي وُجِدت في حياته . وإنَّ الدراسات الأنثروبولوجيَّة والاكتشافات الأثريّة في الكهوف والمعابد والمقابر والمدن المهجورة تضع بين أيدينا رسوماً وأدوات محطَّمة لأنواع من الآلات الموسيقيَّة وتماثيل للمغنِّين ومشاهد الغناء الدينيِّ ما يكون وثيقةً حسّيَّة علىٰ قِدم الغِناء في حياة البشريَّة .

ويذكر الباحثون والدارسون لحياة الشعوب والأُمم الغابرة آراءً وافتراضات تؤيِّد ذلك ، ويروون أخباراً يدعمون بها ما توصَّلوا إليه من الاحتمالات والتخمينات في هذا المضمار علىٰ ضوء الاكتشافات الأثريَّة المستمرَّة ، فيذكر ابن عبد ربِّه في كتابه « العقد الفريد » في بيان أصل الغناء ومعدنه :

وقيل : إنَّ أوَّل من صنع العود لامك بن قابيل بن آدم ، وبكىٰ به علىٰ ولده .

ويُقال : إنَّ صانعه بطليموس صاحب كتاب الموسيقا ، وهو كتاب « اللُّحون الثمانية » .

ولا ريب في أنَّ تطوُّر الغناء في حياة الشُّعوب الإنسانيَّة واكب تقدُّم

تلك الشعوب وتحضُّرها على امتداد الزمان وتلاحق الأجيال . إلاّ أنَّ معظم الدراسات أشار إلى أنَّه كان يعبَّر به عن الطقوس الدينيَّة التي كانت تمارسها تلك الشُّعوب ، فكان الغِناء مرتبطاً بصورة واضحة بتلك الشعائر والطقوس . ولقد تجلّىٰ ذلك واضحاً في عهود الفراعنة إلىٰ عصر اليونان والرومان .

وأمّا في العصر الجاهليّ :

فلقد امتدَّت جذور الغناء في حياة العرب إلىٰ عهود الأقوام البائدين ، فقد ذكر ابن عبد ربِّه في كتابه « العقد الفريد » :

وكان أوّل من غنّى في العرب قينتان لعادٍ ، يقال لهما الجَرادتان ، ومن غنائهما :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعـلَّ الله يصبحنـا غمـامـا

وإنّما غنَّتا بهذا حين حُبِس عنهما المطَر . اهـ

وفي نظريَّة أخرىٰ يذهب بعض الباحثين إلى أنَّ أوّل أنواع الغناء المنظَّم عند الجاهليين ظهر مع بداية قرض الشعر ، وهذا ما ذكره ابن رشيق حيث قال في « العُمْدة » :

كان الكلام كلُّه منثوراً ، فاحتاجت العرب إلىٰ الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيّامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسُمحائها الأجواد ، لتهزَّ نفوسها إلىٰ الكرم ، وتدلَّ أبناءها علىٰ حُسن الشِّيَم ، فتوهَّموا أعاريض فعملوها موازين للكلام ، فلمّا تمَّ لهم وزنه سمَّوه شعراً ، لأنَّهم قد شعروا به ، أي فطنوا له . اهـ

ويؤكِّد باحثون آخرون أنَّ أوَّل أنواع الغناء عند العرب كان غناء الحُداة الذين يسوقون الإبل ، فكانوا يُنشِّطونها علىٰ السَّيْر ، ويجعلونها تُغالب

تعبها في قطع المسافات الواسعة عبر الصحراء بذلك الحُداء الذي كانت حناجرهم تهتزُّ بكلماته وإيقاعاته الرتيبة ، فتأنس الإبل بصوت الحادي وغنائه ، فتتابع سيرها دون ملل أو كسل .

ويذكر ابن رشيق : أنَّ أصل الحُداء من النَّصْب وهو غناء الرُّكبان ، اشتقَّه رجل من كلب يُقال له : جناب بن عبد الله بن هبل ، فسُمّي لذلك : الغناء الجنابيُّ .

ويُقال : إنَّ أوَّل من أخذ في ترجيع الحُداء : مضر بن نزار ، فإنَّه سقط من جمل فانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه! وكان أحسن خلق الله جِرْماً وصوتاً ، فأصغت الإبل إليه ، وجدَّت في السَّيْر ، فجعلت العرب مثالاً لقوله : « هايدا هايدا » يحدون به الإبل[1] .

وقالوا في أصل الحُداء غير ذلك .

أقول : إنَّ هذه الأقوال لا دليل عليها والتكلُّف في بعضها ظاهر . ولكنَّ جعل الحُداء في بدايات الغناء المنُظَّم أمرٌ مقبول نظراً لطبيعة الحياة التي كان يعيشها العربيُّ . ولقد ظهر إلىٰ جانب الحُداء أوجه أُخرىٰ للغناء كالسِّناد والهزج ، وعلىٰ هذا كان الغناء عند العرب علىٰ ثلاثة أوجه :

الحُداء ، والسِّناد ، والهزج .

وعندما ظهر الإسلام قضىٰ علىٰ مظاهر الغناء الجاهليِّ الذي يمتلىء بروح الوثنيَّة ، وأبقىٰ منه ما خلا من مظاهر الجاهليَّة ومعانيها السوداء ، وأقام على أنقاض ما هدمه من ذلك الغِناءَ الدينيَّ والإنشاد الذي يتوافق مع طهارة الإسلام وسموِّ قيمه الروحيَّة ومعانيه المقدَّسة . ولقد مرَّت معنا الإشارة إلىٰ هذا الضرب من الغناء في الأعراس والأعياد وأفراح المسلمين

---

(١) « العُمدة » لابن رشيق (٢/ ٣١٣ـ٣١٤) .

وابتهاجهم . وفي عصر الخلافة الراشدة استمرَّ الغِناء في خلاصه من روابط الجاهلية ومخالفات الشريعة الإسلامية . وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان رضي الله عنه انتعشت الفنون ، وتسرَّبت إلىٰ الغناء ضروب من الألحان الفارسيَّة ، وفي عهد الخليفة الرابع عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ظهر ضَرْب من الغناء سُمِّي : (المُتْقَن) ؛ لتضمُّنه نهضةً كبيرة في صناعة الألحان وسُلَّمَ إيقاعات منظّماً ، كما ذكر الفارابيُّ في كتابه : « الموسيقا الكبير » .

وكان من أبرز أعلام الغناء في عصر الراشدين طُويس وسائب خاثر ؛ أمّا الأوَّل ، فقد ذكر ابن عبد ربِّه عنه : أنَّه أوَّل من غنّىٰ في الإسلام الغناء الرقيق ، وأوَّل صوت غنّىٰ به هو :

قد براني الشوق حتىٰ كِدتُ من شوقي أذوب

وأمّا الثاني فكان أوَّل من لحن علىٰ ميزان الثَّقيل الأوَّل الأغاني العربيَّة في زمانه .

وفي العصر الأُمويِّ انتعشت النهضة الفنِّية ، واحتلَّ الإنشاد الإيقاعيُّ منزلةً كريمةً لدى خلفاء بني أُميَّة ، وظهر بصورة واضحة تأثُّر الألحان العربيَّة بالألحان الفارسيَّة والإغريقيَّة ، وبدأت مظاهر التطوُّر الإيقاعيِّ عندما أدخل سعيد بن مسجح طريقتين هما الطريقة الفارسيَّة والطريقة الروميَّة . وظهر في هذا العصر عدد كبير من المنشدين منهم سعيد بن مسجح الذي كان مدرسة خاصَّة في الإنشاد وطريقة متميّزة اتّبعها بعده أعلام الإنشاد العربيّ . وابن محرز أحد تلامذة ابن مسجح الذي جدَّد في الألحان ، فاستخلص الجديد من الفن الفارسيِّ والألحان الروميَّة والإنشاد العربيّ ، ومنهم ابن سُرَيج الذي كان ينشد أنواعاً عدّة من الإنشاد ، ومنهم أيضاً الغريض ومَعْبد ومالك بن أبي السمح ويُونس الكاتب .

وفي العصر العبّاسيِّ بلغ الغناء أوج ازدهاره حتىٰ لُقِّب هذا العصر بـ « العصر الذهبيّ للغناء العربيّ » .

وزاد في هذا العصر عدد المقامات وطرائق الإيقاع ، وظهر فيه عدد من علماء النغم واللَّحن كأبي يوسف الكِنديّ صاحب كتاب « رسالة في خبر تأليف الألحان » الذي عالج فيه علم طبيعة الأصوات وتركيب النغمات وكتاب « أجزاء خبريّة في الموسيقا » الذي عالج فيه ألوان الألحان وتأثيرها على النفس ، وكالفارابي صاحب كتاب « الموسيقا الكبير » الذي تُرجِم إلىٰ لغات عدَّة ، وعالج فيه السلالم والنغمات الموسيقيَّة والأوزان الإيقاعيَّة القديمة . وكابن سينا صاحب كتاب « الشِّفاء » الذي بحث في أحد أقسامه في النَّغمات والأبعاد والأوزان والاتفاقات والأجناس وتقسيمها إلى أنواع ، ويُعدُّ ابن سينا أوّل من أوجد علم توافق الأصوات (الهارموني) ، وكأبي بكر الرازيِّ الذي تحدَّث في كتابه عن الإنشاد والموسيقا حديث المتذوِّق العارف بهذا العلم . وكصفي الدِّين الآرموري صاحب كتاب « الأدوار » ، و « الرسالة الشرقيَّة » وكتاب « النِّسَب الموسيقيَّة » .

كما ظهر في هذا العصر عدد من المنشدين كحكم الوادي ، وسياط ويحيى المكّيِّ وابن جامع وإبراهيم الموصلي وإسحاق الموصلي .

وأمّا في الأندلس فقد كان للغناء حظٌّ وافر من العناية حيث ظهرت الموشّحات الأندلسيَّة التي كانت تفيض بها مجالس الخلفاء والأمراء إلى جانب ألوان أُخرىٰ من التآليف الإنشاديَّة كالزجل والنوبة . وكان لازدهار الحياة الأندلسية بمختلف مظاهر الجمال والزينة الطبيعيَّة وانتشار العلوم والثقافة والفنون الرائعة أثرٌ فعّال في تفجير قرائح الشعراء وإرهاف أوتار الغناء وظهور أساطين الأدب والشعر والغناء كزرياب الذي كان من أبرز

أعلام فنّ الغناء والألحان في الأندلس ، فقد كان إلى جانب نبوغه في الشعر والفلك ، صاحب مدرسة متميِّزة باللَّحْن والإنشاد العربي حيث جمع بين ثقافتي المشرق والمغرب . ومن الشخصيات التي تألَّقت في سماء اللّحن والإنشاد الأندلسيِّ أيضاً ابن ماجه الذي وصفه ابن خلدون بقوله : « صاحب التلاحين المعروفة » ، وقال عنه ابن سعيد المغربيُّ : إنَّه في المغرب بمنزلة أبي النصر الفارابي في المشرق . وابن الحاجب وكان واحدَ عصره في الإنشاد الرائق والأدب الرائع والشِّعر الرقيق واللَّفظ الأنيق . وابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » .

وفي العصر التركيِّ بطوره المغوليِّ والعثمانيِّ تأثَّر الغِناء العربيُّ بالطابع التركيِّ أوّلاً وبالطابع الأوروبيّ ثانياً ، وظهرت في غضون هذين الطَّوْرين أنواع من التأليف الإنشاديّ اصطبغت بصبغة اللَّحن التركيِّ منها : البَشْرف ، والسماعيّ ، والموشَّحة ، والقدود .

وفي خضمِّ عصر النهضة العربيَّة الحديثة الذي بدأ في منتصف القرن التاسع عشر ظهرت بوادر التطوّر الإنشاديِّ واللَّحْنيّ ، وانتشرت مذاهب غنائيّة عدَّة ، وأخذت الناشئة تسير في ركاب الموسيقا الغربيَّة .

وفي ظلِّ القرن العشرين تفاقم الصراع بين القديم والجديد ، ودخلت على الألحان العربيّة نغمات جديدة وأوزان إيقاعيَّة متطوِّرة ، كما ظهرت أنواع من التأليف الإنشاديّ كالأدوار والموشَّحات والقصائد إلى جانب انتشار النظريّات والسلالم العربيَّة وأرباع الأبعاد ، وكثُر التأليف في ذلك وتأسيس المعاهد وإعداد الندوات والمؤتمرات . وبرزت أسماء عدد كبير من المؤلِّفين والمغنِّين والباحثين في أصول الإنشاد والألحان . وما يزال النَّشاط مستمرّاً في هذا المضمار إلىٰ وقتنا الحاضر .

* * *

الشِّعر

يُعدُّ الشِّعر من أهمِّ وسائل الغناء وذلك نظراً لأمرين اثنين :

الأوَّل : الكلمات التي يشتمل عليها ، إذ لا نتصوَّر الغناء بلا كلمات يتلفَّظ بها المغنِّي ، وتتحرَّك بها حَنْجرته عند التنغُّم .

والثاني : الإيقاع والوزن الذي ينتظم ألفاظ البيت الشِّعري ؛ فهذا يُعين المنشِد علىٰ توازن إيقاع نغماته الصوتيَّة أثناء إنشاده وتطريبه ، إذ لو اعتمد علىٰ الكلمات المنثورة لوجد معاناةً وجُهداً من أَجْل تفصيل مقاطع الكلمات علىٰ هدي النَّغمات ؛ ليتحقَّق التوازن الصوتيُّ في غنائه حال النُّطْق بأحرف تلك الألفاظ بخلاف الشِّعر الذي يكفيه مؤنةَ التقسيم والتقطيع الإيقاعيِّ ، فيسهل عليه إنشاده ويطيب له غناؤه .

وأذكر مثلاً عمليّاً علىٰ صدق ذلك :

حضرت مرَّةً أحد المنشدين ، فسمعته يُغنِّي بألفاظ منثورة ، فكان من أجل أن يوازن بين النَّغمات ، ويحافظ علىٰ سلامة الإيقاعات يمدُّ بعض الكلمات ، ويخطف أحرف بعضها الآخر ، فيُؤدِّي ذلك إلىٰ الإخلال بمعنى اللَّفظة وتشويه النُّطق بها .

وكانت العرب تستعين بالشِّعر في الحُداء الذي هو ضَرْب من الغناء وراء الجِمال التي كان العربيُّ يقطع علىٰ ظهرها المسافات في أسفاره ، فيحثُّها علىٰ السير بألحان ذلك الحُداء ونغماته .

والشِّعر أوقع في نفس السامع من غيره من ضروب الكلام وأبلغ

استجلاباً لسمعه وتأثيراً في أعماقه وإرهافاً لشعوره ، وذلك نظراً لإيقاعه الرتيب ووزنه القريب ومعانيه الرائعة وعاطفته الجيّاشة . وما سُمِّي هذا الضَّرْب من الكلام المنظوم بالشِّعر إلاّ لصلته الوثيقة بالشُّعور وتدفُّقه من أعماق الإنسان . ولقد امتاز الشُّعراء برقَّة شعورهم واتَّصفوا بثوران عواطفهم ، لذلك تراهم إذا أنشدوا أشعارهم أبكَوا العيون ، وأحزنوا القلوب ، أو أضحكوا الشِّفاه ، وأفرحوا النفوس ، أو أغضبوا الإنسان ، وأثاروا حفيظته ، أو حرَّكوا همَّته ، وأيقظوا عزيمته .

ولم يحارب دين الإسلام الشِّعر والشُّعراء إلاّ إذا كانوا كاذبين وفي مبالغاته مغرقين ، وجعلوه وسيلة للغَواية وسبيلاً إلى نشر الرذيلة وترويج الفساد والانحراف . وأما إذا استقاموا فيه على الحقِّ ، ولزموا في نظمه الصِّدق ، واتَّخذوه وسيلة إلىٰ نشر الصلاح وسبيلاً إلىٰ الوعظ والتذكير والنُّصح والإرشاد ، فهو في نظر الشرع محمود الذكر كريم المنزلة ، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم حيث قال الله ربُّ العالمين : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ـ٢٢٧] .

روىٰ السيوطيُّ : أنَّهُ لما نزلت هذه الآية : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ . .﴾ . جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، فقالوا وهم يبكون : (يا رسول الله ، قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شُعراء وهلكنا) ، فأنزل الله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ ، فدعاهم رسول الله ، فتلاها عليهم ، وقال : « أنتم . . . » .

فالشِّعر حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ولقد أُنشِد بين يَديْ الرسول ﷺ ، ونذكر من ذلك إنشاد كعب بن زهير الشِّعر بين يديه ﷺ عندما جاءه تائباً

معتذراً بعد أن أهدر رسول الله دمه ، فقال كعب قصيدته الشهيرة التي افتتحها بالغزل ، فقال :

بانت سعاد وقلبي اليوم متبولُ مولَّه إثرها لم يُفدَ مكبولُ

ثم تابع إلقاءها أمام الرسول الكريم ﷺ الذي كان يتمايل سروراً بما يسمع حتىٰ قال كعب :

إنَّ الرسول لنور يُستضاء به مهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

فما كان من رسول الله حين سمع هذا إلاّ أن خلع بردةً كانت عليه ، وألبسها كعباً ، فكانت أماناً له وسعادة .

وأنشد عبد الله بن رَاوحة رضي الله عنه بين يديه ، وهو آخذ بخُطام ناقته عند دخول مكَّة في عُمرة القضاء :

خلُّوا بني الكفّار عن سبيله خلُّوا فكلُّ الخير في رسولهِ
يا ربِّ إنِّي مؤمنٌ بقِيلِهِ أعرفُ حقَّ اللهِ في قَبُولِهِ
نحن قتلناكم علىٰ تأويلِهِ كما قتلناكم علىٰ تنزيلِهِ
ضَرْباً يُزيل الهام عن مقيلِهِ ويُذهِل الخليل عن خليلِهِ

فقال له عمر : يا بن رواحة بين يدَيْ رسول الله وفي حرم الله تقول الشِّعر؟! فقال له النبيُّ ﷺ : « خلِّ عنه يا عمر ، فلَهي أسرعُ فيهم من نَضْح النبل » .

ولمّا تظاهرت بنو بكر وقريش علىٰ خُزاعة ، خلافاً للميثاق الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ خرج شاعرهم عمرو بن سالم الخُزاعيُّ إلىٰ رسول الله ﷺ فوقف عليه وهو جالس بين أصحابه في المسجد فقال :

يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمّدا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كُنتُمُ وُلْداً وكُنّا والدا ثُمَّت أسلمنا فلم ننزِع يدا

فـانصـر هـداك الله نصـراً أعتـدا وادعُ عبـادَ الله يـأتـوا مـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـرّدا إنْ سِيْـم خَسْفـاً وجهُـهُ تـربَّـدا
في فَيْلقٍ كالبحر يجري مُزْبدا إنَّ قـريشـاً أخلفـوك المـوعِـدا
ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكَّـدا وجعلـوا لـي فـي كَـداءٍ رُصَّـدا
وزعمـوا أن لسـت أدعـو أحـدا وهُـمْ أذلُّ وأقـلُّ عـددا
هُـمْ بيَّتـونـا بـالـوتيـر هُجّـدا وقتلـونـا رُكَّعـاً وسُجّـدا

فلما انتهىٰ من شعره قال رسول الله ﷺ : « نُصِرتَ يا عمرو » .

وجاءه شاعر هوازن يستعطفه للإفراج عن قومه الذين وقعوا أسرىٰ بأيدي المسلمين بعد حُنين ، فقال من قصيدة له :

أُمْنُنْ علينـا رسـول اللهِ فـي كـرمٍ فـإنَّـك المـرءُ نـرجـوه ونـدَّخِـرُ
أُمْنُنْ علىٰ نِسْوةٍ قد كنتَ تُرضِعُها إذ فُوكَ يملؤُه من مخضِه الدِّرَرُ
أُمْنُـنْ علـىٰ نِسـوةٍ إعتـاقهـا قَـدرٌ ممـزِّق شملَهـا فـي دهـرهـا غِيَـرُ

ويقول فيها أيضاً :

فألبِس العفو مَن قد كنتَ تُرْضِعُه مـن أُمَّهـاتـك إنَّ العفـو مشتهـرُ
إنّـا نـؤمِّـل عفـواً منـك تُلبِسـه هـذي البـريَّـة إذ تعفـو وتنتصـرُ
فاعفُ عفا الله عما أنت واهِبُهُ يومَ القيامة إذ يُهدَى لك الظَّفرُ

قال : فتأثَّر النبيُّ ﷺ بهذا الشعر ، فسأل أصحابه أن يُطلقوا سراح أسراهم ، وأن يردّوا عليهم ما غنموه منهم ، فاستجاب المسلمون دون تأخير .

وأنشدت قُتَيْلة بنت النَّضر بن الحارث بين يديه قصيدة بكت فيها أباها النَّضر الذي أمر رسول الله ﷺ بقَتْله يوم بدر ، فقالت :

يـا راكبـاً إنَّ الأثيـلَ مطيَّـةٌ من صُبح خامسةٍ وأنت موفَّقُ

أبلـغ بهـا مَيْتـاً بـأنَّ تحيَّـةً ... مـاإن تـزالُ بهـا النجـائب تخفـقُ
منِّـي إليـه وعبـرةً مسفـوحـةً ... جـادت بِـواكِفهـا وأُخـرىٰ تخنُـقُ
هـل يسمعنِّـي النَّضـر إن نـاديتـه ... أم كيـف يسمـع ميِّـت لا ينطِـقُ
مـا كـان ضـرَّك لـو مننـتَ ورُبّمـا ... منَّ الفتىٰ وهو المَغِيظُ المُحنَقُ
أو كنـتَ قـابـلَ فِـديـةٍ فليُنفِقَـنْ ... بـأعـزِّ مـا يُغلـىٰ بـه مـا يُنفِـقُ
فالنَّضْر أقربُ من أسرت قرابةً ... وأحقُّهـم إن كـان عِتـق يُعْتَـقُ

فبلغ التأثُّر من رسول الله ﷺ أن أخذ الدمعُ يسيل من عينيه ، ثمَّ قال : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننتُ عليه » .

وكان ﷺ يستنشد الشُّعراء أو رُواة الشِّعر من أصحابه القصائد ؛ فذكروا أنَّه استنشد الخَنْساء بعض ما قالت في أخويها من قصائد الرِّثاء ، فكان كلّما توقَّفت يقول لها : « هيه يا خُناس » يحثُّها علىٰ المزيد من الإلقاء .

كما ذكروا أنَّه أردف مرَّة الشريد خلفه على راحلته ، فاستنشده من شعر أُميّة بن أبي الصلت ، فأنشده مئة قافية ، ورسول الله ﷺ يقول له : « هيه » استحساناً له .

وروىٰ يزيد بن عمرو بن سلم الخُزاعيّ عن أبيه عن جدِّه أنَّهُ قال : دخلتُ علىٰ النبيِّ ﷺ ومنشد ينشده قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تـأمَنَـنْ وإن أمسيـتَ فـي حَـرمٍ ... إنَّ المنـايـا بجنْبَـيْ كـلِّ إنسـانِ
فاسلُكْ طريقك تمشي غير مختشِعٍ ... حتىٰ تلاقي الذي منَّىٰ لك الماني
فكلُّ ذي صاحبٍ يوماً مفارقه ... وكـلُّ زادٍ وإن أبقيتـه فـانـي
والخير والشرّ مقرونان في قَرَنٍ ... بكـلّ ذلـك يـأتيـك الجـديـدانِ

فقال النبيُّ ﷺ : « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم » .

ورُوي عن أنس بن مالك قال : جلس رسول الله ﷺ في مجلس ليس فيه إلاَّ خزرجيٌّ ، ثمَّ استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم التي يقول فيها :

أجالدهم يومَ الحديقة حاسِراً كأنَّ يدي بالسيف مِخْراقُ لاعبِ

فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : « هل كان كما ذكر؟ » .

وكان ﷺ يستنهض هِمَمَ الشُّعراء من أصحابه لنظم القصائد والأشعار ذَوْداً عن الدِّين ودفاعاً عن الرسول الكريم ﷺ .

فكان يقول لحسّان بن ثابت شاعر الإسلام رضي الله عنه : « شنَّ الغارة علىٰ بني عبد مناف ، فوالله لشعرك أشدُّ عليهم من وقع السِّهام في غَلَس الظلام » .

وروي أنّه أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يعلِّم حسّاناً أنساب القوم لكي ينفذ من خلالها إلىٰ مطاعنهم ، وكان يقول له : « اهجهم ومعك روح القُدُس جبريل »[1] .

وجاء في مسند الإمام أحمد أنه قال : « اهجوا بالشِّعر ، إنَّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفس محمد بيده كأنَّما تنضحونهم بالنّبْل » .

فيستجيب له ابن رواحة فيعيِّرهم بالكفر والجحود ، فلم يؤثِّر فيهم ، ولم يصنع معهم شيئاً ، ثُمَّ يُهاجيهم كعب بن مالك بذكر الحرب وأهوالها ، فلم يصنع معهم ذلك شيئاً أيضاً ، ثُمَّ يقوم حسّان بن ثابت فيصبُّ علىٰ القوم صواعق شعرهم ، فيصرع شعراءهم ، ويذلُّ كبراءَهم ، ويصيب مقاتلهم ، فيقول رسول الله ﷺ : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسّان بن ثابت فشفىٰ واشتفىٰ » .

---

(١) رواه ابن جرير عن جابر ولفظه : « نعم أُهجهم أنت فسيُعينك روح القُدُس » .

وكان ﷺ يُثني على الشِّعر الجيِّد ، فيقول : « إنَّ من الشِّعر لحكمة »[1] ، ويُظهر إعجابه بالمعنىٰ الجميل الذي يفيض به الشِّعر كقوله : « أَصْدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد » :

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطِلُ

وحينما أنشده ابن حبيب قول سُحَيْم عبد بني الحَسْحاس :

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوعِ

قال ﷺ : « أحسن وصدق ، وإنَّ الله ليشكر مثل هذا ، وإن سدَّد وقاربَ إنَّه لمن أهل الجنَّة » .

وعندما سمع عائشة رضي الله عنها تنشد من شعر زهير بن جناب قوله :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفه يوماً فتدركَهُ عواقب ما جنىٰ

فقال النبيُّ ﷺ : « صدق يا عائشة لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وكان تجري علىٰ لسانه أحياناً كلمات على وزن الشِّعر ، ولكنَّها كما قال ابن عبد ربِّه في « العقد الفريد » : من المنثور الذي يوافق المنظوم نحو قوله عندما دميت إصبعه الشريفة :

هل أنت إلاّ إصبع دَميت؟ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وقوله يوم حُنَيْن :

أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابن عبد المطَّلِبْ

وكان ﷺ يتمثَّل أحياناً بأقوال الشُّعراء ولكن يغيِّر في كلمات البيت بحيث ينكسر وزنه . فقد سُئلت السيِّدة عائشة رضي الله عنها : هل كان

---

(١) رواه ابن النّجار . انظر كنز العمال ٣/ ٨٥٨ و ٨٦٥ .

رسول الله ﷺ يتمثَّل بشيء من الشِّعر؟ قالت : كان يتمثَّل ببيت أخي بني قيس (تعني طرفة بن العبد) ، فيجعل آخره أوَّله وأوَّله آخره . فقد قرأ الشَّطر الثاني من البيت هكذا :

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم يزوِّدك

أو : ويأتيك من لم يزوِّدك بالأخبار .

وقيل : إنَّه تمثَّل بصدر بيت سُحَيْم عبد بني الحسحاس هكذا :

كفى بالإسلام والشيب ناهياً .

فقال له أبو بكر رضي الله عنه : إنما قال : كفى الشيب والإسلامُ للمرء ناهياً . فقال رسول الله ﷺ : « إني لست بشاعر ولا ينبغي لي » . فقال أبو بكر رضي الله عنه : « بلى يا رسول الله أشهد أنَّك رسول الله » . وفي موطن آخر قال رسول الله ﷺ للعباس بن مرداس : « أنت القائل :

فأصبح نَهْبي ونهبُ العبيد بين الأقرع وعُيَيْنة

فقال أبو بكر : بين عُيَيْنة والأقرع .

فقال رسول الله ﷺ : « هما واحد » . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أشهد أنَّك كما قال الله : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] .

وعندما ارتجز المسلمون وهم يبنون المسجد النبويَّ يقولون :

لا عيـــش إلاّ عيـــش الآخـــرهْ اللهم ارحم الأنصار والمهاجرهْ

قال معهم رسول الله ﷺ :

لا عيـــش إلاّ عيـــش الآخـــرهْ اللم ارحم المهاجرين والأنصار

وربما كان يرتجز أحياناً بشعر أصحابه دون تغيير ، فقد ورد أنه ارتجز بشعر عامر بن الأكوع يوم حفر الخندق في غزوة الأحزاب ، فكان يقول

وهو ينقل التراب مؤازراً أصحابه :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينة علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغَوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فثبت بذلك أنَّ الصحابة قالوا الشِّعر ، ونظم شعراؤهم قصائده في مناسبات شتىٰ ومواضيع مختلفة ، وتناشدوه في مجلس الرسول ﷺ ، ولم ينكر عليهم حيث التزموا به منهج الفضيلة والقيم السامية والمعاني الكريمة ، فروىٰ الترمذي عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال :

« جالستُ النبيَّ ﷺ أكثر من مئة مرَّة ، فكان أصحابه يتناشدون الشِّعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهليَّة ، وهو ساكت ورُبَّما تبسَّم » .

نأخذ مما تقدَّم أنَّ الإسلام لم يقف من الشِّعر موقفاً سلبيّاً ولم يحمل علىٰ الشُّعراء حملةً شعواء ، وإنَّما دعاهم إلىٰ توظيف شعرهم في خدمة الدعوة إلىٰ الله ، وجعله قوالب للمعاني السامية والفضائل وخصال الخير والصلاح ، وحذَّرهم من مزاولة الإسفاف في معاني الشِّعر واستعماله في نشر الرذائل والفساد وما يُخِلُّ بالأدب والسلوك والأخلاق . فإذا جاء في الحديث : « إن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتىٰ يَرِيَه خير له من أن يمتلىء شِعراً »[1] ؛ فإنَّما يُراد به الشِّعر الساقط والمُفعَم افتراءً ، وهذا ما تُبيِّنه رواية أخرىٰ عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها تُوضِّح فيها أنَّ أبا هريرة صاحب الرواية الأُولىٰ لم يحفظ نصَّ الحديث كاملاً ، وتمامه قالت :

« إنّما قال رسول الله ﷺ : « لئن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير من أن يمتلىء شعراً هُجيتُ به » .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة .

وأمّا الأشعار الحسنة المفعمة بالصِّدق والدعوة إلى الفضيلة والمعاني الإنسانيّة النبيلة والخير والإيمان والهداية فتستحقُّ من رسول الله ﷺ أن يقول فيها : « إنَّ من البيان لسحراً وإنَّ من الشِّعر لحكمة » .

* * *

obeikandl.com

أوزان الشِّعر العربيّ

تقدَّم معنا أنَّ الشِّعر يُعدُّ العنصر الأساسيَّ في الغناء ، وذلك لاعتماده على الوزن الإيقاعيِّ الرَّتيب وهو الصِّفة الأساسيَّة التي يتميَّز بها من النَّثر ، إذ عرَّفه علماء العربيَّة وآدابها : هو الكلام الموزون المقفّىٰ .

وإنَّ تأثير القصيدة الشعريَّة يتعلَّق إلىٰ جانب معانيها الرائعة وصورها البيانيَّة الجميلة بالوزن الإيقاعيِّ الذي انسابت فيه أحرفها وكلماتها حيث يبدأ تأثيرها في الأسماع والنفوس بلحنها المتوازن ، ثمَّ تستولي علىٰ القلوب والعقول بمعناها الجليل . فإذا اختلَّ وزن البيت الشعريِّ ، واضطربت إيقاعاته ، نفرت منه الأسماع ، وعزفت عنه النفوس ، وفقد قوَّة تأثيره في القلوب .

ولقد استطاع إمام العربيّة الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفىٰ سنة ١٧٤هـ أن يستقرىء معظم قصائد الشعر العربيِّ ، ويتعرَّف أوزانها وإيقاعاتها الرَّتيبة ليتمكَّن من وضع قواعد وضوابط ثابتة لأوزان شعرنا العربيِّ تحفظه من غوائل الخلل وطوارىء الاضطراب ، وتكون بمثابة سور حماية لمسارات الشِّعر العربيِّ المقفّىٰ حتّى يظلَّ النموذج الشعريَّ الرائع الذي نطق به اللِّسان الإنسانيُّ ، وترنَّم بإنشاده علىٰ امتداد الزمان منذ عصر الجاهليَّة وإلى الآن . وتمَّ النَّجاح الباهر على يد الفراهيديِّ في وضع قواعد وزن الشِّعر وضوابطه . وسُمّي هذا العلم بعلم العروض ، وذلك نسبةً إلىٰ المكان الذي انقدحت فيه فكرته في ذهن الفراهيديِّ .

ورُوي في قصَّة وَضْعه : أنَّ الخليل بن أحمد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ مرَّ ذات يوم في مكَّة بسوق الصفّارين ـ النحّاسين ـ فسمع أصوات مطارقهم وهم يضربون بها على أوعية النحاس ، فلمّا أصغىٰ إلىٰ اختلاف إيقاعاتها وتباين أوزان طَرَقاتها نشأت في ذهنه فكرة تقطيع البيت الشِّعريّ إلى مقاطع على هَدْي إيقاعات أصوات المطارق التي سمعها ، وتمَّ تكامل بناء هذه الفكرة وتبلورها في ذهنه في مكان بين مكّة والطائف يدعىٰ العَروض ، وإليه نُسِب هذا العلم الذي عرَّفه علماء اللُّغة العربيَّة بقولهم :

هو علم بقواعد وضوابط يعرف بها صحيح أوزان الشِّعر وفاسدها وما يصيبها من زحاف أو عِلَّة .

وتمكَّن الفراهيديّ بعد استقراء قام به لأشعار العرب من أن يعيد معظم الشِّعر العربيّ إلىٰ خمسة عشر بحراً ، وزاد تلميذه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة بحراً سادس عشر ، سمّاه : (المتدارك) ، لأنَّه تداركه علىٰ أبحُر أستاذه الخليل بن أحمد .

والبحر : هو الوزن الخاص الذي تجري عليه أبيات القصيدة الواحدة ، وينتظم كلَّ بيتٍ من أبياتها . ومقاطع البيت الواحد تُسمّىٰ تفعيلات ، وهي أوزان مختلفة عمادها ثلاثة أحرف : (الفاء ، والعين ، واللام) ، ويُزاد عليها بصور مختلفة أيضاً أحرف الزيادة المعروفة كالسين والياء والنون والألف والتاء والواو والميم وسائر أحرف الزيادة . ووزن المقطع الواحد من البيت يُسمّىٰ تفعيلة . وتفعيلات البيت تتكوَّن من مجموع حركات أحرف الكلمات وسكوناتها التي بها يتم وزن البيت في مقاطعه . والحركة هي بداية النطق بالحرف والسكون يكون في إشباع هذه الحركة بأن تجعلها حرفاً ، وهذا لا يكون إلاّ في الحركات الثلاث : (الضمّة ، والفتحة ، والكسرة) ، فتصير الضمَّة واواً ساكنة ، والفتحة

ألفاً ، والكسرة ياءً ساكنة ، وكذلك يكون في قطع حركة الحرف كقطع حركة الميم في : (لَمْ) ، ويكون أيضاً في تنوين التمكين مثال : (رجلٌ) فنلفظها : (رجلنْ) ، ويكون في أحرف المدّ الثلاثة ، وهي : (الواو ، والألف ، والياء) .

ويرمز للحركة بخطٍّ صغير مائل : (/) ، وللسكون بدائرة صغيرة : (ه) . وهذه الحركات والسّكونات تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام :

١ـ الأسباب : وهي تتكون من حرفين وتنقسم إلى قسمين :

أـ سبب ثقيل : ويتكوَّن من حرفين متحرِّكين مثال : بِكَ ـ لَك ويرمز له بـ (//) .

ب ـ سبب خفيف : ويتكوّن من حرفين متحرِّك فساكن مثال : لَمْ ـ عَنْ ، ويُرَمز له بـ (/ه) .

٢ـ الأوتاد : وهي تتكوَّن من ثلاثة أحرف وتنقسم إلى قسمين :

أ ـ وتد مجموع : ويتكوَّن من ثلاثة أحرف متحرِّكين فساكن ، مثال : إلىٰ ـ علىٰ ، ويُرمَز له بـ (//ه) .

ب ـ وتد مفروق : ويتكوَّن من ثلاثة أحرف متحرِّكين وبينهما ساكن ، مثال : عِنْدَ ـ قَامَ ، ويُرمَز له بـ (/ه/) .

٣ـ الفواصل : وهي تتكوّن من أربعة أحرف أو خمسة ، وعلى هذا تنقسم إلى قسمين :

أ ـ فاصلة صغرى : وتتكوَّن من أربعة أحرف ثلاثة متحرِّكات والرابع ساكن ، مثال : سَكَنُوا ، ويُرمز لها بـ (///ه) .

ب ـ فاصلة كُبرىٰ : وتتكوَّن من خمسة أحرف أربعة متحرّكات والخامس ساكن مثال : ظَلَمَهُمْ ، ويُرمَز له بـ (////ه) .

والفواصل تتكوَّن بدورها من مجموع أسباب وأوتاد ، ولكنَّها حيث لا تقع إلاّ في الكلمات سُمِّيت فواصل ، لأنَّها تفصل كلمةً عن أُخرىٰ .

وأمّا الأسباب والأوتاد فقد تكون بكلمات مستقلَّة أو في أحرف .

وهذه الأسباب والأوتاد والفواصل مصطلحات نجدها أيضاً في قوانين اللّحن والإيقاع فهي تتعلَّق بالنقرات والعلامات الزمنيّة :

فالسبب الخفيف يساوي بالنقرات نقرةً متحرِّكة ونقرةً ساكنة ونلفظ إيقاعها هكذا : (تَنْ) .

والسبب الثَّقيل يساوي بالنقرات نقرتَيْن متحرِّكتين ، ونلفظ إيقاعها هكذا : (تَتَ) .

والوتد المجموع يساوي بالنقرات نقرتين متحرّكتين ونقرة ساكنة ، ونلفظ إيقاعها هكذا : (تَتَنْ) .

والوتد المفروق يساوي بالنقرات نقرة متحرِّكة وأُخرىٰ ساكنة وثالثة متحرِّكة ، ونلفظ إيقاعهاهكذا : (تَنْتَ) .

والفاصلة الصُّغرىٰ تساوي بالنّقرات ثلاث نقرات متحرِّكة ورابعة ساكنة ، ونلفظ إيقاعها هكذا : (تَتَتَنْ) .

والفاصلة الكبرىٰ تساوي بالنقرات أربع نقرات متحرِّكة وخامسة ساكنة ، ونلفظ إيقاعها هكذا : (تَتَتَتَنْ) .

تفاعيل أبحر الشِّعر :

وبالاستقراء الذي قام به الفراهيديُّ لقصائد الشِّعر العربيِّ وجد أن التفاعيل التي تتركَّب من الأسباب والأوتاد والفواصل وتتكوَّن منها أبحر الشِّعر ترجع إلىٰ عشر تفاعيل رئيسيَّة هي :

١ـ **فَعُولُنْ** : وتتألف من وتد مجموع وسبب خفيف ، مثال : (رسولٌ) ، ونكتُبها عروضيّاً هكذا :

رَسُوْ لُنْ

//٥ /٥

فعو لن

وتد سبب

مجموع خفيف

٢ـ **مَفَاعِيلُنْ** : وتتألَّف من وتد مجموع وسببين خفيفين مثال : (لقد قاموا) ، ونكتبها عروضيّاً هكذا :

لَـقَـدْ قَـامُـوْا

//٥ /٥/٥

مـفا عيـلن

وتد سبب سبب

مجموع خفيف خفيف

٣ـ **مُفاعَلَتُنْ** : وتتألَّف من وتد مجموع وسبب ثقيل وسبب خفيف أو فاصلة صُغرىٰ ، مثال : (لقد رجعوا) ، ونكتبها عروضيّاً هكذا :

لَـقَدْ رَجَـعُوْا

//٥ ///٥

مفا علـ تن

وتد سبب سبب

مجموع ثقيل خفيف

فاصلة صُغرىٰ

٤ـ **فاعِلُنْ** : وتتألَّف من سبب خفيف ووتد مجموع مثال :

(حاكمٌ) ونكتبها عروضيًّاً هكذا :

حَا كِمُنْ

/ه //ه

فـا علن

سبب وتد

خفيف مجموع

٥ـ **فاعِلاتُنْ** : وتتألَّف من سبب خفيف ووتد مجموع وسبب خفيف ، مثال : (جلَّ ربِّي) ، ونكتبها عروضيًّاً هكذا :

جَلْلَ رَبْبي

/ه/ /ه/ه

فا عــلا تن

سبب وتد سبب

خفيف مجموع خفيف

٦ـ **فاعِ لاتُنْ** : وتتألَّف من وتد مفروق وسببين خفيفين ، مثال : (قد أقاموا) ، ونكتبُها عروضيًّاً هكذا :

قَدْ أَقَـامُـوا

/ه//ه/ه

فا ع لا تن

وتد سبب سبب

مفروق خفيف خفيف

٧ـ **مستفعلن** : وتتألَّف من سببَيْن خفيفَيْن ووتد مجموع مثال :

(قد أكرموا) ، ونكتُبها عروضيًّاً هكذا :

قَدْ أَكْرَمُوا

/ه /ه/ /ه

مســـــتفعــلن

سبب سبب وتد

خفيف خفيف مجموع

٨ـ **مُسْتَفْعِ لُنْ** : وتتألَّف من سبب خفيف ووتد مفروق وسبب خفيف ، مثال : (لن تخذلوا) ، ونكتبها عروضيًّاً هكذا :

لَنْ تُخْـذَ لُوْ

/ه /ه/ /ه

مســـتفع لن

سبب وتد سبب

خفيف مفروق خفيف

٩ـ **متفاعلن** : وتتألَّف من سبب ثقيل وسبب خفيف ووتد مجموع مثال : (حمد التُّقىٰ) ، ونكتبها عروضيًّاً هكذا :

حَمَدَ تَتُقَىٰ

///ه //ه

متفـاعــلن

سبب سبب وتد

ثقيل خفيف مجموع

١٠ـ **مَفْعُولاتُ** : وتتألَّف من سبَبَين خفيفين ووتد مفروق ، مثال : (قامَ النّاس) ، ونكتبها عروضيّاً هكذا :

قَا مَنْ نَأْسُ

/٥ /٥ /٥/

مـفـــعـو لات

سبب سبب وتد

خفيف خفيف مفروق

أبحر الشعر العربيّ

تقدَّم معنا أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ أرجع أوزان الشعر العربيِّ إلىٰ خمسة عشر بحراً وزاد عليها تلميذه سعيد بن مسعدة الملقَّب بالأخفش الأوسط بحراً سادس عشر ، وإليك هذه الأبحر مع تقسيماتها وأوزانها ومثال مفصَّلٍ لكلِّ واحد منها :

أقسام تفعيلات البيت الشعريِّ :

تنقسم تفعيلات البيت الشِّعري إلىٰ ثلاثة أقسام هي :

١ـ **الحشو** : وهو التفعيلات ما دون العروض والضرب .

٢ـ **العروض** : وهي التفعيلة الأخيرة من الشطر الأول للبيت .

٣ـ **الضرب** : وهو التفعيلة الأخيرة من الشطر الثاني للبيت .

أقسام الأبحر بحسب تفعيلات كلٍّ منها :

تنقسم الأبحر بحسب تفعيلات كلٍّ منها إلىٰ الأقسام الآتية :

أولاً ـ البحور الموحَّدة :

وهي البحور التي يتألف البحر الواحد منها من تفعيلة واحدة تتكرَّر في إطاره الإيقاعيِّ ، وتنقسم إلى شعبتَيْن :

أ ـ البحور السباعيّة : وهي التي تتركب من تكرار تفعيلة واحدة تتألَّف من سبعة أحرف ، وتكون في الأبحر الآتية :

١ ـ الرمل : وتفعيلاته ما يلي :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فالتفعيلة المتكرِّرة هي (فاعلاتن) ، وهي سُباعيَّة الأحرف مثال :

إنَّ في الإسْلام عِزّي وافتخاري أَرْتَجِي في ظِلِّهِ نَيْلُ انْتِصَارِي

إننفل إس	لام عززي	وفتخاري
/٥//٥/٥	/٥/٥//٥	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن

أرتجي في	ظللهي ني	لنتصاري
/٥//٥/٥	/٥/٥//٥	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن

٢ ـ الرجز : وتفعيلاته ما يلي :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

فالتفعيلة المتكررة هي (مستفعلن) ، وهي سباعيَّة الأحرف . مثال :

دارٌ لِسَلْمىٰ إذ سُلَيْمىٰ جارةٌ قَفْرىٰ تُرىٰ آياتُها مثل الزُّبَرْ

دار نلسل	ما إذ سلي	ما جارتن
/٥/٥//٥	/٥/٥//٥	/٥/٥//٥
مستفعلن	مستفعلن	مستفعلن

قَفْرىٰ ترىٰ	ءاياتها	مثل زززبرْ
/٥/٥//٥	/٥/٥//٥	/٥/٥//٥
مستفعلن	مستفعلن	مستفعلن

٣ـ الكامل : وتفعيلاته ما يلي :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فالتفعيلة المتكرِّرة هي (متفاعلن) وهي سباعيَّة الأحرف مثال :

بِضياءِ شَمْسِكَ يا محمّدُ نَهْتدي وبِنُورِ سُنَّتِكَ الكَرِيمَةِ نَقْتَدِي

بضياء شم	سك يا محم	مد نهتدي
///٥//٥	///٥//٥	///٥//٥
متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن

وبنور سن	نتكلكري	متنقتدي
///٥//٥	///٥//٥	///٥//٥
متفاعلن	متفاعلن	متفاعلن

٤ـ الوافر : وتفعيلاته هي :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

فالتفعيلة المتكرِّرة هي (مفاعلتن) ، وهي سباعيَّة الأحرف . مثال :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللِّسانُ

obeikandl.com

جراحاتسـ	سنا نلهل	تئامو
//ه/ه/ه	//ه///ه	//ه/ه
مفاعيلن	مفاعلتن	فعولن

ولا يلتا	مما جرح	لسانو
//ه/ه/ه	//ه///ه	//ه/ه
مفاعيلن	مفاعلتن	فعولن

ب ـ **البحور الخماسيّة** : وهي التي تتكوَّن من تكرار تفعيلة تتألَّف من خمسة أحرف ، وتكون في البحور الآتية :

١ـ **المتقارب** : وتفعيلاته هي :

فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن

والتفعيلة المتكرِّرة هي (فعولن) ، وهي خُماسيَّة الأحرف ، مثال :

تعلَّمت أنِّي سأحمي حُدودي بعَزْمٍ أبيٍّ ونَهْجٍ رشيدِ

تعللم	تأنني	سأحمي	حدودي
//ه/ه	//ه/ه	//ه/ه	//ه/ه
فعولن	فعولن	فعولن	فعولن

بعزمن	أبيين	ونهجن	رشيدي
//ه/ه	//ه/ه	//ه/ه	//ه/ه
فعولن	فعولن	فعولن	فعولن

٢ـ المتدارك : وتفعيلاته هي :

فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن فـاعلـن

فالتفعيلة المتكرِّرة هي (فاعلن) ، وهي خماسيَّة الأحرف . مثال :

لم يدعْ مَنْ مَضى للَّذي قد غبرْ فَضْـل علـمٍ سِـوى أَخْـذه بـالأَثَـرْ

لم يدع	من مضى	للذي	قد غبرْ
/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥
فاعلن	فاعلن	فاعلن	فاعلن

فضل عل	من سوىٰ	أخذ هي	بلخبر
/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥
فاعلن	فاعلن	فاعلن	فاعلن

جـ ـ البحور الممتزجة : وهي التي تكوَّن الواحد منها من تفعيلات سُباعيَّة وخُماسيَّة أو تكوَّنت من تفعيلات سُباعيَّة متنوِّعة ، ويكون القسم الأوّل منها في الأبحر الآتية :

١ـ الطويل : وتفعيلاته هي :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فاجتمع في هذا البحر تفعيلات خُماسيَّة وهي (فعولن) ، وأُخرى سُباعيَّة وهي (مفاعيلن) . مثال :

إذا المرء لم يخزِنْ عليه لسانه فليـس علـى شـيءٍ سـواه بخـزّانِ

إذ لمر	ء لم يخزن	عليهي	لسانهو
//٥/٥	//٥/٥/٥	//٥/٥	//٥//٥
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

فليس	على شيئين	سواهو	بخزْزاني
//٥/	//٥/٥/٥	//٥/٥	//٥/٥/٥
فعول	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن

٢ـ البَسيط : وتفعيلاته هي :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

فاجتمع في هذا البحر تفعيلات خُماسيَّة وهي (فاعلن) وتفعيلات سُباعيَّة وهي (مستفعلن) ، مثال :

إنَّ الرّسول لنورٌ يُستضاء به مهنَّدٌ من سيوف الله مَسْلولُ

إننرسو	للنو	رنيستضا	ءبهي
/٥/٥//٥	///٥	/٥/٥//٥	///٥
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فعلن

مهنندن	من سيو	فللاهمس	لولو
//٥//٥	/٥//٥	/٥/٥//٥	/٥/٥
متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعْلن

٣ـ المَدِيد : وتفعيلاته هي :

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

اجتمع فيه تفعيلة سُباعيَّة وهي (فاعلاتن) وأخرىٰ خُماسيَّة وهي (فاعلن) ، مثال :

إنّمـــا الـــدنيـــا بـــلاءٌ وكـــدٌّ واكتئـــاب قـــد يســـوق اكتئـــابـــا

إنْنمددن	يابلا	ءن وكد دن
/٥//٥/٥	/٥//٥/	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلن	فاعلاتن
وكتئابن	قد يسو	قكتئابا
/٥//٥/٥	/٥//٥/	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلن	فاعلاتن

وأمّا القسم الثاني من البحور الممتزجة فيكون في البحور الآتية :

١ـ الخفيف : وتفعيلاته هي :

فـاعـلاتـن مستفعلـن فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن مستفعلـن فـاعـلاتـن

فاجتمعت فيه تفعيلتان تتكوَّن كل واحدةٍ منهما من سبعة أحرف هما : (فاعلاتن) و (مستفعلن) ، مثال :

كم كريمٍ أزرىٰ به الدَّهْر يوماً ولئيـــمٍ تسعـــىٰ إليـــه الـــوفـــودُ

كم كريمن	أزْرىٰ بهد	دهر يومن
/٥//٥/٥	/٥/٥//٥	/٥//٥/٥
فاعلاتن	مستفعلن	فاعلاتن
ولئيمن	تسعىٰ إليـ	هلوفودو
///٥/٥	/٥/٥//٥	/٥//٥/٥
فعلاتن	مستفعلن	فاعلاتن

٢ـ **السريع** : وتفعيلاته هي :

مستفعلــن مستفعلــن مفعــولات مستفعلــن مستفعلــن مفعــولات

فاجتمعت فيه تفعيلتان كلُّ واحدة منهما تتألَّف من سبعة أحرف هما : (مستفعلن) و (مفعولات) . ولا يأتي عروضه وضربه إلاّ معلَّين .

مثال :

مــن رُزق العقــل فــذو نعمــةٍ آثــارهــا واضحــةٌ ظــاهــره

من رزقل	عقل فذو	نعمتن
/٥///٥	/٥///٥	/٥//٥
متفعلن	متفعلن	فاعلن

ءاثارها	واضحتن	ظاهره
/٥/٥//٥	/٥///٥	/٥//٥
مستفعلن	متفعلن	فاعلن

٣ـ **المنسرح** : وتفعيلاته هي :

مستفعلــن مفعــولات مستفعلــن مستفعلــن مفعــولات مستفعلــن

فاجتمعت فيه تفعيلتان تتألّف كلُّ واحدة منهما من سبعة أحرف وهما : (مستفعلن) و (مفعولات) ، مثال :

إنّ ابــن زيــدٍ مــا زال مستعمــلاً للخير يُهدي في مصره العُرْفا

إننبنزيــ	دن ما زال	مستعملن
/٥/٥//٥	/٥/٥/٥	/٥/٥//٥
مستفعلن	مفعولات	مستفعلن

للخيريُهْ	دي في مصر	هلعرفا
/٥/٥//٥	/٥/٥/٥/	/٥/٥/٥
مستفعلن	مفعولات	مفعولن

٤ـ المجتثّ : وتفعيلاته هي :

مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن

فاجتمعت فيه تفعيلتان كلٌّ واحدة منهما تتألف من سبعة أحرف هما (مستفع لن) و (فاعلاتن) . مثال :

طوبى لعبدٍ تقيٍّ لم يألُ في الخير جُهْدا

طوبىٰ لعبـ	دن تقيين	لم يأل فل	خير جهدا
/٥/٥//٥	/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥/٥
مستفع لن	فاعلاتن	مستفع لن	فاعلاتن

٥ـ المقتضب : وتفعيلاته هي :

مفعولات مستفعلن مفعولات مستفعلن

اجتمعت فيه تفعيلتان سُباعيّتان هما (مفعولات) و (مستفعلن) ، ولا تستعمل تفعيلتا العروض والضرب إلاّ مطويّتين ، مثال :

هَلْ عليَّ ويحكُما إنْ لهوت من حرجِ

هل عليي	ويحكما	إن لهوت	من حرجي
/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥	/٥//٥
مفعلات	متفعلن	مفعلات	متفعلن

٦ـ المضارع : وتفعيلاته هي :

مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن فاع لاتن

اجتمعت فيه تفعيلتان سُباعيّتان هما : (مفاعيلن) و (فاع لاتن) . مثال :

وقفنـــا علـــىٰ الـــرجـــالِ فلـــم نلـــق مثـــل زيـــدِ

وقفناع	لرْرجالي	فلم نلق	مثل زيدي
//٥/٥	/٥//٥/٥	//٥/٥	/٥//٥/٥
مفاعيل	فاعلاتن	مفاعيل	فاعلاتن

تنبيه :

نلاحظ في الأمثلة السابقة كيف تعرَّض بعض التفعيلات لشيء من التغيير عن الأصل وهذا التغيير الذي قد يطرأ على تفعيلات البيت الشِّعريِّ ليس عيباً في التفعيلة ، وإنَّما هو تنويع في النَّغم داخل الإطار العام لأوزان البحر ، وهذا جائز ضمن ضوابط إيقاعيَّة فُهِمت استقراءً من أشعار العرب الفصحاء . وينقسم هذا التغيير إلى قسمين :

الأول ـ الزحاف : وهو التغيير الذي يطرأ على تفعيلات الحشو ، ويمكن أن يتنوَّع في أبيات القصيدة ، ولا يشترط التزامه في جميعها .

والثاني ـ العِلَّة : وهو تغيير يطرأ على تفعيلة العروض أو الضرب ، ويجب أن يلتزمه الشاعر في جميع أبيات قصيدته وخاصَّة في الضَّرْب .

أنواع الزحاف :

للزحاف نوعان : مفرد ومركَّب .

أ ـ الزحاف المفرد :

وهو ما يصيب حرفاً واحداً فقط في التفعيلة الواحدة ، وهو ثمانية أنواع مرتَّبةً حسب الجدول الآتي :

النوع	التعريف	التفعيلة القابلة للعلة	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه	الأبحر التي تدخل فيها
القَصْر	إسقاط ثاني السبب الخفيف من آخر التفعيلة وإسكان ما قبله	فاعلاتن فعولن مستفعلن	فاعلاتْ فعولْ مستفعل	فاعلان	المديد ـ الرمل ـ المتقارب ـ الخفيف ـ الرجز
الحذَذ	حذف الوتد المجموع من آخر التفعيلة	متفاعلن	متفا	فعِلن	الكامل
التشعيث	حذف أول أو ثاني الوتد المجموع من آخر التفعيلة	فاعلن	فالن فاعن	فعْلن	البسيط ـ السريع
الصَّلْم	حذف الوتد المفروق من آخر التفعيلة	مفعولاتُ	مفعو	فعْلن	السريع
الوَقْف	إسكان آخر الوتد المفروق من آخر التفعيلة	مفعولاتُ	مفعولاتْ		السريع
الكَسْف	حذف آخر الوتد المفروق من آخر التفعيلة	مفعولاتُ	مفعولا	مفعولن	السريع
البتر	مركّب من الحذف والقطع	فعولن فاعلاتن	فعْ فاعلْ	فعْلن	المتقارب المديد

obeikandl.com

ب ـ الزحاف المركّب:

وهو ما يصيب حرفين معاً في التفعيلة الواحدة ، وله أربعة أنواع مرتّبة حسب الجدول الآتي:

النوع	التعريف	التفعيلة القابلة للزحاف	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه	الأبحر التي يدخل فيها
الخَبل	يتركّب من الطيّ والخَبْن	مستفعلن مفعولات	متعلن معُلاتُ	فعلتن فعلاتُ	البسيط ـ الرجز السريع ـ المنسرح
الخزل	يتركّب من الطيّ والإضمار	متفاعلن	مُتْفعلن	مفْتعلن	الكامل
الشَّكْل	يتركّب من الكفّ والخبْن	فاعلاتن مستفعلن	فعلات متفعل		المجتث ـ الرمل المديد ـ الخفيف
النقص	يتركّب من الكفّ والعصب	مفاعلتن	مفاعلْت	مفاعيل	الوافر

obeikandl.com

أنواع العِلَل:

للعِلل نوعان : عِلَل زيادة وعِلَل نقص.

أ ـ علل الزيادة:

وهي ثلاثة أنواع مرتّبة حسب الجدول الآتي:

النوع	التعريف	التفعيلة القابلة للعلة	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه	الأبحر التي تدخل فيها
الترفيل	زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع	فاعلن متفاعلن	فاعلاتن متفاعلاتن		مجزوء المتدارك مجزوء الكامل
التذييل	زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع	متفاعلن مستفعلن فاعلن	متفاعلان مستفعلان فاعلان		مجزوء الكامل مجزوء البسيط مجزوء المتدارك
التسبيغ	زيادة حرف ساكن على ما آخره سبب خفيف	فاعلاتن	فاعلاتان		مجزوء الرمل

obeikandl.com

ب ـ عِلَل النقص:

وهي عشرة أنواع مرتّبة حسب الجدول الآتي:

النوع	التعريف	التفعيلة القابلة للعلة	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه	الأبحر التي تدخل فيها
الحذف	إسقاط سبب خفيف من آخر التفعيلة	١ـ مفاعيلن ٢ـ فعولن ٣ـ فاعلاتن	مفاعي فعو فاعلا	فعولن فعلْ فاعلن	الطويل ـ الهزج ـ المتقارب ـ المديد ـ الرمل ـ الخفيف
القطف	إسقاط السبب الخفيف من آخر التفعيلة مع إسكان ما قبله	مفاعلتن	مفاعلْ	فعولن	الوافر
القطع	حذف ساكن الوتد المجموع ـ وتسكين ما قبله	١ـ متفاعلن ٢ـ مستفعلن ٣ـ فاعلن	متفاعلْ مستفعلْ فاعلْ	مفعولن فعْلن	الكامل الرجز البسيط

obeikandl.com

النوع	التعريف	التفعيلة القابلة للزحاف	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه	الأبحر التي يدخل فيها
الخَبْن	حذف الثاني الساكن	فاعلن مستفعلن مفعولات فاعلاتن	فعِلن متفعلن مفعولات فعلاتن	مفاعلن فعولات	البسيط ـ الرجز ـ الرمل ـ المنسرح ـ السريع ـ المديد ـ المقتضب ـ الخفيف ـ المجتث ـ المتدارك
الإضْمار	تسكين الثاني المتحرِّك	متفاعلن	متْفاعلن	مستفعلن	الكامل
الوَقْص	حذف الثاني المتحرِّك	متفاعلن	مفاعلن		الكامل
الطَّيّ	حذف الرابع الساكن	مستفعلن متفاعلن مفعولات	مستعلن متفعلن مفعلات	مفْتَعلن	الرجز ـ البسيط ـ المقتضب ـ السريع ـ المنسرح
العَصْب	تسكين الخامس المتحرِّك	مفاعلَتن	مفاعلْتن	مفاعيلن	الوافر
القَبْض	حذف الخامس الساكن	فعولن مفاعيلن	فعولُ مفاعلن		الطويل ـ الهزج ـ المتقارب ـ المضارع
العَقْل	حذف الخامس المتحرِّك	مفاعلتن	مفاعتن	مفاعلن	الوافر
الكفّ	حذف السابع الساكن	مستفعلن فاعلاتن مفاعيلن	مستفعل فاعلات مفاعيل		الرمل ـ الهزج ـ المضارع ـ الخفيف ـ المديد ـ الطويل ـ المجتث

obeikandl.com

وهناك طائفة من العلل خاصة بالأوتاد تشبه الزحاف لأنَّها غير لازمة ، وأكثرها قبيح غير مأنوس ، وتترتَّب حسب الجدول الآتي:

النوع	التعريف	التفعيلة المعرّضة للعلة	ما تؤول إليه	ما تنقل إليه
الخزم	زيادة حرف أو أكثر في أول صدر البيت أو عجزه على الوزن في بعض البحور			
الخرم	حذف أول الوتد المجموع من أول البيت	فعولن	عولن	فعْلن
الثَّرم	مركَّب من الخرم والقبض	فعولن	عولُ	فعْلُ
الشتر	الثرم الواقع في مفاعيلن فقط	مفاعيلن	فاعلن	
الخَرَب	مركب من الخَرْم والكف	مفاعيلن	فاعيلْ	مفعولُ
العضب	الخَرْم الواقع في مفاعلتن	مفاعلتن	فاعلتن	
القَصْم	مركَّب من الخرم والعصب	مفاعلتن	فاعلْتن	مفعولن
الجَمَم	مركَّب من الخَرْم والعقل	مفاعلتن	فاعتن	فاعلن
العقص	مركَّب من الخَرْم والنقص	مفاعلتن	فاعلتُ	مفعولُ

obeikandl.com

ملاحظة هامّة :

يجب القصد في استعمال الزِّحافات والعِلل المباحة وعدم الإفراط فيه ؛ لأنَّ في كثرتها في البيت الواحد إخلالاً بالإيقاع الموسيقيِّ وإفساداً في ترنيمة النَّغم ، فينجم عن ذلك خروج البيت عن الذَّوق ونفور الحسِّ الشِّعْريِّ منه . لهذا يسمّون البيت الذي كثر فيه الزِّحاف والعِلل : (البيت المخلَّع) إشارةً إلىٰ ضعف التأليف الموسيقيِّ فيه .

* * *

obeikandl.com

أوزان الشعر المستحدَثة
بعد عروض الفراهيديّ

نظراً لانتشار الغناء في العصر الأُمويّ والعصر العبّاسيِّ ، فقد اهتمَّ شعراء الغزل بنظم قصائدهم في الأوزان الخفيفة البسيطة كالمتدارك والهزج والمجتثّ والمقتضب ، كما نظموا أشعارهم في مجزوءات الأبحر الطويلة ، وذلك لتكون أيسر في التلحين وأقرب متناولاً للمغنِّين وأكثر تآلفاً مع الإيقاع والنَّغَم في مجالس السَّمَر واللَّهْو . وقام الشُّعراء العبّاسيُّون باستحداث أوزان جديدة لم تستعملها العرب في أشعارها ، ويذكر النُّقّاد أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ وضع القواعد الأساسيَّة لهذه الأوزان الجديدة ليتمكّن الشُّعراء بعد ذلك من النفوذ من خلالها إلىٰ ما يريدونه من الأوزان .

وأهمُّ شاعر اهتمَّ بالنَّظم في الأوزان المهملة ، واستحدث من الوزن في أشعاره ما لم يُسبَق إليه هو الشاعر أبو العتاهية ؛ فنظم علىٰ عكس البسيط نحو قوله :

للمنـون دائـرات يُـدِرْن صَـرْفهـا هُـنَّ ينتقيننـا واحـداً فـواحـدا

ووزن البيت هكذا :

فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن

وهو كما نرىٰ عكس البحر البسيط الذي وزنه :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ونظم علىٰ عكس المديد نحو قوله :

عُتْبَ ما للخيال خبّريني مالي لا أراه أتـانـي زائـراً مُـذْ ليـالـي

ووزن البيت هكذا :

فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

وهو كما ترىٰ عكس البحر المديد الذي وزنه :

فـاعـلاتـن فـاعـلـن فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن فـاعـلـن فـاعـلاتـن

ولقد أكثر أبو العتاهية من هذه الأوزان الجديدة ، فكان إذا روجع في ذلك وقيل له : إنَّ أشعارك لا تدخل في عروض الخليل قال : أنا أكبر من العَروض .

واتَّسع نطاق التجديد في أوزان الشعر عند شعراء الأندلس حيث فاضت الحياة بالنعيم ومجالس اللَّهْو والسَّمر ومحافل الأُنس والدَّعَة ، فكثر المطربون وشاع الغناء ، فاستدعى ذلك استحداث أوزان تتجاوب مع ألحان الغناء وإيقاعات الطرب والسماع ، فظهر فنُّ الموشَّحات الذي تنوَّعت أوزانه وتعدَّدت قوافيه ، وهذا ما سوف نفصِّل الحديث عنه في الفصل الآتي .

البحور المولَّدة :

نذكر في هذه الفِقْرة بعض البحور المولَّدة التي استحدثها العروضيّون بدافع الحاجة إلىٰ فنون شعريَّة جديدة ، وتجلَّت فيها جُرأة الشُّعراء علىٰ عروض الخليل :

١ـ البحر المستطيل :

وهو مقلوب البحر الطويل ، وتفعيلاته هي :

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن

مثال :

لقد هاج اشتياقي غريرُ الطرف أحورْ أدير الصِّدْغ منه علىٰ مِسْكٍ وعنبَرْ

التحليل العروضيُّ :

لقد هاجش	تياقي	غرير ططرْ	فأحورْ
//٥/٥٥	//٥/٥	//٥/٥/٥	//٥/٥
مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن

أدير صصد	غمنهو	على مسكن	وعنْبَرْ
//٥/٥٥	//٥/٥	//٥/٥/٥	//٥/٥
مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن

٢ـ البحر الممتدّ :

وهو مقلوب البحر المديد وتفعيلاته هي :

فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

مثال :

صاد قلبي غزالٌ أحورٌ ذو دلالِ كلّمـا زدتُ حُبّـاً زاد منِّـي نفـورَا

التحليل العروضيُّ :

صاد قل	بيغزالن	أحورن	ذو دلالي
/٥//٥	/٥//٥/٥	/٥//٥	/٥//٥/٥
فاعلن	فاعلاتن	فاعلن	فاعلاتن

obeikandl.com

كُلْلَما	زد تحببن	زاد من	نينفورا
/٥//٥	/٥//٥/٥	/٥//٥	/٥//٥/٥
فاعلن	فاعلاتن	فاعلن	فاعلاتن

٣ـ البحر المتوفِّر :

وهو محرّف عن الرَّمل وتفعيلاته هي :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

مثال :

ما وقوفٌ بالرِّكاب في الطَّلل ما سؤالٌ عن حبيبٍ قد رحلْ

التحليل العروضيُّ :

ما وقوفن	بركاب	فطْطللْ
/٥//٥/٥	/٥//٥/	/٥//٥
فاعلاتن	فاعلات	فاعلن

ما سؤالن	عن حبيبن	قد رحل
/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلن

٤ـ البحر المتَّئد :

وهو مقلوب البحر المجتثّ ، وتفعيلاته هي :

فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن

مثال :

obeikandl.com

ما لسلمىٰ في البرايا من مُشْبهٍ لا ولا البـدْرُ المنيـرُ المستكمِـلُ

التحليل العروضيُّ :

ما لسلمىٰ	فلبرايا	من مشبهن
/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلاتن	مستفعلن

لا وللبد	رلمنيرل	مستكملو
/٥//٥/٥	/٥//٥/٥	/٥//٥/٥
فاعلاتن	فاعلاتن	مستفعلن

٥ـ البحر المنسرد :

وهو مقلوب المضارع ، وتفعيلاته هي :

مفـاعيلـن مفـاعيلـن فـاعـلاتـن مفـاعيلـن مفـاعيلـن فـاعـلاتـن

مثال :

لقد ناديتُ أقواماً حين جاؤوا وما بالسَّمْع من وَقْرٍ لو أجابوا

التحليل العروضيُّ :

لقد نادَيْ	تأقوا من	حين جاؤو
//٥/٥/٥	//٥/٥/٥	/٥//٥/٥
مفاعيلن	مفاعيلن	فاعلاتن

وما بسْسَمْ	عمن وقرن	لو أجابو
//٥/٥/٥	//٥/٥/٥	/٥//٥/٥
مفاعيلن	مفاعيلن	فاعلاتن

obeikandl.com

٦ـ البحر المطَّرِد :

وهو مقلوب المضارع وتفعيلاته وهي :

فـاعـلاتـن مفـاعيلـن مفـاعيلـن فـاعـلاتـن مفـاعيلـن مفـاعيلـن

مثال :

مَن مجيري من الأشجان والكرْب مَن مُزيلي عن الإبعاد بالقُرْبِ

التحليل العروضيُّ :

من مجبري	منلأشجا	نولكربي
/٥//٥/٥	//٥/٥/٥	//٥/٥/٥
فاعلاتن	مفاعيلن	مفاعيلن

من مزيلي	عنلإبعا	دبلقربي
/٥//٥/٥	//٥/٥/٥	//٥/٥/٥
فاعلاتن	مفاعيلن	مفاعيلن

* * *

obeikandl.com

الفنون الشِّعريَّة الجديدة

كان النَّمط الثاني الذي سار إلىٰ جانب الصورة التقليديَّة للشِّعر العربيِّ عند العرب الجاهليِّين والإسلاميِّين هو الأراجيز . وهو قصائد موزونة من بحر الرَّجز يتَّحد فيها الرويُّ في أشطار أبياتها . وكان العربيُّ في الماضي ينظم فيها الأبيات القليلة التي كان يحدُو بها إبلَه ، أو يصف ما يراه في طريقه من الحيوان ونحوه ، ثمَّ استعملها في مواطن البأس يُعبِّر بها عن انفعاله وحماسته وشجاعته ، نذكر من شواهد هذا ارتجاز عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما في غزوة مؤتة حيث جاء في خبرها :

ثمَّ أخذ جعفر الراية ، فقاتل القوم حتىٰ قُتِل وهو يقول :

يا حبذا الجنَّة واقترابُها ... طيِّبةً وبارداً شرابُها

والروم رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُها

ثمَّ أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فجعل يستنزل نفسه ، ثمَّ قال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ ... طائعةً أو لتُكرهنَّهْ

إن أجلب الناس وشدُّوا الرَّنهْ ... مالي أراكِ تكرهين الجنَّهْ

قد طال ما قد كنتِ مطمئنَّهْ ... هل أنت إلاّ نُطفة في شَنَّهْ

ومن ذلك أيضاً ارتجاز أولاد الخنساء في معركة القادسيَّة حيث أنشأ أحدهم يقول :

يا إخوتي إنَّ العجوز الناصحَهْ قد نصحتنا إذ دعتْنا البارحَهْ
مقالةً ذات بيانٍ واضحَهْ فباكروا الحرب الضَّرُوسَ الكالحَهْ
وإنّما تلقون عند الصائحَهْ من آل ساسانَ كلاباً نابحَهْ
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحَهْ وأنتمُ بين حياةٍ صالحَهْ
أو ميتةٍ تُورِث غَنْماً رابِحَهْ

ثمَّ قاتل حتّىٰ قُتِل .

ثمَّ اهتمَّ الشُّعراء بالأراجيز ، فصاروا يُطوِّلونها ، وينحون بها منحى القصائد التقليديَّة ، ويضمِّنونها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرِّثاء . كما تناولوا فيها النسيب ، وقصدوا بها الخلفاء والولاة ، وذكروا فيها الديار والأطلال والظعائن وسائر مضامين الشِّعر وأغراضه . وكان العجّاج أوَّل من أطال الأراجيز ، وضمَّنها معاني الشِّعر التقليديِّ ومقاصده ، وهذا ما رجَّحه أبو عبيدة .

وفي ظلِّ العصر الأُمويِّ اتَّسع نطاق الرَّجز ، فكان من أبرز أعلامه رُؤبة بن العجاج ، ومن أراجيزه قوله :

كأنَّ فوق الناصعِ المبطَّنْ من حَبَراتِ العيش ذي التَّدَهْقُنْ
باناً جَرىٰ في الرّازقيِّ البَهْمَنْ

ودُكين الفَقْميّ ، وأبو النَّجم الذي راجز العجَّاج بقوله :

إنِّي وكلُّ شاعر من البَشَرْ شيطانه أُنثىٰ وشيطاني ذكرْ
فما رآني شاعر إلاّ استترْ فعل نجوم اللَّيل عاينَّ القَمَرْ

عِيشي تميمُ واصغُري فيمن صَغُرْ وجاوري الذلَّ وأعطي من عَشَرْ
وأمِّـري الأُنثىٰ عليـك والـذَّكـرْ فـإنَّمـا يشـرب مَـنْ ذلَّ السُّـؤرْ
وارضـي بـإحـلابـة وطْـبٍ قـد حَـزَرْ

وفي ظلال العصرين الأُموي والعبّاسيِّ ظهرت فنون جديدة للشِّعر إلىٰ جانب التوسُّع في الأراجيز منها :

١ـ المزدوج :

وهو ضرب من الشِّعر تختلف فيه القافية من بيت إلىٰ بيت في القصيدة الواحدة بينما تتَّحد في الشطرين المتقابلين ، وينظم غالباً في بحر الرَّجَز . وقيل أوّل من ابتكره الوليد بن يزيد ، وذلك عندما خطب فقال :

الحمـــد لله ولـــيِّ الحَمْـــدِ أحمـده فـي يُسـرنـا والجهـدِ
وهـو الـذي فـي الكَـرْبِ أستعينُ وهـو الـذي ليـس لـه قـرينُ
أشهـد فـي الـدنيـا ومـا سـواهـا ألاَّ إلـــه غيـــرُه إلٰهـــا

ونظم فيه بشار بن برد ، إذْ نعته الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » بأنَّه صاحب مزدوج . ونظم فيه أبو العتاهية مزدوجته « ذات الأمثال » . وكان من أقوىٰ الناس نظماً به بِشر بن المعتمر .

وازدهر هذا الضَّرْب من النَّظْم بظهور الشِّعر التعليميِّ ، فصاغ أبان بن عبد الحميد فيه ما نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك محمد بن إبراهيم الفزاريُّ صاحب المزدوجة الفلكيَّة .

٢ـ الرباعيّات :

وهي تتألَّف من أربعة شطور يتَّفق أوَّلُها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، وأمّا الشَّطر الثالث ، فقد يتَّفق مع بقيَّة الأشطار في القافية وقد يختلف .

وانتشرت الرُّباعيّات في العصر العبّاسيِّ ، وكانوا يستعملونها في مواضيع مختلفة ومعانٍ عديدة . ويُروىٰ أنَّ حمَّاد عَجْرد صاغ من هذا النَّمط أشعاراً مزدوجة كما نظم بها بشّار بن بُرْد من ذلك قوله :

ربـــابـــة ربَّـــة البيـــتِ تصـبُّ الخـلَّ فـي الـزيـتِ
لهـــا عشـــر دجـــاجـــاتٍ وديـــكٌ حســـن الصـــوتِ

ونظم فيه أبو نواس في الخمريّات والغزل ، وأبو العتاهية نحو قوله في الموت :

الموت بين الخلق مُشْتَرَكٌ لا ســوقـة يبقـىٰ ولا ملِـكُ
ما ضرَّ أصحاب القليل وما أغنى عن الأملاك ما ملكوا

وشاع النظم في الرُّباعيات عند شعراء الفرس ، فكان ممن اشتُهِر به منهم وكان إماماً فيه عمر الخيّام الذي عُرف برُباعيّاته . غير أن صورتها في الترجمات الحديثة لم تأت على نسقها المعهود في العصر العباسيِّ ، بل جاءت عبارة عن مقاطع يتكوَّن كلُّ مقطع منها من بيتين يتألفان من أربعة أشطار تجمعها قافية واحدة . ومنها المقطعان الآتيان حسبما جاء في ترجمتها المنظومة التي قام بها الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفيّ :

لا يحسبنِّي جئتُ من نفسي ولا
قطَّعتُ وحدِي ذا الطريقَ المُعنِتا
إن يـكُ منـه جـوهـري ومنشئـي
فمن أنا ، وأين كنتُ ، ومتى؟

* * *

إنَّ الأُلىٰ بلغوا الكمال وأصبحوا
مـا بيـن صحبهـم سـراجَ النـادي
لم يكشِفوا حلكَ الدَّياجي بل حكَوْا
أُسْطـورةً ، ثـمَّ انشُـوا لـرُقـادِ

واتخذت الرُّباعيّات صورةً أُخرىٰ وهي أن تتألَّف من أربعة أبيات تتَّفِق في قافيةٍ واحدة . ومن شعرائنا المعاصرين من مارس هذا الضَّرْب من النَّظم ، وأتىٰ به في صور جميلة ومعانٍ سامية ، ونذكر منهم الشاعر محمد ضياء الدين الصابونيّ في ديوانه اللَّطيف « رُباعيّات من طيبة » ، ونقتطف منه الرُّباعيَّةَ الآتية :

يا من بُعثت إلىٰ العوالم رحمةً ومتمِّمـاً لمكـارم الأخـلاقِ
يـا مـن بـه زهـت العـوالـم كُلُّهـا قـد عـمَّ هـذا النّـور فـي الآفـاقِ
تهفو القلوبُ إليك من أشواقها يـا روضـة الآمـال والأشـواقِ
يا سيّد السادات يا علم الهُدىٰ أنـت الشَّفيـع لنـا لـدىٰ الخـلاّقِ

وعلىٰ هذا النسق ظهرت الخماسيّات والسُّداسيّات وما فوق ذلك ، فإذا القصيدة الواحدة منها تتألَّف من مجموعة مقاطع متساوية ينفرد كلُّ مقطع منها بقافية مستقلَّة عن بقية المقاطع ، ولكن ينتظمها جميعاً بحر واحد ، ونضرب مثلاً علىٰ ذلك قصيدتي « شكوىٰ وجواب شكوىٰ » لشاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال ، حيث يتجلّىٰ فيهما جانب من هذه الظاهرة النظميَّة ، فيقول في قصيدة شكوىٰ :

شكْواي أمْ نجْوَاي في هذا الدُّجىٰ ونجـوم ليلـي حُسَّـدي أم عُـوَّدي
أمسيت في الماضي أعيش كأنَّما قطع الزمان طريق أمسي من غدي
والطيـر صـادحـة علـىٰ أفنـائهـا تبكـي الـرُّبـىٰ بـأنينهـا المتَجـدِّدِ

قد طال تسهيدي وطال نشيدها ومدامعي كالطلِّ في الغصن النَّدِيِّ
فإلىٰ متى صمتي كأنِّي زهرة خرساء لم تُرزق براعة منشدِ

* * *

قيثارتي مُلِئتْ بأنّات الجوىٰ لابدَّ للمكبوت من فيضانِ
صعِدت إلىٰ شفتي بلابل مهجتي ليُبين عنها منطقي ولساني
أنا ما تعدَّيت القناعةَ والرّضا لكنّما هي قصّة الأشجانِ
أشكو وفي فميَ التراب وإنَّما أشكو مصاب الدِّين للديّانِ
يشكو لك اللهمّ قلب لم يعشْ إلا لحمد علاك في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا رَوْضاً وأزهاراً بغير شميم
والورد في الأكمام مجهول الشذىٰ لا يُرتجىٰ ورد بغير نسيمِ
بل كانت الأيام قبل وجودنا ليلاً لظالمها وللمظلومِ
لمَّا أطلَّ محمدٌ زكت الرُّبىٰ واخضرَّ في البُستان كلُّ هشيمِ
وأذاعت الفردوس مكنونَ الشّذىٰ فإذا الورىٰ في نضرةٍ ونعيم

نلاحظ كيف جاءت هذه المقاطع من قصيدة شكوىٰ خماسيَّة الأبيات ، وهناك السُّداسيّ والسُّباعيُّ كما تقدّمت الإشارة إليه وقد درج عليه طائفة من شعرائنا المعاصرين .

٣ـ المسمَّطات :

هي قصائد تتألَّف من أدوار ، وكلُّ دور يتركَّب من أربعة شطور أو أكثر ، وتتَّفق شطور كلِّ دور في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير ، فإنَّه

يستقلُّ بقافية مغايرة وفي الوقت نفسه يتَّحد فيها مع الشُّطور الأخيرة في الأدوار المختلفة . ويُسمّىٰ الشَّطر الأخير عمود المسمَّط ، لأنَّه قطبه الذي يدور عليه . وسُمّي هذا الضَّرْب : بالمسمَّط من السِّمط وهو قلادة تنظم فيها عدَّة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة .

وشاع المسمَّط في العصر العبّاسيِّ . وممَّن نظم فيه الشاعر أبو نواس في خمريّاته وغزليّاته . ويذهب الجاحظ إلىٰ أنَّ أقوىٰ الشُّعراء صناعةً له هو بِشر بن المعتمر ، وكان ينظمه مُخمّساً (أي يتكوَّن كلُّ دور من خمسة أشطار) . واشتُهر بنظم المخمَّس أيضاً الشاعر بشار بن بُرد . ويذهب آخرون إلى أنَّ امرأ القيس هو أوَّل من نظم في المسمَّط ، وينسبون إليه سمطيَّة تأخذ الصورة الآتية :

تـوهَّمـت مـن هنـدٍ معـالـم أطـلالِ عفاهنّ طولُ الدهر في الزَّمن الخالي
مرابع من هندٍ خلت ومصائف يصيح بمغناها صَدىً وعوازِف
وغيّرها هوج الرياح العواصفُ وكـلُّ مُسِـفٍّ ثـمّ آخـر رادفُ
بأسحمَ من نَوْءِ السِّماكين هطّالِ

ولكنَّ الصاغانيّ ينفي وجود المسمَّط في شعر امرىء القيس .

واستكثر الشعراء بعد ذلك من النَّظم بالمسمَّط ، وتناولوه في مواضيع مختلفة . ومن أمثلة المسمَّط المربَّع قول أحدهم :

قـد أقبـل نـورُ الهـادي مـن فيـض البـاري الهـادي
يهـدينـا لـلإسعـادِ ويُبيـد جميـع الأشـرارْ

* * *

بُهـداه بلغنـا الجـوزاءْ وركبنـا ظهـر العليـاءْ
وملكنـا حكـم الحَـدْبـاءْ وسبـرنـا بحـر الأنـوارْ

ومن أمثلة المسمّط المخمَّس قول الآخر :

شعَّ نور الإسلام من كلِّ صوبِ من جديدٍ به الحوادث تُنْبي
حيث من نوره انجلىٰ كلّ كرْبِ وتعالىٰ الدُّعاء من كلّ قلْبِ
ربّ رحماكَ ربِّ رحماكَ ربِّ

إنَّ دين الإسلام دين أُخوّهْ دين عزٍّ وسُؤددٍ وفُتُوَّهْ
دينُ عَدْلٍ ودين حقٍّ وقُوّهْ بسلاح الإيمان يلقى عدوَّهْ
ثمَّ يُرديهِ قبل طعن وضَرْبِ

٤ـ الموشَّحات :

هي ضرب من النَّظم الشِّعريِّ استكثر منه شعراء الأندلس ، بل إنَّ معظم آراء النُّقّاد تذهب إلى أنَّهم كانوا أوَّل من اخترعه ، والذي دعاهم إلى ذلك شيوع الغناء فيهم ، فاحتاجوا إلى نظم أشعارهم في أوزان تتساوَق مع النَّغم ، فابتكروا هذا الضرب من الشِّعر المقطع والنَّظم المقسَّم .

وأرجح الأقوال في تحديد زمن نشوئه :

أنَّه ظهر في الرُّبُع الأخير من القرن الثالث ، واختلفوا فيمن ابتكره من الشُّعراء ، فذهب ابن خلدون إلىٰ أنَّ المخترع له بجزيرة الأندلس مقدَّم بن معافر الفربريّ أحد شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانيّ . وذهب غيره إلى أنَّ المخترع له ابن عبد ربِّه صاحب كتاب « العقد الفريد » . وذهب ابن بسّام صاحب كتاب « الذخيرة . . » إلىٰ أنَّ صناعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها تمَّت علىٰ يد عبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، فما سُمعت إلاّ منه ، ولا أُخذت إلاّ عنه ، وذكر أيضاً : أنَّ أوَّل من صنع أوزان الموشّحات محمد بن محمود المقبريّ الضرير .

وسُمّي هذا الضّرْب من النَّظم بالموشَّح أخْذاً من الثوب الموشَّح ، وهو المزيَّن بالوَشْي ، أو أخْذاً من وشاح المرأة الذي يزيَّن بالجواهر والحجارة الكريمة ، ويُزركش بالألوان والحُليّ . وذلك لما تمتَّع به هذا اللّون من النَّظم من جمال الديباجة وطرافة الإيقاع وحسن الوزن وبديع الشَّكل .

ولقد تعدَّدت أوزان الموشَّحات وأشكالها حتّىٰ فاقت أوزان العروض المعروفة . لأنَّها وُضِعت بناءً على أصوات الموسيقا وأوزانها وتحقيقاً للحاجة إلىٰ الغناء الذي تتنوَّع أوزانه وإيقاعاته حتىٰ تفوق أوزان الشِّعر التي ابتكرها الخليل الفراهيديّ . وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في سفينته المشهورة : أنَّه اقتصر علىٰ إيراد موشّحات المتأخِّرين ، وأثبت من ذلك (٣٠٠) موشَّحٍ فيها (٣٥٠) لحناً .

وأمّا ما جاء علىٰ غير أوزان العرب فهو في نظرهم أحسن أنواعه وأجملها ، وهو كثير .

وهناك ضرب من التوشيح الملحون الذي لا يُراعىٰ فيه الإعراب ، وهو من اختراع أُدباء اليمن ، ويعتبرون اللَّحن فيه من صفات جَوْدته وعذوبته ، فحُكمه في ذلك حُكم الزّجل . ومن أمثلته : توشيح منسوب إلىٰ الأديب محمد بن حسين الكوكبانيّ اليمنيِّ ، أوَّله :

مـا لقلبـي لـم يـزَلْ عِشْقـو فنـونْ في هوى حال التثنِّي والمجونْ زيّ الغُصونْ

قـد فنـي صبـري وقـلَّ الاحتيـالْ

قـد قسـم قلبـي بـأسيـاف الجفـونْ وقسم لي الهوى تلك العيونْ رَيْب المنونْ

مـا حبـانـي بعـد ذا إلاّ مُحـالْ

أمثلة لأنواع من الموشّحات :

مثال(١) مقاطع من موشَّحة للشاعر لسان الدِّين بن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همىٰ ... يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حُلُما ... في الكرىٰ أو خلسة المختلسِ
إذ يقود الدهرُ أشتات المُنىٰ ... تنقُلُ الخَطْوَ علىٰ ما يرسمُ
زُمَراً بين فُرادىٰ وثُنىٰ ... مثلما يدعو الوفودَ الموسِمُ
والحيا قد جلَّلَ الرَّوْض سَنا ... فثغورُ الزهر عنه تبسِمُ
وروىٰ النُّعمانُ من ماء السّما ... كيف يروي مالكٌ عن أنسِ
فكساه الحسنُ ثوباً مُعْلَما ... يزدهي منه بأبهىٰ ملبَسِ

مثال(٢) مقاطع من موشَّحة للوزير أبي جعفر بن سعيد :

ذهَّبتْ شمسُ الأصيلِ
فضّة النَّهْرِ
أيُّ نهر كالمُدامَهْ
صيَّر الظلَّ فِدامَهْ
نسجته الريح لامَهْ
فهو كالعَضْب الصقيل .
حُفَّ بالزَّهْرِ .

مثال(٣) مقاطع من موشَّحة للشاعر ابن سناء المُلك :

كلِّلي

يا سحبُ تيجانَ الرُّبا

بالحلي

واجعلي

سوارها منعطف

الجَدْول

* * *

يا سما

فيك وفي الأرض نجومْ

ما

كُلّما

أغربتِ نجما أشرقتْ

أنجُما

وهي ما

تهطل إلا بالطِّلى

والدِّما .

obeikandl.com

مثال(٤) مقاطع من موشّحة للشيخ محيي الدِّين ابن العربي :

حقـائـق القُـرْب رؤيـة المُلْـكِ

وهـو حجـاب المهيمـنِ المَلْـكِ

إذا انجلـىٰ عنـك غيهـبُ النفـسِ

وهبَ عرفٌ من روضِهِ القُدِسيّ

فأنت ألحانْ بلا لحن

علىٰ الأوثانْ ولم تثنِ

٥ـ التخميس :

ونعني به هنا أن يأتي الشاعر بخمسة أشطار يكون الشطران الأخيران منها بيتاً من قصيدة مستقلّة لشاعر آخر ، ويجعل القافية في الأشطار الثلاثة الأولىٰ مثل قافية العروض في الشطر الأوّل من البيت الذي ضمَّنه ، وختم به الأشطار الخمسة ، وبهذا تكون الأشطار الأربعة ذات قافية واحدة ، وأمّا الشطر الأخير ، فتكون قافيته قافية القصيدة التي أُخذ منها ، ويمكننا فهم ذلك وتوضيحه في مقطعين من قصيدة تخميس لاميَّة ابن الورديّ لعبد الرحمن بن يحيىٰ الملاّح حيث يقول في أوّلها :

كـن مـن الله الـذي عـزَّ وجـلّ

أيّهـا الـلاهـي علـى أعلـىٰ وَجَـلْ

واستمـع قـولاً بـه ضَـرْب المثـلْ

اعتـــزل ذكـــرَ الأغـــانـــي والغَـــزَلْ

وقـــل الفَضْـــلَ وجـــانـــب مـــن هَـــزَلْ

امـحُ عـن قلبـي ولُبِّـي وَصَبـا
لا تُـذكِّـرْنـي شَمـالاً وصَبـا
وفتـاةً نحـوَهـا القلـب صَبـا
ودع الـذِّكـرىٰ لأيّـام الصِّبـا
فـلأيّـامِ الصِّبـا نجـمٌ أَفَـلْ

نلاحظ كيف ضمَّن الشاعر الملاّح المقطع الأوَّل بيتاً من قصيدة ابن الورديِّ وجعل قافية الأشطار الثلاثة الأُولىٰ تتَّفق مع قافية الشَّطر الأوَّل من بيت ابن الورديِّ ، وجعل ذلك البيت الذي ضمَّنه خاتمة كلِّ مقطع .

وهذا الضَّرْب من النَّظم شاع في الأزمنة المتأخِّرة ، ومارسه عدد كبير من الشعراء المعاصرين .

وقد يقع التخميس خالياً من التضمين كمخمَّسة ابن الساعاتي التي مدح بها الملك العزيز عثمان ، وقد استهلَّه بقوله :

خليليَّ مـن سعـد قفـا فتـأمَّـلا بقيَّـة مـا أضنـىٰ الفـراق وأنحـلا
وجسماً مقيماً بعد صبرٍ تُرحِّلا أما واللّمىٰ وجداً بساكنه الملا
لقد ضاع باع الصبر أن أتحمّلا

٦ـ التشطير :

هو من صناعة المتأخِّرين ، والمراد به هنا أن يعمد الشاعر إلىٰ قصيدة شاعر آخر ، فيضمنِّها أشطاراً في قصيدته ، وذلك أن يجعل البيت المضمَّن أحد شطريه في بيت والشَّطْر الآخر في البيت الذي يليه ، ثمَّ يخالف بين الأشطار في بقيَّة أبيات القصيدة . كما يتَّضح في المقطع الآتي من قصيدة تشطير بُردة البوصيري للباحث الإسلاميّ الأديب فضل الله الأنصاريّ :

(نبيُّنا الآمر الناهي فلا أحدٌ) يكـون فـي صِـدقـه لله فـي قسـمِ
حتىٰ ولم يخلُقِ الرّحمٰن من بشرٍ (أبرَّ في قولِ لا منه ولا نعمِ)
(هو الحبيب الذي تُرجىٰ شفاعته) يوم الزحامِ وكلُّ الناسِ في غُمَمِ
حتىٰ إذا غرِقوا بالخوف جيء به (لكلّ هولٍ من الأهوال مقتحمِ)
(دعا إلىٰ الله فالمستمسكون به) أنجىٰ الخلائقِ عند الله في ذممِ
هُـمُ بـأمـنٍ بـلا خـوفٍ لأنَّهَـمُ (مستمسكون بحبلٍ غير منفصمِ)

وهذا الضَّرْب من النَّظْم لم يكن معروفاً عند العرب قديماً ، ولكنْ ثمَّة نوع قريب منه ربّما كان أصْلاً له كان سائداً عندهم ، وهو الذي يسموّنه التمليط والممالطة ، وذلك أن يأتي شاعر بشطر بيت ، ثمَّ يأتي شاعر آخر بالشَّطْر الثاني . وهذا يكون في معرض المباراة في الشِّعر وإظهار القدرة الشعريَّة في المنازعة ؛ كالذي رواه أبو عمرو بن العلاء من أمر امرىء القيس عندما نازع التوءم جد قتادة بن الحارث ، فقال له : إن كنت شاعراً فملِّط لي أنصاف ما أقول فأجِزْها . فقال : نعم . فقال امرؤ القيس :

أحـارِ تـرىٰ بُـريقـاً هـبَّ وَهْنـا

فقال التوءم :

كنـار مجـوسَ تستعـر استعـارا

٧ـ الدوبيت :

وهو مثل الرُّباعيّ يتألَّف من أربعة أشطارٍ ، وكان معروفاً عند الفرس ينظمونه بلغتهم ، واسمه يتركَّب من كلمتين إحداهما فارسيَّة وهي (دو) ومعناها : (اثنان) ، والأُخرىٰ عربيَّة وهي (بيت) ، وسُمِّي بذلك لأنَّه لا يكون أكثر من بيتين . وعُرِف عند العرب بالرُّباعيِّ ، وقد تقدَّم معنا أنَّ

عمر الخيام كان ممن برعوا بهذا الفنِّ الشِّعريِّ عند الفُرْس ، ورُباعياته مشهورة تتألَّف من (٥٠٠) بيت تُرجمت إلىٰ لغات أجنبيَّة عِدَّة . واختلفوا في عهد نشأته عند العرب ، فرجَّح بعضهم شيوع هذا الضرب من النَّظم في العربيَّة في القرن السابع ، وذهبوا إلى أنَّ نشأته كانت في بغداد ، وانتشرت بعد ذلك في بلاد الشام ومصر وغيرهما .

وللدوبيت أوزان كثيرة أشهرها :

(فَعْلن متفاعلن فعولن فعِلن)

وأنواعه باعتبار قوافيه خمسة :

١ـ **الرُّباعيُّ المعرج** : ويُشترط في قوافيه أن يكون بين الثلاثة منها أو بين الأربعة جِناس تام ، مثال :

يا مَنْ بسنان رمحه قد طعنا ... والصارم من لحظه قطَّعنا
ارحم دَنِفاً في سنِّه قد طعنا ... في حُبِّك لا يصيبه قطُّ عنا

٢ـ **الرُّباعيُّ الخاص** : ويُشترط فيه أن يكون بين كلِّ قافيتين متقابلتين جناس تام ، مثال :

أهوىٰ رشاً بلحظه كلَّمنا ... رمزاً وبسيف لحظه كلَّمنا
لو كان من الغرام قد سلّمنا ... ما كان له بيده سلَّمنا

٣ـ **الرُّباعيُّ الممنطَق** : مثال :

قد قدَّ لمهجتي غرام ونَشَرْ ... والقلب مَلَكْ
من كان يراك قال ما أنت بَشَرْ ... بل أنت مَلَكْ

٤ـ **الرُّباعيُّ المرفَّل** : مثال :

بَدْرٌ إذا رأته شمسُ الأُفُقِ ... كُسِفت ورقىٰ في يوم أَحَدْ
عوّذتُ جمالَه بربِّ الفَلَقِ ... وبما خَلَقا من كُلِّ أَحَدْ

ولا يُشترط في هذين النَّوْعين الجناس في قوافيهما .

٥ـ الرُّباعيُّ المردوف : مثال :

يا مُرْسلاً للأنام جاهاً وحمىٰ هـا أنـت لنـا عـزّاً وهُـدىٰ
فـي أيِّ مَـدَدْ

يا أفضل مَنْ مشىٰ بأرضٍ وسما يـا شـافعنـا فـي الحَشْـرِ غـدا
غَـوْثـاً ومَـدَدْ

ويستحسن في هذا النوع التزام الجناس في قوافيه .

والنوع الذي تتَّفق أشطاره الأربعة في القافية يُسمّىٰ تامّاً . مثال :

للغـزو نشـاطـي وإليـه طـربـي مالي في العيش غيره من أربِ
بـالجدِّ وبـالجهـادِ نُجْـحُ الطَّلـبِ والـراحـةُ مستـودَعَـةٌ فـي التَّعـبِ

وأما الذي تتَّفق ثلاثة أشطار منه في القافية ، ويختلف عنها الشَّطْر ما قبل الأخير ، فيُسمّىٰ أعرج ، مثال قول ابن دمرتاش :

الصبُّ بك المنعوبُ والمنصوبُ والقلب بك المَلْسوب والمسلوبُ
يا من طلبتْ لحاظُه سفكَ دمي مهلاً ضعُف الطالبُ والمطلوبُ

الزَّجَل :

هو فنٌّ من فنون الشِّعر العامّيِّ ، شاع في أهل الأندلس إثر شيوع التوشيح فيهم . فهو منسوج علىٰ منواله ، نظمته العامَّة بلغتها الدارجة من غير نظر إلى إعراب . وأوَّل من ابتكره أبو بكر بن قزمان ، فكان فارس ميدانه وإمامه في زمانه . وخلفه فيه عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس ، الذي اعتنىٰ بصنعة ألفاظه حتى ذاع صيتُه ، وطارت به شهرته ، وذلك في القرن السادس . وفي أوَّل القرن السابع ظهر إماماً فيه

ابن جحدر الإشبيليُّ ، ثمَّ جاء من بعده أبو الحسن سهل بن مالك ، ثمَّ اتَّسع نطاق هذا الفنِّ حتىٰ انتقل الولعُ به إلىٰ المشارقة ، فانتشر في بلاد الشام ، وكان من أشهر فرسانه فيها علاء الدِّين بن مقاتل الحَمَوي ، واهتمَّ به المِصريّون ، وشاع فيهم ، واخترعوا منه نوعين سمَّوْهما البليقة والقرقيّة .

وكان من أشهر نوابغه فيه الغباريُّ الذي كان له أزجال بعيدة الشُّهْرة بما فيها من دقَّة الصنعة وإبداع المعاني وكثرة التفنُّن . وما يزال لهذا الفنِّ الشِّعريِّ شهرتُه . وتطوّر الأمر فيه إلى حدِّ المساجلات ، فصاروا يعقدون له المجالس ، ويتناولونه مع الإيقاع والضَّرْب علىٰ الدُّفِّ ونحوه . وتفنَّن المشارقة في الزَّجل ، وأكثروا من أوزانه حتىٰ قالوا : صاحب ألف وزن ليس بزجّال ، ولكنَّ المتأخِّرين ذهبوا إلىٰ أنَّه لم تبلغ أوزانه أكثر من خمسين وزناً .

ومن أمثلته :

١ـ زجل لابن العربيِّ أورد فيه ألفاظ الجواهر لأبي حامد الغزالي :

مطلع
يـا طـالـب التحقُّـق انظـــر وجـــودَكْ
تـرىٰ جميـع النـاس عبيـــد عبيـــدكْ

بيت
قعـدت فـي سـاحـل البحـــر الأخضـــرْ
أرمـت لـي أمـواجـه الـــدرّ الأزهـــرْ
فقلـــت : لا تفعـــل يـا قـوتـي الأصفـرْ

قفل
وارم فيـــه تطلـــع إلـــىٰ محيـــدكْ

٢ـ زجل غَزَليّ أورده ابن مبارك شاه في سفينته (وزنه مستفعلاتان) ومطلعه :

محبـــوبـــي يهنِّيـــك جمـــالُـــهْ وتملـك شيئيـن لغيـرك مـا تليـق
الله يهنِّيـــــــــــــــــك

مـا عـدت تقـرأ جـوى حـوىٰ درّ الحقـــــائـــــق
ولـــك عيـــون سيفيـــن جـــوا هـــــولا بـــــوارق
لكـن وحيـاتـك حـواليهـا طـوا رق لهـــا طـــوارق

٣ـ زجل لابن مقاتل يفتخر بالعاميَّة ، ويتحدّىٰ الفُصحىٰ ، يقول فيه :

كـم خصـم فـي المقـاتِـلْ صـابـوا ابـن مُقـاتِـلْ
وكـم ذا فـي المحـافِـلْ قـد انشـالـو جحـافِـلْ
مـن كـلِّ بيـت مـربَّـع ملحـون بـألـف معـربْ

٨ـ المواليا :

هو ضَرْب من الشِّعر العاميِّ الذي يُستحسن فيه اللَّحن ، له وزن واحد وأربع قوافٍ على رويٍّ واحد . اختُلف في نشأته ؛ فمنهم من جعلها في أواخر القرن الأوَّل للهجرة ، وذلك بعد ظهور الغناء وانتشاره ؛ لأنَّ معظم طبقات العامَّة لاتطرب للغناء في الشِّعر الفصيح . وذُكر أنَّ أوَّل من استحدثه ونطق به أهل واسط ، فذكر صفيُّ الدِّين الحلِّيُّ : أنَّهُ سُمّي بهذا الاسم لأنَّ الواسطيِّين لما اخترعوه ، وكان سهل التناول لِقصره تعلَّمه عبيدهم المتسلِّمون عمارة بساتينهم والفُعول والمعامرة والأبّارون ، فكانوا يُغنُّون به في رؤوس النَّخيل ، وعلىٰ سقي المياه ، ويقولون في آخر

كلِّ صوت مع الترنيم : « يا مواليا » إشارةً إلىٰ ساداتهم ، فغلب عليه هذا الاسم[1] .

ثمَّ انتقل هذا الفنُّ إلىٰ بغداد ، فاستعمله عامَّتهم ، ونظموه في ألوان مختلفة ومواضيع متعدِّدة . وذكر بعضهم أنَّ أصل نشأته يرجع إلىٰ حادثة البرامكة ، وذلك أنَّ هارون الرّشيد عندما أمر بقتل جعفر البرمكيِّ نهىٰ عن رثائه بشِعر ، فرثته جارية بهذا النوع من الشِّعر الملحون الذي لا يجري على أوزان الشِّعر المعروفة لتتَّقي بذلك نقمة الرَّشيد ، وجعلت تقول بعد كلِّ شطر : (يا مواليا) فعُرف هذا النوع به ، وتناقله الناس ، وكان الذي قالته في ذلك هو :

يـا دار ، أيـن ملـوك الأرض أيـن الفُـرْسْ
أيـن الـذيـن حمـوهـا بـالقنـا والتُّـرْسْ
قالت : نراهم رمم تحت الأراضي الدُّرْسْ
سكـوتْ بعـد الفصـاحـة ألسنتهـم خُـرْسْ

ثمَّ انتقل هذا الفنُّ إلىٰ بلاد الشام ، وشاع في أهلها ، ونظمه شعراؤهم ، ولحَّنه مغنُّوهم . وكان من فرسانه المبرِّزين ابن السُّويديِّ ، وممّا قاله فيه :

البـدرْ والسَّعْـد ذا شبْهـكْ وذا نجمَـكْ والقدْ والحُسْن ذا رمْحَكْ وذا سهمَكْ
والبغض والحبّ : ذا قسمي وذا قسمَكْ والمسكْ والحُسْنْ : ذا خالَكْ وذا عمَّكْ

واستخدمه الشُّعراء في مواضيع الغزل والمدح والهجاء ، ومنهم من نظمه في الزُّهْد كالشيخ رشيد الدِّين سعيد بن عليّ البُصْراوِيِّ ، ومما قال فيه :

---

(١) انظر « العاطل الحالي » للحليّ : ١٣٤ .

كيف اعتمدتَ علىٰ الدنيا وتجريبكْ أراك فُلْك تراها كيف تجري بكْ
ما زالت الخادعة تدنو فتُغري بكْ حتى رمتك بإبعادك وتغريبِكْ

٩ـ الكان كان :

وهو فرع من الزجل له وزن واحد وقافية واحدة يستعمل كثيراً في الوعظ والتألُّم ، مثال قول بعضهم :

ما ذقت عمري جرعة أمرَّ من طعم الهوىٰ
الله يصبِّرْ قلبي علىٰ الذي يهواه

١٠ـ القوما :

وهو أيضاً فرع من الزَّجَل ، وهو من اختراع البغداديِّين . قيل : كانوا يُنشدونه عند السُّحور في شهر رمضان ، كما يفعل المسحِّرون . وسُمّي بذلك من قول المُغنِّين : « قوما نسحِّر قوما » . وجعلوه علىٰ وزن هذه الكلمات الثلاث ، ثمَّ فرَّعوا منه فروعاً سمَّوْها الزهريَّ والخمريَّ وغيرهما تَبَعاً للمعاني التي ينظمون فيها .

ومن هذا النوع قول صفي الدِّين الحلِّيّ يسحِّر به بعض الخُلفاء :

لا زال سعدك جديدْ دائم وجدك سعيدْ
ولا برحت مُهَنّا بكلّ صوم وعيدْ
في الدَّهر أنت الفريدْ وفي صفاتك وحيدْ
والخلق شِعْرٌ منقَّح وأنت بيت القصيدْ

* * *

الإنشاد الدينيّ وآدابه

هو من أطيب وأكرم أنواع الإنشاد (الغناء) ، وذلك نظراً إلى سموِّ مقاصده وشرف معانيه وامتلائه بالبواعث الطاهرة التي تُحدِث في أعماق الإنسان انفعالاً وجدانيّاً سامياً وارتقاءً روحياً غامراً وتألُّقاً شعورياً كريماً ، يجعله ينجذب إلى طَوَفان الأنوار الإيمانية الهادية ، فيزداد من الله تعالىٰ قُرْباً ولرسول الله ﷺ حُبّاً ، وبالقيم الإسلاميَّة العظيمة تعلُّقاً ، وبالمبادىء الإنسانيَّة والمعاني الأخلاقيَّة الشريفة تمسُّكاً .

وإنِّي لأجد أنَّ هذا الضرب من الإنشاد هو وحده الذي ينطبق عليه كلام الأديب الكبير ابن عبد ربِّه في كتابه « العقد الفريد » حين قال :

« وقد يُتَوصَّل بالألحان الحِسان إلى خير الدنيا والآخرة ، فمِن ذلك أن يبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذبِّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يَبكي الرجل بها علىٰ خطيئته ، ويُرقِّق القلب من قسوته ، ويتذكَّر نعيم الملكوت ، ويمثله في ضميره . اهـ » .

وأستطيع أن أقول بناءً علىٰ هذا التمهيد : إنَّ الإنشاد الدينيَّ ذو رسالة هادفة عظيمة في واقع الحياة علىٰ طريق الدعوة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، فهو وسيلة ناجعة في تهذيب الأعماق وتحريك المشاعر وتأجيج العواطف نحو الحقِّ والخير والهداية والإيمان وعاملٌ قويٌّ من عوامل بعث الحماسة في العزائم الصادقة ، وإثارة الهمم لحمل أمانة الدِّين ونشره في العالمين .

وذلك لما تضمَّنته كلماته من المعاني الإسلاميَّة السامية ، ولما اشتملت عليه ألحانه من الانفعالات الوجدانيَّة المعبِّرة .

فاستحقَّ هذا الضرب من الإنشاد أن يحظىٰ بالعناية البالغة والاهتمام الكامل في حياة الدعاة إلىٰ الله وأهل الهداية والإيمان ؛ ليكون حافزاً على نشاط حركتهم ، وتأجيج بركان عواطفهم في مضمار الدعوة إلىٰ الله ، واستقامتهم علىٰ منهج طاعته وطريق عبادته .

ونظراً لسموِّه وشرفه وجب أن تكون وسائله وأدواته منسجمةً بصفاتها وخصالها وأجوائها مع أجوائه الطاهرة وصفاته العالية .

ومن أهمِّ وسائله : المنشد الذي يؤدِّيه ، والكلمات التي تهتزُّ بها حَنْجرته ، والآلة التي يضرب عليها ألحانه . وقد تقدَّم الحديث عن الأخيرين ، وبقي علينا أن نتحدّث عن المنشد وهو أهمُّ عناصر الإنشاد ، وفيه نقول :

ينبغي للمنشد أن يتحلَّىٰ بأربع خصال بها يكون عمق تأثيره في النفوس وإيتاء ثمرته يانعةً في القلوب وفلاحه ونجاحه في دنياه وفي أُخراه .

الخصلة الأُولىٰ :

أن يكون حسن الصوت عذب الحَنْجَرة ، تأنس الآذان بوقعه ، وتنجذب الأسماع إلىٰ لحنه ، وتلتذُّ القلوب بحلاوته ، وتنساق النفوس إلى طلاوته ، فيأسرها هواه وتعزف عن سواه .

وأمّا إذا كان قبيح الصوت تنفر منه الأسماع ، وتعرض عنه القلوب ، وتستوحش به النفوس ؛ فلا يليق به أن يمتطي صهوة الإنشاد في مجالس العباد ، ولا يصحُّ منه أن يقهر الناس على سماعه عندما يفرض نفسه عليهم في محافلهم ومنتدياتهم بل عليه أن يقف عند الحدِّ اللاَّئق به ، فلا يتجاوزه

إلى غيره ، ولقد جاء في المثل : رحم الله امرأً عرف حدَّه فوقف عنده .

فإن أراد الإنشاد لنفسه وليس معه غيره ، فلا ضير في ذلك ولا حرج عليه ؛ لأنَّ سماع صوته لا يتعدىٰ سواه ، والإنسان لا يضيق ذرعاً بقبيح ذاته قدر ما يضيق ذرعاً بقبيح غيره .

فمن تصدّىٰ لمنصب الإنشاد وهو لا يملك سوى صوت قبيح ونغمة نشاز فهذا مسيء حيث أنزل نفسه منزل غيرها ، ولم يولِ الناس احتراماً ولا تقديراً حيث أرهق أسماعهم وأتعب آذانهم وأملَّ نفوسهم وأوجع قلوبهم بما صبَّ عليهم من قبيح الصوت وموحش اللَّحن ، فشتّان بين من سمع الناس إنشاده فقالوا له : (هل من مزيد) ومن أنصتوا إلىٰ صوته وألحانه فقالوا له : أقصر ، وإيّاك أن تُعيد .

وخليق بمن لم يملك الصوت الحسن والإيقاع الرَّتيب والإنشاد الجيِّد والأداء الرشيد أن يفسح المجال في مجالس الناس لمن هو أهل لذلك ، ويؤثر الاستماع علىٰ الإسماع .

وأذكر في هذا المقام ما جرىٰ لي في أحد الأيَّام : إذ دعاني أحد الأصدقاء إلىٰ حضور حفلة زفاف أحد أبنائه ، فآثرت الحضور مبتغياً إدخال السرور على قلب العروس وأبيه ، ولما أخذت مكاني في قاعة الاحتفال ، وبدأت وقائع الحفل تجري علىٰ نسقها المعروف في مناسبات الأعراس من تلاوة القرآن وقراءة قصة المولد الشريف ؛ فوجئت بمنشد لم يعرف من الإنشاد اسماً ولا رسماً ، كان قبيح الصوت سيِّىء اللَّحن ، قد مزَّق الأنغام تمزيقاً ، وفرَّقها تفريقاً ، فلم يكن يُحسِن الانتقال بين الأنغام ، ولا يُجيد الإنشاد بما يؤثِّر في قلوب العباد ، بل كان يفري أسماع الناس فريَ الأديم ، فيُنهك غشاء الآذان بصُراخه ، ويتعب النفوس بقبح صوته ونشوز لحنه ، فكنت لا أجد له وصفاً أليق به من قول القائل :

منشـــد غنّـــىٰ فـــأزعجنـــا صـــوتـــه يـــا صـــاح أرهقنـــا
تتعـــب الأسمـــاع نغمتُـــه ليتَـــه مـــا كـــان أنشـــدنـــا
تحسـب الأحجـار فـي فمـه حينمـــا يشـــدو ليقـــذفنـــا
كـلُّ مـن أصغـىٰ إليـه غـدا فـي يـد الأوجـاع مـرتَهَنـا

ودُعيت مرَّةً إلىٰ حفلة عقد قران ، ففوجئت أيضاً بمنشدِين هتكوا وقار الإنشاد بقبيح أصواتهم وسوء ألحانهم ، فقد أرهقوا الأسماع ، وأتعبوا النفوس . حتىٰ بات الحاضرون ينتظرون لحظة انتهاء الاحتفال بفارغ الصبر ، لينصرفوا بعيداً عن ضجيج أولئك المنشدِين . وبعد انقضاء الاحتفال وانفضاض الناس أتيت إلى كبير تلك الفِرْقة الإنشاديَّة وبيَّنت له رأيي في أصواتهم وألحانهم ، فقال لي :

إنّنا أنشدنا بلا مكبِّرات للصوت ، فلو كان معنا أجهزةُ مكبراتٍ صوتيَّة لكانت أصواتنا أجمل وأوقع في الأسماع والنفوس .

فقلت في نفسي : عجباً لهؤلاء إذ يجعلون سبيل تحسين أصواتهم استعمال تلك الأجهزة الإذاعيَّة ، فإذا فقدوها عاد إلى أصواتهم قبحها وإلىٰ ألحانهم سوءها . هذا لعمري مخادعة مقيتة وتزييف بغيض وسخرية حمقاء . كيف يقبل قبيح الصوت من نفسه أن يتسنَّم مركب الإنشاد مستعيناً بهذه الأجهزة والوسائل التي ينكشف بفقدها عيب صوته وقبح لحنه ؟!

وإنِّي أقول : إنَّ جمال الصوت هبة من الله ، يُنمّىٰ ويزيد بالدُّرْبة وبتعاطي الوسائل والأسباب التي تنجع في زيادة حسنه . وأما من لم يملك صوتاً جميلاً من أصل خلقته ، فلن تغني عنه هذه المكبّرات الصوتيَّة شيئاً سوىٰ أن تغطِّي بضجيجها عيوب صوته ، ولكن لا تفلح في إسباغ الحُسْن علىٰ وقعه ولحنه ، فتبقىٰ القباحة فيه أصيلة والسوء في لحنه

كامِناً . فإذا ما تعطلت المكبِّرات الصوتيَّة وتوقَّفت عن العمل انكشف الزيف وظهر العيب وكثر الذامُّون وقلَّ المادحون . ومنشد المكبِّرات والآلات إذا لم يحظ بصوت جميل ولحن حسن عليه أن يُقلع عن ممارسة الإنشاد في محافل الناس ، وليقتصر بذلك على إسماع نفسه إن شاء الإنشاد ، وابتغىٰ سبيل الرشاد ، وتجنّب الإساءة إلىٰ العباد .

وكنَّا نسمع عن أحد العلماء أنَّه كان يقول إذا جلس مجلساً ، وأرادوا الإنشاد :

من كان له صوت جميل ولم ينشد لا نسامحه ، ومن كان له صوت قبيح وأنشد أيضاً لا نسامحه .

أقول : خير حال للمنشد أن يكون مطبوعاً حسن الصوت ، يخرج النغمة من حلقه كاملةً حسنة غير ناقصة ولا منقطعة ولا مستبشَعة ، فهو كما قال ابن سُريج عندما سُئل عن قول الناس فلان يُخطىء وفلان يصيب ، فأجاب : إذا كان المغنِّي يُشبع اللُّحون ، ويملأ الأنفاس ، ويعدل الأوزان ، ويُقيم الإعراب ، ويستوفي النُّغُم الطِّوال ، ويُحسِن مقاطع النُّغُم القصار ، ويُصيب مع ذلك أجناس الإيقاعات فذلك هو المصيب .

ومن قال : إنَّ الدُّرْبة تكفي في حسن الإنشاد إن أخذ المنشد بأسبابها ، وأحسن استخدامها ؛ نقول : هذا لا يستقيم إلاّ إذا ملك الصوت الجميل أو الصوت العاري من القباحة . أمّا من قبح صوته ، فلا سبيل له إلىٰ حسن الإنشاد مهما بلغ حذقه لأصول الأنغام وأوزان الألحان وطرائق الأداء . نعم هذه قد تقلِّل من قباحة صوته ، ولكن لا تكسبه الحسن والجمال .

الخصلة الثانية :

أن يكون وقوراً في إنشاده متَّزناً في وقوفه أو قعوده ، لا يستخدم من الحركات والإشارات إلاّ ما لا بدَّ منه للإفصاح عن الكلمات وإظهار النَّغمات ، وفيما سوىٰ ذلك عليه تجنُّب الإكثار منه لكي لا يصرف الأسماعَ عن صوته ونغماته بالنظر إلىٰ حركاته وإشاراته . ويحسُن أن أذكر هنا ما أورده الحسن بن أحمد بن عليٍّ الكاتب في كتابه « كمال أدب الغناء » حين قال :

(يُستحبُّ من المغنِّي أن لا يلوي شدقه ، ولا يعوج عنقه ، ولا ينحني ، ولا يتقاعس ، ولا يحرِّك بدنه أجمع ، ولا يتمايل ، ولا يشنج وجهه ، ولا يجهد نفسه حتى تنتفخ أوداجُه ، وتقوم عروقه ، وتزورّ عيناه ، ولا يتحرَّك البتَّة من جهة إلىٰ جهة ، فأمّا تغيُّر شكل شفتيه إلى حركات الإعراب التي هي الضمُّ والفتح والكسر فغير مكروه ما لم يفرط ؛ لأنَّه زائد في قُوَّة الحركات ووضوحها وتمامها ، والإفراط في حركات الكسر أقبح ما فيها وأسمجه ، وأحسن الإشارات ما كان بالعين والحاجب والكف والمناكب والرأس قليلاً .

وفي الناس من يستعمل من الإشارات ما رُبَّما أدهش وشغل عن تأمُّل الغناء حتىٰ تكاد الإشارة تختلط به ، وتكون كأنَّها منه ، فمتىٰ لم تجعل معه نقص ، وربما اجتزأ أحدهم بالإشارة عن استتمام النغم وتأدية اللَّحن ، خاصة في المقاطع ، وغالط بها وأدهش ، واعتقد قول القائل : رُبَّ إشارة أفصح من عبارة . وبخاصة إذا كان الحظُّ خفيفاً ، وهذا تمويه في الصناعة قبيح واستراحات تدلُّ علىٰ عِيٍّ) اهـ .

وفي مثل هذا المعنىٰ ذكر أبو الحسن محمد بن الحسن الطحّان في

كتابه « حاوي الفنون وسلوة المحزون » فقال :

(ولا يحسن بالمغنِّي أن يعوج شدقه ولا عنقه ، ولا ينحني ولا يتقاعس ، ولا يحرِّك يديه ولا رجليه ، ولا يتمايل ، ولا يشنِّج وجهه ، ولا يجهد نفسه حتىٰ تنتفخ أوداجه ، وتقوم عروقه ، وتزورَّ عيناه ، ولا يتحرّك البتّة من جهة إلىٰ جهة ، وقد كان أبو الفتح بن الحويلا يفعل ذلك ويزحف من صدر المجلس إلىٰ آخره ، وكان نصيرة البغداديُّ يحرِّك رأسه تحريكاً قبيحاً ، فلقَّبه المصريّون « الزاق » تشبيهاً بالحمام ، وكان محسن غلام منصور البكجوريّ بدمشق يصنع بوجهه أجناساً قبيحةً إذا غنّىٰ ، حتىٰ يفعل ذلك في الإعراب عند الضمَّة والفتحة والكسرة . اهـ) .

الخصلة الثالثة :

إنَّ الإنشاد الدينيَّ الذي يتضمَّن بياناً لمعالم الإسلام وحديثاً عن مآثره وذكراً لأخلاقه من خلال ذكر صفات الرسول الكريم ﷺ وبيان جوانب شخصيَّته وأخلاقه الطاهرة عبر سيرته المعطَّرة . وكذلك ذكر القرآن الذي أُنزل عليه والأنوار التي فاضت فيه فملأت حياته وحياة أصحابه ، ومن جاء بعدهم ممن سار على هديه ، يستوجب ذلك كلُّه أن يكون المنشد متحليّاً بصفات أهل العلم ، فيكون ذا فقه في الدِّين وفهم لأحكامه ومعرفةٍ لحلاله وحرامه ، كما يكون محسناً لتلاوة القرآن عالماً بأحكام تجويده وتفسيره ، وكذلك يعرف السنَّة الشريفة ولو طرفاً منها ليُقيمه هذا العلم والفقه علىٰ منهج الله ، فيجتنب المحرّمات ، ويبتعد عن المخالفات ، ويفرِّق بين الحقِّ والباطل والإيمان والضلال ، فيلزم الحقَّ سيرةً والإيمان سبيلاً ، فيكون واقعه بذلك منسجماً مع أجواء إنشاده وخصال مدائحه وابتهالاته .

وأما إذا تجرَّد من الوَعْي الإسلاميِّ ، فكان جاهلاً بالأحكام لا يعرف

الحلال من الحرام ، ولا يُحِسن شيئاً من القرآن ولا سنَّة النبيِّ العدنان ﷺ ؛ فسوف يسوقه ذلك إلى الوقوع في المخالفات وارتكاب الحماقات واجتراح السّيئات ، ويجعله جهله بدين الله يستبيح لنفسه ما حرَّم الله ، ويظن أنَّه من المحسنين وعباد الله المتَّقين ؛ فربَّما رأيتَه يجلس في مجالس الاختلاط ينشد للرجال والنساء ، وقد يكون في حضرته النِّساء السافرات ، فلا يُبالي بذلك ، ويقول : أنا أذكر الله ، وأُذكِّر به هؤلاء العباد ، ورُبَّما رأيته ينشد في مناجاة الله ومدح رسول الله الكريم ، ثمَّ يأتي بعد ذلك بوصلة غنائيَّةٍ ساقطة الكلمات فاسقة المعاني مائعة النغمات تضرب في ألحانها الآلات المحرَّمة والمعازف والأوتار المنكرة التي دعت نصوص الشَّرع الصريحة إلىٰ نبذها وأنكرت استعمالها ، ويحسب نفسه أنَّه في هذا كلِّه من المصلحين .

فلا ريب في أنَّ الفقه في الدِّين يحجز العبد عن الشرور والآثام ويُقصيه عن المخالفات ، فلقد جاء في الحديث قال ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين »[1] .

فإنِّي أنصح كلَّ من سلك طريق الإنشاد الإسلاميِّ أن يلزم مجالس علماء دين الله الحقِّ ، ليسمع منهم ، ويأخذ عنهم ، حتىٰ يستقيم علىٰ الطريقة الحسنة ؛ إذ لا يليق برسالة الإنشاد الدينيِّ التي هي ضرب من الدعوة والإرشاد إلىٰ منهج رب العباد أن يمارسها الجاهل بدين الله ، ويتصدّىٰ لمنصبها من فرغت جَعْبة قلبه وعقله وقوله وفعله من معارف الإسلام وأحكامه وآدابه وإرشاداته .

فمن استهان بهذا الأمر الجليل والواجب الخطير ، ولم يُعِره اهتماماً

---

(١) الرسالة المحمدية لسليمان الندوي .

ويُوله عنايةً ، فأعرض عن مجالس العلماء ، واستغنىٰ بالإنشاد عن الإرشاد ، وظنَّ أنَّ حفظه للمدائح والابتهالات ، وإغراقه في أدائها وألحانها في رياض الذِّكْر وعَبْر الاحتفالات بذكرىٰ المولد الشريف والأعراس وسائر المناسبات التي تنعقد في المساجد والزوايا وغيرها من الأماكن يُغنيه عن تعلُّم الدِّين ، ويكفيه زاداً إلىٰ لقاء ربِّ العالمين ، فهذا واللهِ ظنُّ الجاهلين ، وعليه أن يعلم علم اليقين أنَّه لا يفكُّ عنقه من المسؤوليَّة عن دينه ومنهج ربِّه يوم القيامة أنَّه أنشد في الدنيا بصوته الشجيِّ ولحنه النديِّ قصيدة مدحٍ للرسول الكريم أو ابتهالٍ لربِّ العالمين أشجت القلوب ، وأدمعت العيون ، وسمت النفوس عند سماعها عن الدنايا ، وارتقت بها الأرواح إلىٰ عالم الأنوار .

كما لا يحسبنَّ ثناء أهل العلم عليه إن أنشد فأحسن الإنشاد ، وأتى بجليل المعاني وبديع النغمات دليلاً على صلاحه وفوزه في الآخرة وفلاحه ، وينجيه يوم القيامة من أهوال السؤال وأخطار الحساب . لا والله لا ينفعه ذلك شيئاً ولو أتىٰ يوم القيامة بملء الأرض ثناءً ومدحاً ، حتى يعرض نفسه على كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، فإن وجد نفسه مستقيماً على نورهما ؛ نجا ، وإن انحرف عنهما ؛ كان من الخاسرين ، وفي ذلك قال ﷺ : « تركت فيكم شيئين لن تضلُّوا بعدهما كتابَ الله وسُنَّتي » .

فليتنبَّه المنشدون إلىٰ ذلك ، وليحذروا ، فلقد قال سبحانه في القرآن الكريم : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثِّر : ٣٨] . وقال جلّ في علاه : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

الخصلة الرابعة :

وأرىٰ أنَّها منبثقة من الخصلة الثالثة ، وهي أن يتحلّىٰ المنشد بالأخلاق الإنسانيَّة الرفيعة والسلوك الإسلاميِّ الكريم ، فلا يقع في الآفات التي تفسد الأخلاق ، ولا يركب الحرام ، ولا يجانب منهج الفضيلة ليسقط في أوحال الرذيلة ، وإنَّما يصون قلبه وعقله وفعله وجوارحه وكيانه كلّه عن المنكر والشرِّ والعصيان ، فإذا تحدَّث في إنشاده عن شمائل النبيِّ المصطفىٰ ﷺ وأخلاقه الشريفة وصفاته الكريمة حرَص علىٰ أن يكون واقعه في قوله وفعله وسلوكه في حياته منسجماً بطهره ونقائه واستقامته مع هَدْي رسول الله ﷺ في أخلاقه وسلوك حياته ، وهو يذكر قول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقوله ﷺ : « عليكم بسُنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ »[1] . وإذا ناجىٰ الله في ابتهالاته الإنشاديَّة وألحان صوته الشجيَّة ، عليه أن يكون في واقعه قريباً من الله ذا طاعةٍ وعبادةٍ وحال حسنةٍ مع ربِّه سبحانه ، وهو يذكر قول الله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

---

(١) رواه مسلم .

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

[الفرقان : ٦٣ـ٦٦] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] .

وبهذا يقع إنشاده من نفوس العباد موقعاً حسناً ، ويتجلّىٰ أثره عميقاً في قلوبهم ، ويتفاعل معه وجدانهم ، فيُقبلون عليه متأثّرين مستجيبين ؛ لأنَّ واقع حاله يجعل إنشاده بألحانه يخرج من أعماقه ، لينساب في أعماق المستمعين إليه ، فيترك أثره في قلوبهم بليغاً وفي نفوسهم عميقاً .

وأمّا المنشد الذي يقارف العصيان ، ويعزف عن طاعة الرحمن ، ويتهاون في ترك واجباته الدينيّة ، ويستمر بفعل الموبقات وملازمة الأوضاع الدنيّة ، فتراه ما إن ينتهي من الإنشاد الذي ذكّر به الناس بالله تعالىٰ وبخصال رسول الله ﷺ حتىٰ ينقلب حاله في مجلس آخر ، فإذا به يمارس فيه الغناء الفاحش واللّحن الساقط الذي يُثير كوامن الجنس في النفوس ، ويبعث في الأعماق حُبَّ الشهوات ، وينسىٰ به المستمع إليه ذكر الله ، ويغرق في ظلمة الأهواء وغياهب الشرِّ والعصيان .

ومن أقبح المنشدين إلىٰ جانب ذلك المنشدُ الذي إذا ذُكِّر لا يتذكَّر ، وإذا وُعِظ لا يتَّعظ ، ثمَّ تجده متقلِّب الأحوال بين الناس ، فإن جلس مع العلماء وأهل الحقِّ والإيمان جعل نفسه منهم عبر كلامه وتصرُّفاته ، وإن جلس مع أهل الدنايا والعصيان رأيته من خلال كلماته وأوضاعه وتصرُّفاته لا ينفكُّ عنهم ، وكأنَّه واحد منهم .

ومن أقبح المنشدين أيضاً ذلك المنشدُ الذي يُسيء الأدب في حضرة الأفاضل وفي مجالس الأكابر من أهل العلم والدِّين والصلاح ، فيُلقي

أمامهم ما لا يليق بمقامهم من الكلمات ، ويأتي بما لا يحسُن مع واقعهم ومنزلتهم من التصرُّفات ، ويحسب أنَّه بذلك قد أحسن صُنعاً ، فلا يستحقُّ عليه ذمّاً ولا ردعاً .

ومن الصفات الكريمة التي ينبغي للمنشد أن يتحلّىٰ بها ، ويتجنَّب أن يتَّصف بنقيضها : السكينة والوقار ، والهدوء والاتزان ، والتواضع وخفض الجناح ، والتلطُّف بمخاطبة الناس ، وحسبه أن يعلم أنَّ الله تعالىٰ خاطب أشرف خلقه وإمام أنبيائه ورسله محمداً ﷺ فقال :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحِجْر : ٨٨] .

وقال : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ . . . ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ومن أقبح الصفات وشرِّها على المنشد في حياته وفي معاده الكِبْرُ والغرور والحَسَد وازدراء الآخرين من إخوانه المنشدين .

أمّا الكِبْر ـ وهو احتقار الآخرين والتفاخر عليهم ـ فقد ذمَّه الله تعالىٰ ، وأعلن أنَّه من أخطر أدواء القلوب التي يبوء المصاب بها بالخسران المبين ، فقال جلَّ جلاله :

﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

[الزمر : ٧٢] .

وبيَّن أنَّه السبب الذي جعل إبليس يبوء بسخط الله ، ويكون من الملعونين ، ويستحقُّ أن يُرجَم إلىٰ يوم الدِّين ، فقال في محكم التنزيل :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١١ـ١٣] .

وذمّ رسول الله ﷺ الكِبْر والمتكبِّرين ، وحذَّر من سوء العاقبة التي تنتظرهم يوم الدِّين ، فقال ﷺ : « لا يدخل الجنَّة إنسان في قلبه مثقال حَبَّة من خرْدَلٍ من كِبْر »[1] ، وقال : « يُحشَرُ المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صُوَر الرِّجال ، يغشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكان ، فيُساقون إلىٰ سجنٍ في جهنَّم يُسمّىٰ بُولَسَ : يَصْلَون نار الأنيار ، يُسْقَون من عُصارة أهل النارِ طينةَ الخبال »[2] .

والغرور والعُجْب أصل الكِبْر وسبيل التفاخر والتعالي علىٰ النّاس . فمن أُعجب بغناه ساقه ذلك إل احتقار الفقراء ، ومن أُعجب بقوّته ساقه ذلك إلى ازدراء الضُّعفاء ، ومن أُعجب بجماله ساقه ذلك إلىٰ امتهان قِباح الخِلْقة من الناس ، ومن أُعجب بحسبه ونسبه ساقه ذلك إلىٰ إصغار من دونه في الحسب والجاه ، ومن أُعجب بحُسْن صوته ساقه ذلك إلىٰ إهانة من دونه في حُسْن الصوت وجمال الألحان .

ثمّ أجْرِ هذا الحكم على من أُعجب بعلمه أو بخطابته أو بكذا وكذا ممّا هو مادَّةٌ للعُجْب والغُرور من الصّفات والأحوال .

فمن حباه الله صوتاً جميلاً ولَحْناً عذباً وأداءً حسناً لِيلزمْ في ذلك خُلُق التواضع للآخرين من المنشدِين ، ولو كانوا أقلَّ منه في مبلغ الحسن والجمال ، فتواضعه يجعله : قريباً من الله وقريباً من نفوس الناس ، وأمّا العُجْب والتعالي فهما سبيل نُفرة القلوب من المُعجَب بنفسه المتعالي علىٰ غيره . وفي خُلُق التواضع معنى الشكر لله علىٰ ما تفضَّل به على عبده المنشد من نعمة جمال الصوت وحسن الأداء ، فيبارك له فيه ، ويزيده من

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم .

فضله لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وأمّا من فقد خصلة التواضع ووقع في براثن الغرور والكِبْر فإنَّه لن يَجْني بذلك إلاّ سَلْبَ النِّعمة وفقدان ما تفضَّل به الله عليه .

ويُستَثْنىٰ من ذلك الانتقادُ النزيه الذي يصدر من بعض المنشدين تُجاه بعضٍ في سبيل تحسين الأداء وتجنُّب الأغلاط وتطوير المعاني والألحان وتقديم الأفضل والأنفع والأولىٰ بالمقام ، ولا يبتغي المنتقدُ ذمّاً ولا كشفاً للعيوب ، وإنَّما يرجو النُّصح ابتغاء وجه الله الكريم . فهذا لا يدخل في صفات المغرورين المتكبِّرين إذا لزِم فيه المنتقدُ آداب الانتقاد ، وحسُنت نيَّتُه ، وأولىٰ المنتَقَدِين ما يستحقونه من التقدير والاحترام .

وأمّا الحسد فهو من أخطر العيوب النفسيَّة والعاهات القلبيَّة التي تفتك بالجماعات ، وتُحطِّم أواصر المودَّة في حياة الناس حتىٰ تذرها قاعاً صفصفاً قد ماتت فيها أزاهير المحبَّة ، وجفَّت في رياضها ينابيع الأُخوّة ، وتفشَّت في أرجائها البغضاء والفرقة ، وحلَّ فيها الوحشة والشقاء . لهذا ذم الله تعالىٰ الحسد وأمر بالتعوّذ به سبحانه من شرِّه فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق] .

وحذَّر رسول الله ﷺ من خطر الحسد وعقابيله الوخيمة التي ينتهي إليها الحاسد ، فقال : « إياكم والحسد فإنَّ الحسد ليأكلُ الحسنات كما تأكل النار الحطب »[1] . وقال : « لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه الطبراني ـ قال الهيثمي : ورجاله ثقات (مجمع الزوائد٨/ ٧٨) .

والحسد هو اعتراض على الله ومظهر من مظاهر الكفر بنِعَمِه .
وتفسيره : أنَّ الحاسد إذا رأى غيره قد فاز بنعمة من نعم الله عزَّ وجلَّ كالغنىٰ والعلم والجمال والجاه ونحو ذلك امتعض وتنغَّص ، وتمنّىٰ أن تزول هذه النعمة عن صاحبها . وهذا ما نشأ في نفس إبليس عندما أمر الله تعالىٰ ملائكته أن يسجدوا لآدم سجود تحيَّةٍ وتكريم ، فحسد إبليس آدم عليه السلام علىٰ ماأولاه الله سبحانه من هذا التكريم ، وقال بكلِّ وقاحة : ﴿أنا خير منه﴾ ، وتأبّىٰ علىٰ أمر الله ، فكان من الخاسرين ، فقال في ذلك ربُّنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وهو الداء الدَّفين الذي تأصَّل في نفوس اليهود ، وتشعَّبت شجرته الخبيثة في أعماقهم ، فدعاهم إلىٰ العدوان علىٰ أنبياء الله ورسله ومحاربة رسالاته وكتبه ، فقال سبحانه وتعالىٰ في ذلك :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ٥١ـ٥٥] .

فوجب علىٰ المسلم أن يتجنَّب الحسد ، ويعلن الرضا بما تفضَّل الله

عليه والقناعة بما قسم له من النِّعم ، فإن رأى صاحب نعمة دعا الله تعالىٰ له بأن يبارك له فيها ، ويسأل ربَّه مثلها إن شاء ذلك ، ويجب أن يخرج هذا الدعاء من أعماقه ، ليكون مشفوعاً بنيَّة صالحة وشكر لله تعالىٰ على ما تفضَّل علىٰ عباده ، وهذا ما علَّمنا إيَّاه رسول الله ﷺ ، وأدَّبنا به ، فلقد جاء في مسند الإمام أبي يعلىٰ : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأىٰ أحدُكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يُعجبُه فليدعُ له بالبركة ، فإنَّ العين حقٌّ »[1] .

والحسد لا ينشأ إلا من الكراهية والبغضاء ، وكفى بهما سبيلاً إلىٰ القضاء على الحبّ بين الناس وإبعادهم عن الإيمان وحسن المآب ، إذ قال ﷺ : « دبّ إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء ، وهي الحالقة ؛ حالقة الدين ، لا حالقة الشعر ، والذي نفس محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ألا أُنبِّئكم بشيء إذ فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم »[2] .

فمن أراد الجنَّة ومرضاة الله ربِّ العالمين ، فليتجنَّب الحسد ودواعيه ، وليحرص على توثيق رابطة المودَّة والمحبَّة بينه وبين سائر المؤمنين ، وليذكر في ظلِّ ذلك قوله ﷺ : « أوثق عُرىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله » .

والمؤمن الحقُّ هو الذي يتبرَّأ من الحسد وكلِّ الصفات الذميمة التي لا تليق بالإيمان ، ولا تنسجم مع أخلاق الإسلام ، ويتحلّىٰ بكريم الصفات وجميل الخصال من الحُبِّ والأُخوَّة والتواضع والتعاون والتآلف والتراحم والتسامح والإيثار .

فإذا رأىٰ أخاه المؤمنَ قد أحسن في باب من أبواب العمل الذي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ووافقه الذهبيُّ ، وأخرجه النَّسائيّ وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذيُّ وأحمد في المسند .

يستحقُّ عليه ثناءً من الخَلْق ورضاً من الحقِّ ، وتقدَّم به عليه ؛ دعا له بخير ، وسرَّه ما رآه منه كما لو كان هو من قام بهذا العمل ، ولم يحسده إلاّ حسدَ غِبْطة ، وهو أن يُحبَّ له ما تفضَّل الله به عليه ، ويتمنّىٰ لنفسه مثله .

فإن كان خطيباً مفوّهاً ومتحدِّثاً بليغاً ، فحدث أن التقىٰ في بعض المحافل مَن هو أبلغ منه خطبةً وأحسن منه حديثاً ؛ يجب ألا يحزنه ذلك ، ولا يثير حفيظته ، بل يشكر الله على ما تفضَّل به على أخيه ، ويدعو له بالتوفيق والسداد .

وإن كان منشداً آتاه الله من جمال الصوت وحُسْن اللَّحن وبَرَاعة الأداء ، ثمَّ التقىٰ من هو أجمل منه صوتاً وأعذب لحناً وأحسن أداءً ؛ وجب عليه أن يبتهج بأخيه الذي سبقه بذلك ، ويُثني عليه خيراً ، ويدعو له من أعماقه ، ولا يتأثَّرنَّ من ثناء الناس علىٰ أخيه بما تقدَّم به عليه بل يزيده ذلك فرحاً وسروراً .

وأخيراً أقول :

تجنَّبْ عِلَّةَ الحَسَدِ ... وعن أسبابها ابتعدِ
وكن منها على حذرٍ ... ففيها ميتة الكَمَدِ
ترىٰ الحُسّاد تأكلهم ... جحيم الحقد والنَّكَدِ
ويشقىٰ عيشهم أبداً ... فلا يحيون في رغدِ
ويومَ الحشر يأخذهم ... عذابُ الله في عمدِ
لأنَّ الله أبغضهم ... إذِ اعترضوا علىٰ الصمدِ
بما أعطىٰ فما شكروا ... وشبُّوا نار ذي الحَسَدِ
ألا ليت الحسود يرىٰ ... بعين الحقِّ والرَّشَدِ
ليعلم أنَّ في الحَسَدِ ... هلاكَ الحاسدِ الجَحِدِ

* * *

ملاحظات في
نقد الإنشاد الدينيّ المعاصر

لا تتحقَّق فائدة الإنشاد ، ولا يتجلّىٰ أثره البنّاء في الناس إلاّ إذا سلم من عيوب اللَّفظ والمعنىٰ والأداء ؛ لأنَّ اللَّفظة السليمة ذات المعنىٰ الكريم والأداء الحسن نور يضيء العقل ، ويرهف السمع ، ويُنير القلب ، ويزكي الشعور ، وينعش الروح . فالمنشد المؤثِّر هو الذي تحلّىٰ إنشاده بأنوار السلامة ، وبرِيء من ظلمات العيب . وهنا نريد أن ننبِّه إلىٰ العيوب والأخطاء التي يرتكبها المنشدون ، ويقعون فيها علىٰ صعيد اللَّفظ والمعنىٰ والأداء . وذلك ليتجنَّبوها أثناء إنشادهم حتى يحقِّقوا الغاية المرجوَّة منه ، فيكون تأثيرهم في النفوس عميقاً ، وانتفاع الناس بإنشادهم كبيراً .

فأمّا علىٰ صعيد اللَّفظ :

فإنَّ بعض المنشدين لا يكترثون لسلامة إعراب الكلمة التي ينطقون بها ، فيلحنون في كثير من الألفاظ ، ويخطئون في التلفُّظ بها أثناء إنشادهم ، ومن عجيب ما جرىٰ لي في تنبيه من لحن في كلمات الإنشاد أنَّني كنتُ في حفلة عرس ، وكان هناك منشد يُنشِد قصائده في مدح الرسول الكريم ﷺ ، فكان ذلك المنشد يُخطىء نحويّاً في ألفاظ القصيدة التي ينشدها ، فيرفع المنصوب ، وينصب المرفوع ، فقلت لأحد

الحاضرين : لا يليق بالمنشد أن يقع في مثل هذا اللَّحن . فقال لي بكلِّ شدَّة : ليس على المطرب أن يُعرِب .

فقلت له : ما هذا الضلال الذي تقول؟ متى كان التفلُّت من قواعد اللُّغة والخروج عن ضوابطها وقوانينها المحكمة سبيلاً إلى تحقيق اللَّحن الجميل والإنشاد البديع؟ يجب عليك أن تعلم يا هذا أنَّ اللَّحن في اللُّغة من أقبح مظاهر إفسادها ، وذلك لما يترتَّب عليه من تغيير للمعنىٰ وإفساد للمراد ؛ فأنتَ إذا قلت : (أكرمَ أبي الضيفَ) دلَّ ذلك علىٰ أنَّ الذي قام بالإكرام هو أبوك والذي وقع عليه الإكرام هو الضيف . وإذا رفعت لفظة الضيف ، فقلت : (أكرم أبي الضيفُ) دلَّ ذلك علىٰ أنَّ الذي قام بالإكرام هو الضيف والذي وقع عليه الإكرام هو أبوك . ولا يخفىٰ عليك في ذلك مدىٰ الاختلاف بين المعنيين ، وهذا ما أثار أحد خلفاء المسلمين عندما سمع مؤذِّناً يقول : (أشهد أن محمداً رسولَ الله) ، فنصب كلمة (رسول) وحقّها الرفع ، فقال له الخليفة : ويحك ما بال رسول الله . لأنّ الكلام بنصب (رسول) لا يكون قد اكتمل حيث تحتاج (أنَّ) إلى الخبر ، وبنصب لفظة (رسول) لا يكون الخبر قد أتىٰ فلا يتمُّ المعنىٰ ، والصواب أن يرفع المؤذِّن لفظة (رسول) حتى يتمَّ المعنىٰ ، إذ برفعها تكون (أنَّ) قد أخذت خبرها .

ومثل هذا ما ورد أنَّ قارئاً قرأ : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة : ٣] . فكسر لفظة (رسولهِ) ، فثار عليه أحد الأئمَّة ، وذلك للخطأ الفادح الذي ارتكبه إذ بكسره لفظة رسولِه أصبح المعنى : (أنَّ الله بريء من المشركين وبريء من رسوله) ، ولا يخفىٰ علىٰ أحد مدى الفساد الذي يصاب به معنىٰ الآية بسبب هذا الكسر . والصواب ضمُّ كلمة رسوله إذ لا يستقيم المعنىٰ دونه . ويصبح تفسير الآية : أنَّ الله بريء من المشركين ورسولُه بريء من المشركين . فيجب علىٰ المنشد أن يتجنَّب

الخطأ الإعرابيَّ واللَّحن اللُّغويَّ حين ينطق بالكلمة ، ليسلم المعنىٰ المراد والمفهوم المستفاد من الأبيات التي ينشدها والعبارات التي يُردِّدها . ولا ريب في أنَّ وضوح المعنىٰ في ذهن المستمع يزيد من تأثُّره بالألحان واستجابته لبراعة الإنشاد بخلاف ما لو التَبَس المعنىٰ عليه ، واقتصر في تأثُّره على النغمات وعذوبة الأصوات .

ومن قال : (ليس علىٰ المطرب أن يُعرِب) ، ودعا إلىٰ إباحة اللَّحن اللغويِّ للمنشدين فقوله باطل ورأيه ساقط ودعوته مرفوضة إلاّ في الشِّعر العاميِّ ، فهذه المقولة لا تؤخذ علىٰ إطلاقها ، وإنّما تصدق علىٰ الأشعار التي تصاغ باللُّغة الدارجة وبالأساليب العاميَّة ، وهي ليست مقصودنا في اعتراضنا هنا .

ويدخل في معترك هذا الانتقاد أن يتعاطىٰ المنشد القصائد التي قامت في أساس صياغتها علىٰ اللَّحن اللُّغويِّ والخطأ الإعرابيِّ ، فمن الأفضل أن يتجنَّب قراءتها في إنشاده بالخطأ الذي ابتُليت به ، ويحرص علىٰ إصلاح ذلك الخطأ بنفسه إن استطاع أو بالاستعانة بأهل اللُّغة والأدب الذين يملكون القدرة على تقويم ذلك الخطأ وتنقية تلك القصائد من وبائه ، ونذكر من هذه القصائد المصابة بعلَّة اللَّحن اللُّغويِّ وعاهة الخطأ الإعرابيِّ والتي تفتقر إلىٰ إصلاح وتقويم : قصيدة عنوانها (اجعل زمانك كلَّه أفراح) ، وفيها يقول صاحبها :

إنَّ الصـــلاة عليـــه نـــورا تمـــلأ القلـــب ســـرورا
وهـي تشـرح لنـا الصـدورا وهـــي سفينـــة النجـــاحْ

وفي نصب (نورا) خطأ نَحْويّ ، والصواب أن يقول (نور) بالرفع لأنَّه خبر (إنَّ) ، ويمكن تقويمها هكذا :

اتـلُ الصـلاة عليـه نـورا تمـــلأ القلـــب ســـرورا

ونذكر إلى جانب ذلك تلك القصائد التي اختلَّ وزنها ، وفسد نظمها ، وهي كثيرة إذ يتناولها المنشدون في إنشادهم ، ويُخضِعون إليها ألحانهم ، فيُرهِقهم ذلك ، ويُضطَرُّون إلىٰ إشباع أحرف كلماتها أو خطفها حتى تتَّسق مع الأنغام ، وتستقيم الألحان في الأسماع . والأولىٰ بهم أن يصحِّحوا وزنها قبل إنشادهم ، لأنَّ في سلامة الوزن عوناً للمنشد علىٰ صوغ الألحان بكامل اليسر والسهولة .

ونذكر من أمثلة ذلك قصيدة بعنوان (سبحان من أسرىٰ به) وهي كما ينشدها المنشدون هكذا :

سبحان من أسرىٰ به ليلاً إلىٰ ... سبع السموات الطباق
فرأىٰ عجائب أدهشت كلّ الملا ... وعلا علىٰ ظهر البراق
صلّوا علىٰ طه الحبيب محمد ... والآل والصحب الكرامْ
ما صاحَ في الأفراح كلُّ مغرِّدٍ ... فوق الغصون على الدوامْ

والمتأمِّل في هذه الأبيات يجدها مصابة بخلل في وزنها ، والصواب في صياغتها العروضيَّة أن تصبح كما يأتي :

سبحان من أسرى به ... ليلاً إلى السبع الطِّباقْ
فرأى عجائب أدهشت ... كلَّ الملا وعلىٰ البراقْ
صلُّوا علىٰ طه الحبيبْ ... والآلِ والصحب الكرامْ
ما صاح كلُّ مغرِّدٍ ... فوق الغصون على الدوامْ

وهناك قصيدة أخرىٰ بعنوان (فنحن عُشّاق الرسول كلُّنا) ينشدها المنشدون هكذا :

فنحن عُشّاق الرسولْ كُلّنا ... فرحنا به وهو أفرح بنا
بتذكاره نجثو فوق الرُّكبْ ... وحين الميلادِ يقومُ جمعنا

وهـــذا أوانٌ يجـــاب الـــدعـــاء لمن يرتجي من مجيب الدُّعاءْ
إلهـــي تصـــدَّق علينـــا جميـــع تفضّـــل علينـــا أنلنـــا السّعـــا
ومـــن كـــلِّ خيـــرٍ إلهـــي أعطنـــا وشفِّعْـــهُ فينـــا ولا تخـــزِنـــا
بجنّـــات عـــدنٍ بمقعـــد صِـــدْق إلهـــي بطْـــه يـــدوم جمعُنـــا
وآمنـــةُ الفضـــل قـــالـــت : بـــدا الطـــائـــر الأبيـــض قـــد وحـــدا
ومـــرَّ بجنحـــه علـــى ظهـــري فـــوضعـــت رســـول الله أحمـــدا

وأبيات هذه القصيدة من بحر المتقارب ولكنها مضطربة الوزن جدّاً ، ولا يكاد يسلم منها بيت واحد ، وتقويمها يحتاج إلى تغيير كبير في صياغتها وكلماتها . ونلاحظ كيف يحرص منشدوها على تسكين أواخر بعض الكلمات ، ليتمكّنوا من تحقيق اللّحن المقصود والإيقاع المنشود ، وإذا قمنا بتحليل أحد أبياتها عروضيّاً ؛ أدركنا وجود هذا الخلل في الوزن ، ولنجر التحليل في البيت الأوّل منها ، وإليك تفصيل ذلك :

البيت :

فنحـــن عُشَّـــاق الـــرســـول كلُّنـــا فـــرحنـــا بـــه وهـــو أفـــرح بنـــا

التحليل العروضي :

فنحن	عششا	قر رسو	ل كللنا
//٥/	/٥/٥	/٥//٥	//٥//٥
فعول	فعْلن	فاعلن	مفاعلن

فرحنا	بهي و	هو أفـــ	ـرح بنا
//٥/٥	//٥/	///٥	/٥//٥
فعولن	فعول	فعلن	فاعلن

لا يختلف اثنان في أنَّ هذا البيت تداخل في وزنه بحران هما (المتقارب) و (المتدارك) فوزنه مزيج من تفعيلات هذين البحرين ، وهذا مخالف لقواعد النظم الشعريِّ وقوانين علم العروض . وقِسْ علىٰ ذلك سائر أبيات القصيدة ، فالعلَّة واحدة في الجميع .

وأما علىٰ صعيد المعنىٰ :

فثمَّة مجموعة من قصائد المديح والابتهال التي يتعاطاها المنشدون ، ويردِّدونها في مجالس الذِّكر والاحتفالات الدينيَّة وغيرها من المناسبات تتضمَّن خَللاً في معانيها ، والأنفع للمسلمين المستمعين إلىٰ إنشادها الإعراض عنها أو تعديل معانيها بما يستقيم مع هدي الإسلام في قيمه ومعانيه وعقائده . ويمكننا أن نقسم الخلل في هذه القصائد إلىٰ الأقسام الآتية :

١ـ في العقيدة :

يتناول المنشدون في إنشادهم طائفة من القصائد التي تثير ملاحظات في العقيدة ، ويترتَّب على شيوعها وانتشارها وإصغاء الناس إليها وحفظهم لها فساد بعض تصوُّرات العقيدة في أذهان العامة الذين لا يحسنون حمل ظاهر معناها علىٰ ما يليق بالعقيدة الإسلاميَّة الصحيحة ، فيفهمونها فهماً مغايراً للتصوُّر العقديِّ السليم . وهذا أمر خطير ؛ لأنَّ سلامة العقيدة أهمُّ شيءٍ في إيمان المسلم . فمثل هذا الضرب من القصائد يجب تعديله بما يتناسب مع تصوُّرات الإيمان الحقِّ أو الأعراض عنه ، إلى ما هو لائق ومحقِّق لسلامة العقيدة الإسلاميَّة في قلوب الناس .

ومن هذا الضرب الإنشاديِّ القصائد التي تتحدَّث عن الذات الإلهيَّة ، فتُوهم صياغتها الظاهرة التعدُّد ، وهو كما نعلم مستحيل على الله تعالىٰ إذ تجب له الوحدانيَّة . ومن هذه القصائد ما يكثر ترداده وإنشاده في مجالس الذكر والصلاة على النبيِّ ﷺ نحو قصيدة مطلعها :

وما في الوجود سوىٰ واحدٍ ولكـــن تكثَّـــر لمّـــا صفـــا

وأهل التصُّوف يقولون : إنَّهم يؤوّلون هذا البيت بما لا يتعارض مع وحدانيَّة الله تعالىٰ وأصول العقيدة الإسلاميَّة .

غير أنَّ هذا التأويل لا يوجد إلاّ في أذهانهم هم ، وأمّا عامة الناس فلا يعلمون منه شيئاً ، فكان من الواجب الشرعيِّ في سبيل الحفاظ علىٰ سلامة عقيدة العامَّة أن نجنِّب الناس سماع أمثال هذه القصائد ، ونصرفهم إلىٰ سماع ما يتناسب مع قوَّة فهمهم وحدود إدراكهم .

ومن هذا الضَّرْب أيضاً القصائد التي تنسب إلىٰ الله كلاماً لم يرد نصّاً في القرآن ولا في الحديث القدسيِّ ، ولا جاء معناه فيهما ، فيقول صاحب القصيدة : قال الله أو يقول الله ، ثمَّ يذكر كلاماً يرقِّق به القلوب ، ويُدمع معناه العيون ، ويُثير في أعماق الإنسان ارتقاءً روحيّاً ومعنىً إيمانيّاً ينسبه إلىٰ الله تعالىٰ ، وما هو في الحقيقة إلاّ من وَحْي أشعاره وبنات أفكاره وجانب تأثُّره وجذوة عاطفته .

ومن هذا الضَّرْب أيضاً القصائد التي لا تليق بحقِّ الأنبياء والمرسلين ، وفيها سوء أدب معهم نحو موشَّح « الغصن إذا رآك مقبل سجدا » ، حيث يقول فيه صاحبه :

لو شاهد نوح دمع عيني غرقا أو عاين لَوْعتي الخليل احترقا
أو حُمِّلت الجبال ما أحمله صارت دكّاً وخَرَّ موسىٰ صَعِقا

ولا يخفىٰ علىٰ أحد ما في هذين البيتين من سوء أدب مع الأنبياء ؛ فلقد أراد الشاعر أن يعبِّر عن فَيْض عينه بالدمع وشدَّة لوعته وحُرْقة شوقه إلىٰ أحبابه ، فلم يجد أمامه إلاّ أن يُغرِق سيّدَنا نوحاً ، ويحرِق خليل الله إبراهيم عليهما السلام ، ويجعل ما يحمله من لواعج الشَّوق بمنزلة تجلِّي الله تعالىٰ للجبل .

أقول : هذا لا يليق بحقِّ الله تعالىٰ ، ولا بحقِّ أنبيائه ورُسُله ، وكان بإمكان الشاعر أن يعبِّر عن هذه المعاني بأشياء أخرىٰ بعيداً عن حرمة الله تعالىٰ وحرمة رُسُلِه .

ومن هذا الضَّرْب أيضاً القصائد التي تُسبِغ علىٰ رسول الله ﷺ صفات الله ، وما لا يجوز أن يتَّصف به سواه كالمغالاة في التوسُّل والاستغاثة إلى حدٍّ يَخرج عن تصوُّرات العقيدة الصحيحة وعن حدود الأدب مع الله ورسوله .

ومن هذا القبيل مبالغة أحدهم في مدح الرسول الكريم ﷺ إلى حدِّ قوله : أنَّ الله جعل ملكه بين يدَيْ رسول الله ﷺ يتصرَّف به كما يشاء ، وأمّا نصُّ قوله في ذلك فهو :

ونـاداه المهيمـن يـا حبيبـي هلُـمَّ لـوصلنـا ولـك الهنـاءُ
خزائن رحمتي ونعيم ملكي بحكمك فاقضِ فيها ما تشاءُ

ولا ريب في أنَّ هذا القول يتعارض مع قوله تعالىٰ :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

ومع آيات العتاب ، وهي في أكثر من موطن في كتاب الله كقوله تعالىٰ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣] .

وقوله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال : ٦٧] . فلو كان الأمر بحكمه يقضي فيه ما يشاء لما عاتبه الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات ولما قال له : « ليس لك من الأمر شيء » .

ومن هذا أيضاً قول أحدهم في الرسول عليه الصلاة والسلام :

فإنَّك سرُّ الكون قبل وجوده ولا أحد إلاّ به هو يعلمُ

وذهب بعضهم إلى تأويل هذا الكلام بما يتناسب مع تصوُّرات العقيدة الإسلاميَّة وهو أمر محمود ، ولكن إيثاراً لسلامة عقيدةِ العامّة ومراعاةً لمستوىٰ وَعْيها وإدراكها للمعاني الأولىٰ بنا تجنُّب إنشاد القصائد التي تحتاج إلىٰ تأويل .

٢ـ في الأدب مع رسول الله ﷺ :

أفردتُ هذه الفِقْرة عمّا قبلها ، وإن كانت متفرِّعةً عنها ، وذلك لشدَّة أهمِّيَّتها بسبب القصائد الكثيرة التي ترد فيها ، ونظراً لكون الحديث عن رسول الله محمد ﷺ هو الأكثر شيوعاً في قصائد المديح التي تُنشَد في الاحتفال بذكرىٰ مولده ﷺ . ولقد تمادىٰ كثير من الشُّعراء الناظمين لقصائد المديح ، فتجاوزوا من حيث لا يشعرون حدود الأدب مع رسول الله ﷺ ، وذلك عندما أسبغوا عليه أوصافاً لا تليق بحقِّه الشَّريف ، وهم يحسبون أنَّهم قد أحسنوا صُنعاً . نذكر من ذلك تلك القصائد التي أسبغوا فيها علىٰ رسول الله أوصاف النِّساء كرشاقة القدِّ والدّلال والرمي باللَّحظ ووصفه بالظبي والغزال وغير ذلك مما لا يليق إلاّ بالنِّساء . مثال ذلك قصيدة مطلعها : « أحمد يا رشيق القدِّ » ، حيث يقول فيها صاحبها :

أحمد يا رشيق القدِّ حُسْنك سباني

يلّـي حسنـك مـا لـه حـدّ فـــرد وحـــدانـــي
واصلنـــي لأشـــمَّ الـــورد روح الـــــريحـــــانِ

وقصيدة مطلعها (رأيت ظبياً) حيث يقول فيها قائلها :

رأيـت ظبيـاً علـىٰ كثيـب شبيـــه بـــدرٍ إذا تـــلالا
فقلـت مـا الاسـم قـال نـور فقلـت صلنـي قـال تعـالـىٰ

ثمَّ يتابع حديثه عن رسول الله ﷺ . وهذه القصيدة إحدى قصائد الغزل التي تصف محاسن النِّساء ، وهي هنا تغزُّل بامرأة ، ومن رجع إلىٰ مصدر تلك القصيدة وجد نصَّ البيت الثاني منها هكذا :

فقلت ما الاسم قال لولو فقلـت صلنـي قـال تعـالـىٰ

فغيَّر المنشدون لفظة (لولو) ، وجعلوا مكانها (نور) وعَنَوا به رسول الله ﷺ كما تشير إلىٰ ذلك بقيَّة أبيات القصيدة ، وظنُّوا أنَّها أصبحت لائقة بمقامه ﷺ ، ولكن غفلوا عن لفظة الظبي التي بقيت في القصيدة وفي ظاهرها تشبيه رسول الله به ، وهو أشرف الخلق وسيِّد الكائنات ، فماذا يقول المؤوِّلون؟!

ولا مرية في أنَّ من أقبح صور الإهانة للنبيِّ ﷺ أن يشبّه بالظبي أو الغزال ؛ بل أقول : هذا انتهاك سافر لحرمة قدر رسول الله ﷺ إن حسُنت نيَّة القائل أو المنشد ، وأمَّا إن ساءت فالجُرم أكبر .

٣ـ في الأخبار الواهية والأحاديث المكذوبة :

ومثل هذا كثير في قصائد المديح التي يتناولها المنشدون في المولد والأفراح الإسلاميَّة . ومن خطر البلاء فيها أنَّها لكثرة تداول إنشادها في المناسبات أصبحت في نظر الناس كأنَّها حقٌّ لا مرية فيه . ونذكر من ذلك

ما جاء في مولد عُرِف بمولد النُّور ، وهو مجموعة قصائد وأحاديث مليئة بالخُرافات والضعيف والموضوع ؛ منها (حديث الثعبان) الذي ـ كما تقول القصيدة في هذا المولد ـ هو أحد أبناء ملوك الجانِّ الذين كانوا علىٰ عهد سيِّدنا إبراهيم عليه السلام ، وقد علم برسول الله ﷺ وآمن به قبل مبعثه ، وإليك نصَّ هذه القصَّة كما جاءت في ذلك المولد منظومة بالعاميّة المصريَّة حيث يقول منشدها :

ومشىٰ الغدّارْ (يعني أبا جهل) وَيَّ الأشـــرارْ علىٰ أرض الشامْ
عينيـــه الاتنيـــنْ بتـولَّـع نـارْ سلم يا سلامْ
فـي طـريقـه هنـاكْ مـا بيـن جبليـنْ أَبلـو ثعبـانْ
كـان شكلـو فظيـعْ ومخيف ومريعْ هـذا الثعبـانْ
شـافـت الثعبـانْ نـاقـة أبـو جهـلْ اضطرب في الحالْ
وقـع الملعـونْ من ظهر الناقه لكـن مـا زالْ
مـربـوط بـالنـاقـه وحبـل النـاقـه مسك برجليه
والنـاقـة بتجـري بقلب الصحرا بتـرفـع بـهْ
يصـرخ يتـألّـمْ ولا فيـش حـد أخـذ بـإديـهْ
ومـرَّ ركـب الهـادي مـن نفـس هـذا الـوادي
ومـرّ بـالثعبـان لكنَّـهْ فـي المـره دي
سـاعـة مـا شـاف الهـادي نـوّر فـي أرض الـوادي
ونـور جمـالـه بـان نـادى حبيـب الله
الله عليـك الله صبـرت بستنّـاكْ
أنـا أصلـي مـش ثعبـان أنـا ابـن ملـك الجـان

وآمنـــت بـــالـــديّـــان مـــن عهـــد إبـــراهيـــم
ونـــاديـــت : خليـــل الله اشفـــع لـــي عنـــد الله
آلـــيّ شفيـــع النـــاس هـــو ابـــن عبـــد الله

أقول : لا ريب في أنَّ هذه القصَّة بالغة في الاختلاق والبعد عن الصحيح الوارد في سيرة النبيِّ ﷺ .

ومن هذا الكذب الذي وقع فيه بعض المنشدين ، وآزروا به الشعراء المغرضين قصيدة يقول فيها المنشد حين يُنشدها :

مكتـوب علىٰ بـاب الحـرم سطْـرَيْـن مـن الـذَّهـبِ
حمَّـــالـــة الـــورد لا حمَّـــالـــة الحَطَـــبِ

وإذا ذهبنا جميعاً إلىٰ الحرمين الشريفين ، وبحثنا في أبوابهما القديمة والحديثة ، وتأمَّلنا ، ودقَّقنا ، وحقَّقنا ، وأمعنا النَّظر فيها طويلاً ، فلن نجد شيئاً من هذا الهراء مكتوباً علىٰ أيِّ باب من أبوابهما ، وإنَّما هو من كذب الشُّعراء وضلال المنشدين .

٤ـ في القصائد ذات المعاني الساقطة والمضامين الماجنة ووصف اللَّهو كالشّراب والقدود والنِّساء والعشق والغرام وخيال الحبيب ونحو ذلك من المعاني التي لا تليق بمقام المولد الشريف ومديح الرسول الكريم ﷺ وأجواء الإيمان والهداية والأخلاق والفضائل ، ويكثر مثل هذا الضرب في الموشَّحات والقدود . ونذكر من أمثلة ذلك موشَّحةً بعنوان (زارني باهي الجمال) ، ونصُّها :

زارني باهي الجمال وحي الوصال وسبى منِّي فؤادي في دجى الديجور
ذو قوامٍ ودلال كالغصن الرطيب أخجل شمس النهار وفاق البدور

متى يسمح بالوصال والهنا يدوم حتى كاسات التهاني علينا تدور
خـدُّه فيـه لهيـب والـوجـه منيـر والعيون ترمي نبالاً سحرها المأثور

نجد هذا الموشَّح يفيض بمعاني الغزل الصريح ، فلا يتصور من يستمع إلىٰ كلماته وألحانه إلاّ النِّساء والتغزُّل بحسنهن ومجالس لقائهن ، ولا أحسب مثل هذا الموشَّح يكون باعثاً علىٰ تهييج المشاعر وتحريك العواطف نحو الرسول الكريم وطاعة الله ربِّ العالمين ، ولا نجد في ظلِّ إنشاده إثارةً لمعاني الإيمان والقرب من الرحمن ولا تصعيداً للجانب الرُّوحيِّ في كيان الإنسان ، وإنَّما من شأن هذه القصائد والموشَّحات الغزليَّة أن تلصق الإنسان المستمع إليها بطينته الأرضيَّة ، وتُحرِّك في أعماقه كوامن الجنس وغرائز الشهوة وأحلام كيانه الماديِّ المظلم .

ألا تجدها تتحدَّث عن القوام والدلال والجمال والوصال والخدِّ الملتهب وسهام العيون الساحرة وطيف خيال الحبيب ، كلُّ هذا هل نلمس فيه أدنىٰ صلةٍ بمعاني المولد الشريف ، وأوصاف الرسول الكريم ، وأخلاق الإسلام العظيم ، وأنوار الإيمان ، والسمو في معراج طاعة الرحمن؟

وإليك شاهداً آخر علىٰ هذا النَّمط من القصائد غير اللائقة بمقام النبيِّ ﷺ وأنوار الصلة بربِّ العالمين . إنَّه موشَّح بعنوان لذَّ لي خلع عذاري ، يقول فيه صاحبه :

لـذَّ لـي خلـع عـذاري فـي هـوى ذات الخمـارِ
عـزَّ صبـري واصطبـاري أحـرقـت جسمـي بنـارِ
شعشعـت بـرق الجمـالِ واكتسـت بُـرد الجـلالِ
قـد حـوت عـزَّ الـدلالِ وانجلـت خلـف الستـارِ

هيَّمتني في هواها ... خاب من يهوى سواها
جلَّ صبري في رضاها ... حاسدي أمسىٰ يماري
آه من حرِّ احتراقي ... فالهوىٰ مُرُّ المذاقِ
هل أرىٰ يوم التلاقي ... طال هجري وانتظاري
حيَّرتني بالجمالِ ... صيَّرتني كالخيالِ
أرتجي نيل الوصالِ ... زاد شوقي واضطراري
أمتدح خيرَ الأنامِ ... خاتم الرُّسل الكرامِ
أختتم فيه كلامي ... علَّه يأخذ بثاري

هنا أقول : أيُّ معنىً جليل تجلّىٰ لنا في هذا الموشَّح ، وأيّة وقدةٍ روحيَّة ونفحة قدسيَّة انبعثت بين جوانحنا حال سماعه ، وأشرقت بها أعماقنا في ظلِّ ألحانه؟ هل شعرنا بارتقاء روحيٍّ وسموٍّ قلبي على جناح حب الله ورسوله؟ أم أن أبيات هذا الموشَّح خاضت بالسامعين مجال الغزل والحبِّ والغرام واللَّهو في ذكر محبوب تحترق الأعماق بحُبِّه ، وتنحل الأجسام بسبب كثرة التفكير به ، ويتلهَّف القلب إلىٰ وصاله . وهذه المعاني كلُّها لا ترقىٰ إلىٰ ما يليق بمقام رسول الله ومعاني القرب من الله عزَّ وجلَّ . ويزيد الطين بلَّةً ومعانيَ هذا الموشّح هبوطاً وذِلَّة مطلعه الذي يقول :

لذَّ لي خَلْع عذاري ... في هوىٰ ذات الخمارِ

ولا يخفىٰ علىٰ أحد أنَّ الوصف بخلع العذار كناية عن الانهماك في الغيِّ واتباع الهوىٰ ، فهو لا يليق بمقام الإيمان والهداية والصلاح ، وحبِّ الله ورسوله . وقال لي أحدهم عندما انتقدت مثل هذا النَّمط من القصائد : يجب علينا أن نُؤوِّلها بما يليق بالمقام ، والمقصود بذات

الخمار هنا : الكعبة ، والقصيدة تدور في فلك تعلُّق القلب بالكعبة الشريفة والهيام بحُبِّها وشدَّة الشوق إلى لقائها ، فقلت له : وهل تتصوَّر أنَّ كلَّ من يستمع إلى هذه القصيدة عندما ينشدها المنشدون سيفهم هذا المعنىٰ الذي أشرت إليه أم أنَّه سيتخبَّط وغالباً ما ينساق إلىٰ المعنى الظاهر ، فيتصوَّر أنَّها قصيدة تغزُّل بإحدى الحسناوات ، فلا يثور في ذهنه وأعماقه سوى هذه المعاني الهابطة . وهذا ما حدث فعلاً حين أنشد المنشدون هذه القصيدة في مناسبة ذكرىٰ المولد الشريف في أحد المحافل وكان الحاضرون خليطاً من الناس منهم المثقَّف ومنهم العامّي ومنهم الملتزم المتمسِّك بالقيم الروحيَّة والإسلاميَّة ، ومنهم المتفلِّت البعيد عن معاني الإسلام وهديه . فقال أحد الحاضرين من العامة : ما علاقة ذات الخمار بالمولد؟ أهكذا تكون المدائح النبويَّة؟ إذاً لا فرق بين ما ينشده المنشدون ويغنِّيه المطربون ، فكلا الفريقين يتغزَّل ، ويذكر الحب والغرام ومحاسن النِّساء .

أقول : وإذا ختم الشاعر قصيدته بمدح النبيِّ ﷺ ، فلن يكون ذلك عذراً في قبولها لتُصنَّف في لائحة قصائد المديح والابتهال ، فيُباح إنشادها في مناسبات المولد الشريف وسائر أفراح المسلمين الإيمانيَّة . ونحن في غنىً عن هذه الرمزيّات ؛ لأنَّها لا تُثير في الأعماق سوىٰ لواعج الحبِّ الهابط ، وتنأىٰ بمُستمعيها عن الحبِّ السامي والقيم الروحيَّة المقدَّسة .

ولا تقوم الحُجّة علىٰ إباحة مثل هذا النَّمط من القصائد والأناشيد في قول من قال : إنَّ الشيخ الفلانيَّ والعالم الفلاني أُنشدت في مجلسه ولم ينكر علىٰ منشدها ، وإنَّ العارف بالله الفلاني أتاه حال عندما سمع هذه القصيدة أو تلك ، فأقوال الرجال وأحوالهم ليست مصادر للتشريع ولا قواعد لمعرفة الحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز ، فمصادر التشريع

معروفة محدَّدة في علم أصول الفقه الإسلاميِّ علىٰ رأسها مصدران القرآن الكريم والسنة النبويَّة الشريفة ، فأمّا بقية المصادر كالإجماع والقياس ، فتعتمد بشكل أساسيٍّ علىٰ الكتاب والسنة ، ولم يذكر علماء الأصول الإسلاميِّ أنَّ أقوال العلماء وأحوال العارفين مصادر تقوم بها الحُجَّة الشرعيَّة علىٰ الإباحة والتحريم . وإنَّ تأثُّر العالم الفلانيّ أو العارف بالله الفلانيّ بهذا النَّمط من القصائد يرجع إلىٰ حالة الصفاء والرقيِّ الروحيِّ اللَّذَيْن يكون عليهما فيؤوِّل ما يسمعه بما يتناسب مع واقع حاله ، وهذا ما لا يتوفَّر لجميع الناس .

ومن هذا الضرب أيضاً غزليَّة تقول :

أيُّهـــا المطـــرب الأغـــنْ غـــنِّ لـــي واسقنـــي علـــنْ
قرقفاً طاهر باللّمىٰ الطاهر ينعـــش الخـــاطـــر والبـــدنْ

ثم يختم بقوله :

صلّـىٰ مـن قـد عليـك مـنْ بـــالـــرِّضـــا واهـــب المِنَـــنْ

هنا أسأل : ما هي العلاقة بين المطرب الأغنّ وعلانية شرب الخمر الممزوجة بلَمىٰ الحبيب والصلاة علىٰ النبيِّ ﷺ؟!

ومن هذا أيضاً غزليَّة ينشدها بعض المنشدين يقول فيها صاحبها :

ظَبْي من الترك له قيودنا مسلمه ناديته فقال لي برقة شول سيلمه
غمزته بناظري ولم أبح بكلمه أجابني حاجبه لكن بنون العظمه
وفرَّ مني نافراً وراح يرقىٰ سُلَّمه فطار قلبي معه لكن ربي سَلَّمه
إذا تواعد الشجي نفذ فيّ أسهمه وهو إذا وعدته أكذب من مسيلمه

هنا أُأكِّد القول كرّة أُخرىٰ : ما علاقة هذا الكلام بل هذا الغزل الفاضح بالنبيِّ ﷺ وذكرىٰ المولد الشريف ، وأيُّ معنىً روحي وعاطفة إسلاميَّة

تشُعّان من كلمات هذه القصيدة؟ لا أجد أيَّ صلة بين معاني الغزل الجريء التي تفيض بها هذه الأبيات والتعبير عن معاني ذكرى ميلاد الرسول الكريم ﷺ .

ومن هذا أيضاً قول الآخر :

تجلَّت وانجلت ليلىٰ وجرَّت خلفها الذَّيلا
فلما أن رأت صبّاً دعاها الصبُّ يا ليلىٰ

قالوا : أراد بها الكعبة ، فقلت : ما ضرَّه لو صرَّح بذكرها ، وجعل المستمعين يتفكَّرون بها مباشرة قبل أن تسبح أفكارهم في معانٍ أخرى لا تليق بالمقام .

بل أقول : إنَّ من ذلك النمط الإنشاديِّ الخمريات التي لا تُذكِّر إلاّ بمجالس اللَّهْو والدنيا والشهوات كالموشَّح الذي يقول في الغزل :

كرعت الخمر من فيها عتيقاً حلَّ في فيها
هي الدنيا وما فيها وما لي غيرها مجلا

لا أدري أيَّة روح سامية ومعانٍ طاهرة يمكن أن يعيشها من يستمع إلىٰ هذا الغزل الصريح الذي لا يُذكِّر إلاّ بالمرأة واللَّذة والخمرة والدنيا .

وما أكثر الخمريات التي يُؤوِّلها أصحابها والمبيحون لها في مجالس الذكر والصلاة على النبيِّ ﷺ : أنَّها خمر ذكر الله ، فهي خمر معنويَّة وشراب روحيٌّ وسُكر سماويٌّ يستعلي علىٰ شهوة الأرض والمادَّة والجنس .

ويتكلَّفون تأويل هذه القصائد حتىٰ يُخرجوها طاهرة زكيَّة ، ويعلنوا إباحتها في مجالس الذكر والعبادة بل يجعلوها خير ما يُنْشَد في تلك المجالس . فتجدك أمام منشد يشدو فيقول :

وراح المصطفى تعصر خمراً وجبريل الأمين ساقيها

ومن عجيب ما سمعت من أحد المنشدين : أنَّه تغزَّل في مديح النبيِّ ﷺ حتىٰ قال :

مكتـــوب علـــىٰ ثغـــرهـــا إنَّـــا أعطينـــاك الكـــوثـــر

والقصيدة كلُّها غزل بعيد كلَّ البعد عما يليق بمقام النبي الكريم ﷺ . ولا ريب في أنَّ الإسراف في إباحة هذا النمط من قصائد المديح أوصلنا إلى هذا الضَّرْب من القصائد التي باتت سوءاً في مقام المديح النبويِّ والابتهال الإلٰهيّ ، ولو رجعنا إلىٰ أسلافنا لما وجدنا في أشعارهم التي صاغوها في معاني الإسلام والقرآن والرسول نظير ذلك .

ومن أقبح ما سمعته أُذناي في مجلس انعقد احتفالاً بالمولد الشريف أنَّ المنشدين أنشدوا فيه موشّحاً بلغ غاية الجرأة علىٰ طهارة المولد وسموِّ الفرحة به ، فكان من قولهم فيه :

لمـــا شفتـــو فـــي دارُه حـــــــــــــل أزراره

أقول : مثل هذا الكلام من شأن الفسّاق والمُجّان ومجالس اللَّهو والعصيان لا من شأن مدح النبيِّ العدنان ومجالس الهداية والإيمان .

وراح بعضهم يُؤوِّل هذا الكلام بما يليق بمقام محبَّة النبيِّ ﷺ ، ويقول : قصد القائل كذا وكذا ، وذكر أشياء من المعاني السامية ، فعجبت من هذا التأويل ، وقلت للمؤوِّل : على هذا الأساس لا تبقىٰ في الوجود كلمة ساقطة ولا عبارة هابطة إلاّ صح تأويلها بالمعاني الفاضلة والمضامين الطاهرة وهذا لعمري زيادة في الغيِّ والسوء حيث اخترنا لأشرف المعاني وأعلاها أخسَّ المباني وأدناها . والحري بنا حفاظاً على حرمة مقام النبوَّة والرسالة أن نختار لمعاني مديحه أشرف الألفاظ وأكرم التعابير ، لا أن نتمحَّل الأعذار لإباحة الساقط المرذول والمنحطِّ البذيء من الألفاظ والتراكيب .

وأما علىٰ صعيد الأداء :

فإنّنا نجد بعض المنشدين يمدُّون بعض أحرف الكلمة أو يخطفون بعضها الآخر ، فيشبعون حركة الحرف أو يجعلون الحرف حركة ، فيترتَّب علىٰ ذلك إفساد المعنىٰ وتشويه المقصود في أذن السامع وفي ذهنه ، ورُبَّما ساقهم ذلك إلىٰ المخالفة الشرعيَّة من حيث لا يشعرون إذا ترتَّب علىٰ هذا المدِّ أو الخطف النطقُ بالكلمة بصورة مؤذية للمقام المعظَّم . مثال قصيدة بعنوان (مدح النَّبي) فلقد سمعت المنشدين ينشدونها بطريقة فيها ذمٌّ لرسول الله ﷺ ، وذلك عندما جعل أحدهم يفرِّد بها قائلاً :

فهـو المـرام بيـن الأنـام حـب النـابـي العـاربـي

ولا ريب في أنَّ لفظة (النابي) بدل (النبيّ) ذمٌّ لا مدح ، لأنَّ النابي هو الذي قبح فلم تقبله العين والنافر من الشيء والسيف النابي الذي لم يقطع . والنابي المعرِض الجافي ، وهذه المعاني كلُّها ذمٌّ لا مدح . وسمعت منشداً آخر ينشد قصيدة باللَّهجة المصرية مطلعها (يا نور النَّبي) ، فكان ينشدها هكذا :

يـا نـور النـابـي يـا نـور النـابـي

ومن قوله فيها أيضاً :

بلّـغ سـلامـي علـى النـابـي

فهذه الطريقة في الأداء كما يتبيَّن لنا في قصيدة (مدح النبيّ) يكمن فيها الذم لرسول الله ﷺ من حيث لا يشعر المنشد ولا يحتسب . وما أكثر الأمثلة والشواهد علىٰ هذا العيب المقيت الذي يقع فيه بعض المنشدين أثناء إنشادهم .

ومن طريف ما قرأت في ذلك أنَّ الحسن بن أحمد بن علي الكاتب ذكر في كتابه « كمال أدب الغناء » فقال :

وقد حُكي أنَّ مغنِّياً غنّىٰ لكافور الإخشيديِّ وهو يرىٰ أنَّه قد اختار الاستفتاح بشعر أبي نُواس في الخصيب :

أنــت الخصيــب وهــذه مصــر

وأقبل يقف على (الخصيـ) ، ويكرِّره ويطرِّب فيه إلىٰ أن قال له : فأنا الخصيّ ، قد علمت ، فما بعد ذلك؟ فخجل ـ المغنِّي ـ وانقطع اهـ.

أقول : ليس هناك عيب أقبح من أن يمدَّ المنشد الحرف ، ويُشبع الحركة بحيث يغيِّر المعنىٰ ، وينحرف عن المراد في سبيل تحقيق النغمة المطلوبة والإيقاع المقصود ، وإنِّي أرىٰ أنَّه لا تعارض بين تحقيق المعاني المقصودة والإتيان بالألحان والأنغام المطلوبة ، إذ يختار المنشد للألفاظ والتراكيب ما يناسبها ويتلاءم معها من النَّغمات والإيقاعات ، ليكون اللَّحْن مؤازراً للَّفظ في تحقيق المعنىٰ في النَّفس ، وبلوغ أثره في القلب ، وتوضيح معالمه في الذِّهن .

* * *

بين يدي شخصيّة
رسول الله محمّد ﷺ

لم تظفر الحياة الإنسانيَّة علىٰ امتداد أزمانها وتلاحق أجيالها منذ فجر تاريخها وإلىٰ اليوم ، بل ولن تظفر إلىٰ قيام الساعة بشخصيَّةٍ إنسانيَّة فذَّة جمعت البشريَّة علىٰ كلمةٍ سواء ، وأقامتها علىٰ منهج الله ، وأخرجتها من الظلمات إلىٰ النور ، وأعدَّت منها في أقصر مدَّة من الزمان في حياة نشوء الشعوب والأمم خيرَ أُمّة أخرجت للناس ، ودفعت بالإنسانيَّة في مضمار العزَّة والكرامة والحقِّ والخير والفرح والتقدُّم والازدهار والقُوَّة والانتصار كشخصيَّة سيِّدنا ومولانا محمد بن عبد الله رسول ربِّ العالمين وإمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلاماته عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين . فهو الأُنموذج البشريُّ الفريد الذي تمتَّع بأرقىٰ معاني الفضل والكمال وأجلِّ صفات الحمد وأنبل الخصال ، فبات القدوة الصالحة للإنسان الذي يبتغي لنفسه تحقيق الحياة الإنسانيَّة الراقية والعيش الآمن والنمط الوجوديّ الكريم والفوز والفلاح في الآخرة . لهذا قال سبحانه مؤكِّداً حقيقة القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في شخصيَّته عليه الصلاة والسلام :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

فإنْ أعرض الناس عن هديه ، ولم يؤثروا اتِّباعه على اتِّباع غيره خابوا

وخسروا ، واستحقّوا الشّقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لأنّهم يعرضون بالإعراض عنه عن سبيل عزّتهم وطريق سعادتهم ومنهاج فوزهم وفلاحهم في الحياة وبعد الممات . فقال سبحانه مشيراً إلىٰ ذلك :

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النور : ٦٣] .

ولقد أدرك كبار فلاسفة الكون ورجال الفكر في العالم بعد قراءتهم سيرة النبيِّ ﷺ : أنَّ حياته الكريمة وشخصيَّته الفريدة وسيرته العطرة هي المنهج الحقُّ والسبيل الوحيد الذي يحقِّق لشعوب العالم وأمم الأرض الخلاص من أوهاق عيشها وأسباب شقائها ، ويأخذ بيدها إلى السعادة والسلام والحياة الطيِّبة الراشدة إذا ما سلكته ، وسارت فيه بخُطىً ثابتة وإيمان كبير وصدق وإخلاص .

فها هو المفكِّر الغربيُّ درابر يقول :

(كان محمد متخلِّقاً بتلك الأخلاق التي إذا اجتمعت برجل واحد أهَّلته لأن يكون ذلك الشخص الذي تتوقَّف عليه مقدّرات العالم ؛ لقد كان في وقت واحد نبيّاً وجنديّاً ، وكان بليغاً علىٰ المنبر كما كان باسلاً في ميدان القتال) .

وها هو الفيلسوف الأيرلنديُّ الشهير برناردشو يقول :

(لو أنَّ محمداً بُعث في هذا القرن وكان له الأمر المطاع لوُفِّق كلَّ التوفيق في حلِّ جميع المشاكل العالميَّة ، ولاستطاع أن يقود الناس إلىٰ السعادة والسلام) . بل عندما قرأ هؤلاء المفكِّرون والفلاسفة ورجال العلم الكونيُّون سيرته الشريفة ، واطَّلعوا علىٰ وقائع حياته النّضيرة لم يشعروا بأنفسهم إلا وهم ينحنون إجلالاً لشخصيَّته الفذَّة ، ويُولونه بالغ التقدير والاحترام معترفين بكلِّ فخر واعتزاز بأنَّ الحياة البشريَّة لم تنشقَّ

عن إنسانٍ كرسول الله محمد ﷺ الذي أودع الله تعالىٰ فيه ذروة الكمال الإنسانيِّ في العقل والقلب والضمير والسلوك ، فكان بحقٍّ كما قال فيه ربّ العالمين : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

فهذا هو الدكتور الأمريكيُّ مايكل هارت يضع رسول الله ﷺ في رأس المئة الأوائل الذين تحدَّث عنهم في كتابه الشهير « المئة الأوائل » ، ويقف الكولونيل الإيطاليُّ ليبرتيني ليعلن بكلِّ صراحة قائلاً :

(ليتني عرفت محمداً عن كثب لأتعرَّف إلىٰ هذه الذات العربيَّة التي بزَّت شخصيَّتها كلَّ نبيٍّ آخر وكلَّ عظيم) .

ويسجِّل الإمام الداعية الكبير سليمان النَّدْويّ رحمه الله تعالىٰ في كتابه الشهير « الرسالة المحمّديَّة » اعترافاً لأحد كبار البراهمة في الهند أمام الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن عليّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول فيه : إنِّي أرىٰ رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الأستاذ حسن عليّ : وبماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم؟ فأجاب : لأنّي أجد في رسول الإسلام خلالاً مختلفة وأخلاقاً جمَّة وخِصالاً كثيرة لم أرها اجتمعت في تاريخ العالم لإنسان واحد في آن واحد[1] . اهـ

ويخاطب المؤرِّخ الإسبانيُّ الكبير الدكتور ريتين رسول الله ﷺ بكلِّ أدب بعد أن قرأ سيرته الطاهرة ، فيقول :

(إليك يا محمد ، وأنا الخادم الحقير ، أُقدِّم إجلالي بخضوع وتكريم ، إليك أُطأطِىء رأسي ، إنَّك لنبيٌّ حقٌّ من الله ، وقوَّتك العظيمة كانت مستمدَّة من عالم الغيب الأزليِّ الأبديِّ)[2] .

---

(١) الرسالة المحمدية لسليمان الندوي .

(٢) « محمد عند علماء الغرب » للشيخ خليل ياسين .

فحُقَّ لرسول الله ﷺ أمام مآثره الجمَّة وعطائه الكبير في واقع بناء المجتمع الإنسانيِّ الأمثل وتكوين الأُمَّة الرائدة وتربية العناصر البشريَّة الفريدة وهداية الناس إلىٰ الله وإخراجهم من غياهب الجاهليَّة وظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور العلم وضياء الإيمان ، أن تحتفل الأُمّة الإسلاميَّة بل الإنسانيَّة كلُّها بيوم مولده الذي كان موعد انبثاق فجر السعادة وسطوع شمس الهداية في الحياة بعد أن كانت شعوب الأرض غارقةً في أوحال الشرِّ محطَّمةً تحت رُكام الجحود والعصيان . بل أقول : إنَّ من حقِّ رسول الله محمد ﷺ أن يمتدَّ الاحتفال به عبر لحظات الحياة جميعها ؛ لأنَّ الاستقامة علىٰ منهج الله لا تتحقَّق إلاّ إذا جرت أنفاس حياة المؤمنين في ظلِّ أنفاس حياته الشريفة ، فلم يبتعدوا عن سيرته العطرة قِيْد أُنْمُلة ، لأنَّ حياته ﷺ هي الواقع العمليُّ لتطبيق منهج الله . ففي اتباعه الصادق يكون تنفيذ المنهج الإلهيّ ؛ لهذا قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] . وقال جلَّ جلاله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٤] . وقال عليه الصلاة والسلام : « كلُّ أُمّتي يدخلون الجنّة إلاّ من أبىٰ » قالوا : ومن يأبىٰ يا رسول الله؟ قال : « من أطاعني دخل الجنّة ومن عصاني فقد أبى »(١) . وقال : « من اتّبع سُنَّتي فقد أحبّني ومن أحبّني كان معي في الجنّة »(٢) ، وقال : « فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي عضُّوا عليها بالنواجذ »(٣) .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم .

(٣) أخرجه مسلم .

مكانة ذكرى
ميلاد النبيّ ﷺ وأهميَّة الاحتفال بها

تُعدُّ ذكرىٰ مولد النبيِّ الأعظم سيِّدنا محمّد ﷺ من ذكريات الإسلام الجليلة ومناسباته العظيمة إذ لولا ميلاد النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه لما كانت البعثة ، ولولا البعثة لما حظيت البشريَّة بمآثر الإسلام وأمجاده العظيمة التي أشرق بها وجه الأرض ، وصلح عليها أمر الدنيا ، ولما أضاءت صفحات تاريخ الإنسانيَّة بمشاهد العزِّ والفخار ومظاهر التقدُّم والازدهار وواسع الفتوحات وعظيم الانتصارات ، ولما امتدَّت أنوار الهداية لاحبةً في شعاب الحياة ، ولبقيت البشريَّة غارقةً في ظلمات الكفر وغياهب الفساد مشرفةً علىٰ الهلاك المحقَّق والبوار المؤكَّد .

فبميلاد النبيِّ ﷺ كانت بداية فجر جديد من السعادة والسلام ، غمرت أنوارُه أُممَ الأرض وشعوبها ، فثابت الأعداد الهائلة من الناس إلى الله ، ودخلت في دينه الحقِّ أفواجاً .

وإنَّ الاحتفال بذكرىٰ ميلاد سيِّدنا محمد ﷺ تذكير متجدِّد للأُمَّة الإسلاميَّة بل للإنسانيَّة بأسرها بمآثره الجليلة وإحسانه البالغ إلىٰ الحياة البشريَّة بخاصَّة وإلىٰ الوجود الكونيِّ بعامَّة في هداية الناس إلىٰ الله وتطهير المجتمعات البشريَّة من أرجاس الكفر ولوثات الشرِّ وظُلمات الفساد ، وبناء خير أُمَّةٍ أُخرِجت للناس ، وخاصّةً في زماننا هذا الذي كثُرت فيه الغفلة عن الله بسبب طغيان المادَّة والشهوات وإسراف الناس في حُبِّ

الدنيا وغرقهم في بُلَهْنية العيش ورغد الحياة ، فأصبح الاستكثارُ من مناسبات تذكيرهم بالهداية والرجوع إلىٰ الله أمراً لازماً ، وليس هناك ذكرىٰ أعظم قَدْراً ولا أعمق أثراً في النفوس من ذكرىٰ ميلاد من كان صلاح البشريَّة وهدايتها على يده بعد فسادها وضلالها . فبات جديراً بالمسلمين أن يغتنموا مناسبة ميلاده ﷺ ، فيجعلوها ذكرىٰ تحيا بها الأجيال الإسلاميَّة في شتىٰ العصور إلىٰ قيام الساعة ، فيكون في الاحتفال بهذه الذكرىٰ العظيمة تذكير متجدِّدٌ للأُمَّة المسلمة يوقظها من سباتها ، وينبِّهها من غفلتها ، ويجعلها تنهض من كبوتها مستعيدةً نشاطها وهمَّتها في الاضطلاع بأعباء المسؤوليَّة تجاه دينها الحنيف والقيام بواجبها في الحفاظ علىٰ أركانه والذود عن حياضه والاستقامة علىٰ منهجه .

* * *

تاريخ الاحتفال بذكرىٰ المولد الشريف

(نشأته وتطوّره)

لم يكن الاحتفال بذكرى المولد النبويِّ الشريف حديثَ العهد في حياة المسلمين ، بل هو يرجع في تاريخهم إلىٰ القرن الثالث الهجريِّ ، حيث اعتنىٰ ملوكهم وأُمراؤهم وعلماؤهم وفضلاؤهم وعامَّتهم به ، وبذلوا في ذلك جهوداً وأموالاً طائلة ، لإعلان مظاهر البهجة والفرح بهذه الذكرىٰ العظيمة التي كان يجتمع لها الناس ، تغمرهم السعادة برسول الله ﷺ عبر احتفالاتهم التي كانت تزدهر بالمدائح النبويَّة والابتهالات الدينيَّة وخُطب العلماء ومواعظ الدعاة ودعوات الصالحين .

فجاء في فتاوي الحافظ السخاويِّ :

أنَّ عمل المولد حدَث بعد القرون الثلاثة ، ثمَّ لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار في المدن الكبار يعملون المولد ، ويتصدَّقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته فضل عميم .

ومن أبرز الملوك الذين اهتموا بذكرىٰ المولد النبويِّ ، وقاموا برعاية الاحتفال بها علىٰ أحسن وجه وأكمل مظهر الملك مظفَّر الدِّين كوكبوريّ صاحب (إربل) الذي كان يستعدُّ للاحتفال بالمولد الشَّريف ابتداءً من المحرَّم ، فكان يدعو الصُّنّاع إلىٰ إقامة ميدانٍ فاخر للاحتفال ، فيستمرُّ

عملهم شهرين حتىٰ يُطلَّ شهر ربيع الأوَّل وقد تمَّ الإعداد الرائع للاحتفال بهذه الذكرىٰ المباركة .

وذُكِر : أنَّ الملك المظفَّر هو أوَّل من ابتكر ذلك الاحتفال البالغ بمولد حضرة المصطفىٰ ﷺ ، وكان يحتفل بالمولد الشريف في الليلة الثامنة من شهر ربيع الأول في عام ، وفي اللَّيلة الثانية عشرة منه في عام آخر ، وذلك عملاً بالرِّوايتين .

وذهب كثيرون إلىٰ أنَّ أوَّل من احتفل بالمولد المعزّ لدين الله الفاطميُّ الذي أخذ يتفنَّن بمظاهر الاحتفال بهذه الذكرىٰ كلَّما أطلَّ موعدها علىٰ المسلمين عاماً بعد عام .

واستمرَّت سُنَّة الاحتفال بذكرىٰ الميلاد الشريف في خلفاء المعزّ لدين الله الفاطميِّ ، وبقيت سائدة في حياة المسلمين في مصر بعد انقراض الدولة الفاطميَّة ، ثمَّ انتشرت في بلاد المسلمين ، وامتاز بعض ملوك المسلمين بكثرة اهتمامهم بهذه الذكرىٰ العظيمة ورعايتهم للاحتفال بها علىٰ نسق باهر كالملك المظفَّر صاحب (إربل) وقد تقدَّم معنا الحديث عنه ، وكالأشرف قايتباي الذي بلغ في تفنُّنه في مظاهر الاحتفال بالمولد الشريف إلىٰ أن أعدَّ سُرادقاً خاصّاً بالمولد النبويِّ كان يُسمّىٰ إذ ذاك بالسُّرادق الأشرفيِّ ، وكان يضمُّ آلافاً من القطع المطرَّزة المبطَّنة بالحرائر والدِّيباج ، وقد حُلِّيت بمختلف الزخارف والرسوم ، وكُتب عليها نماذج متعدِّدة من آيات القرآن وأحاديث الرسول وقلائد الأبيات بخطوط أنيقة مختلفة الألوان والحجوم . ولقد جمع هذا السُّرادق من آيات الفنِّ الإسلاميِّ ما جعله حديث الناس في الشرق والغرب . وتذكر الأخبار أنَّ السلطان سليم الأوَّل حين داهم مصر بخيوله كان أوَّل ما سأل عنه هو السُّرادق الأشرفيُّ النبويُّ ، فحمله بنسيجه ومصابيحه وأثاثه ونمارقه إلىٰ بلاده .

وصف السُّرادق الأشرفيِّ :

كان السُّرادق الأشرفيُّ رمزاً لتقدم الحضارة الفنيِّة في بلاد الإسلام ، فهو يشبه إيواناً فخماً متَّسع الجوانب متعدِّد الأرجاء ، وهو علىٰ هيئة دائرة فخمة ذات أبعاد وأطوال تعلوه قُبَّة شاهقة تنهض علىٰ أربعة أساطين ، وقد زُيِّنت سماؤها بالمصابيح البلّوريّة ذات الألوان المتعدِّدة من أبيض وأحمر وأخضر ، وقد رُتِّبت فيه الطنافس والأرائك والنمارق والبسط ترتيباً بديعاً يرعىٰ المقامات والمراسيم . وجرت العادة أن ينصب هذا الإيوان الفخم في الليلة الأولىٰ من ليالي ربيع الأوَّل ، ولا يقوم بتشييده وإعداده غير ستمئة بطل من أبطال الأسطول المصريّ الذين قد دُرِّبوا تدريباً كاملاً علىٰ إحكامه وإتقانه مع جمهرة من المهندسين وأرباب الفنِّ والذوق ، وقد وصفه أحد الرحَّالة ، فقال :

إنَّه يشبه مدينة كبيرة ذات شوارع وميادين ، ففي كلِّ جانب من جوانبه ترىٰ موضعاً للتأمُّل والاستطلاع اهـ.

ومن الملوك والعظماء الذين اعتنوا بمظاهر الاحتفال بذكرىٰ المولد النبويِّ الشَّريف صاحب تلمسان حيث ذكر العلاّمة شهاب الدِّين أحمد المقَّريّ في كتابه « نفح الطّيب » :

أنَّ السلطان أبا حُمُوس صاحب تلمسان في القرن الثامن الهجريّ كان يحتفل ليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب في ذلك العصر وما قبله اهـ.

وكذلك الظاهر برقوق سلطان مصر ، فلقد جاء عن الشمس ابن الجزري : أنَّ أكثر الناس عناية بذلك أهل مصر والشام ، وأنَّه شاهد من الظاهر برقوق سلطان مصر سنة ٧٨٥هـ وامرأته بقلعة مصر في ليلة

المولد المذكورة من كثرة الطعام وقراءة القرآن والإحسان للفقراء والقُرّاء والمُدّاح ما بهره ، وأنَّه صرف علىٰ ذلك نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب اهـ.

وتحدَّث الإمام الزرقاني رحمه الله عن مظاهر العناية بالمولد الشَّريف والبذل في سبيل إظهار الفرحة والابتهاج بذكراه العظيمة في بلاد المسلمين في عهد الدولة العثمانيَّة فقال :

وما زال بحمد الله تعالىٰ في كلِّ عصر طائفة من الإسلام ملتزمين له غاية الالتزام حتى قد استعدُّوا فيه لعمل المولد في سائر شهور العام محبَّةً ويُمناً به في مولده الشريف ﷺ ، ويعملون الولائم ، ويتصدَّقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويُظهرون السرور به ، ويزيدون في الميراث لاسيّما ملوك الدولة العليّة العثمانيَّة وأمراءها أصحاب الهمم القويَّة ، فإنَّهم يعتنون لقراءة قصَّة مولده الكريم ﷺ اهـ.

واستمرَّت عناية المسلمين بالاحتفال بذكرىٰ المولد الشريف إلىٰ عصرنا الحاضر وذلك علىٰ صعيد الملوك وعامَّة الناس . فالبلاد الإسلاميَّة اليوم ما يزال معظمها يشهد حفاوة الرؤساء وكبار المسؤولين فيها بذكرىٰ المولد النبويِّ ومشاركتهم للعلماء والفقهاء وعامَّة المسلمين هذه الفرحة العظيمة في احتفال رسميٍّ تنظِّمه مراكز ومؤسَّسات الشؤون الدينيَّة في الدولة كوزارة الأوقاف ونحوها ، وينقل عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئيَّة ، وتكتب عنه الصحف والمجلاّت .

مراسيم الاحتفال بذكرى المولد الشريف :

جرت العادة في برنامج الاحتفال بذكرىٰ المولد النبويِّ في العهود الماضية التي ازدهر فيها شأن هذه الذكرىٰ العظيمة : أن يُفتتح الاحتفال

بتلاوة القرآن الكريم ، ثمَّ يستمع الحاضرون إلىٰ الوعظ الدينيِّ متَّجهاً إلىٰ سيرة الرسول ﷺ ذِكْراً لمولده وبعثته وجهاده وانتصاراته والتحاقه بالرَّفيق الأعلىٰ ، ثمَّ تمتدُّ الأسمطة الزاخرة بالأطعمة ، فيجلس إليها الناس كلٌّ في مكان طبقته ، يتناول أطايب الطعام ولذائذ الشراب ، وتُبذَل العطايا والهدايا ، وتُخلَع علىٰ عِلْية القوم التُّحف والأوسمة ، وتُفَرَّق الصدقات علىٰ المحتاجين ، وتُنْثَر الدنانير علىٰ جموع الناس ، ويستمرُّ الاحتفال إلىٰ طلوع الفجر .

ومن مظاهر شيوع الفرحة والابتهاج بالمولد الشريف في تلك الحقبة أن تقام الزينات في الشوارع والميادين وتسير المواكب غاصَّة بالقُرّاء والمنشدين وتدوِّي الطبول في الساحات ، ثم تتوجَّه الجموع إلىٰ السُّرادق الأشرفيِّ ، فيتقدَّم الموكب الأول ، وهو يتألَّف من الخليفة ومعه القضاة الأربعة وأصحاب المناصب الدينيَّة في الدولة من علماء وفقهاء ، ثمَّ يليه الموكب الثاني وفيه أمراء المماليك وقُوّاد الجيش وسائر عِلْية القوم ، ثمَّ يليهم عظماء الدولة من أرباب الوظائف وحكَّام الأقاليم وأصحاب الحسبة ، ثمَّ يليهم الموكب الأخير ، ويشتمل علىٰ رجال الشَّعب والعامَّة مرتَّبين علىٰ أقدارهم ومنازلهم . وأمّا طوائف المتصوِّفة وأصحاب الطُّرُق فيظلُّون في الساحة الواسعة يُنشدون ويقرؤون حتىٰ ينزل السلطان ، فيصافح رجال المواكب ، ثمَّ يأذن لمن بالخارج من العامة أن يأخذوا أماكنهم الخَلْفية بهدوء ، فينطلق المتصوِّفة إلىٰ منتصف السُّرادق يرتِّلون وينشدون .

وتنوَّعت مظاهر الاحتفال بذكرىٰ المولد النبويِّ الشريف بعد عصر السُّرادق الأشرفيِّ ، واستمرَّ التعديل في ترتيب مراسيمها وفِقَر برامجها حتىٰ عصرنا الحاضر ، إلاّ أنَّها رغم ذلك التغيير المتكرِّر الذي كان يطرأ عليها يجب ألاّ تخلو من ثلاثة أمور هي عماد نجاح الاحتفال وأساس

قيامه إلىٰ جانب الجمهور المحتفل بالذكرىٰ :

أولها : تلاوة القرآن الكريم .

ثانيها : المواعظ النافعة في موضوع الذكرىٰ .

ثالثها : الإنشاد في معاني الذِّكرىٰ .

* * *

obeikandl.com

آراء العلماء وفتاويهم
في جواز الاحتفال بذكرىٰ المولد الشريف

لقد استحسن جلَّة علماء الأُمَّة من المتقدِّمين والمتأخِّرين الاحتفال بذكرىٰ ميلاد الرسول الكريم سيِّدنا ومولانا محمد ﷺ ، واعتبروه ظاهرة سلوكيَّة طيِّبة وصبغةً إيمانيَّة عالية في التعبير عن محبَّته ﷺ وإظهار إجلاله وتعظيمه بين خلق الله أجمعين .

ونذكر فيما يلي طائفة من أقوال هؤلاء الأئمَّة مسندين كلَّ قولٍ إلىٰ صاحبه :

قال السريُّ السقطيّ رحمه الله تعالىٰ :

من قصد موضعاً يُقرأ فيه مولد النبيِّ ﷺ فقد قصد روضة من رياض الجنَّة ، لأنَّه ما قصد ذلك الموضع إلاّ لمحبَّته لرسول الله ﷺ ، وقال ﷺ : « من أحبَّني كان معي في الجنَّة »[1] .

قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالىٰ :

من حضر قراءة مولد النبيِّ ﷺ وعظَّم قدره فقد فاز بالأمان .

قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النوويّ :

ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يُفعل كلَّ عام في اليوم الموافق ليوم

---

(١) رواه السجزي عن أنس .

مولد النبيِّ ﷺ من الصدقات وفعل الخيرات وإظهار الفرح والسرور ، فإنَّ ذلك مع ما فيه من الإحسان إلىٰ الفقراء مشعر بمحبَّته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك ، وشكر الله علىٰ ما منَّ به من إيجاد رسوله الذي أرسله رحمةً للعالمين ، ومن إعادة مولده ﷺ وفيه إغاظة للكفرة والمنافقين .

قال الإمام ابن عبّاد في رسائله :

وأمّا المولد فالذي يظهر لي أنَّه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم ، وكلُّ ما يُفعَل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزيّن بلباس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب أمر مباح لا يُنكِر عليه أحد قياساً علىٰ غيره من أوقات الفرح .

ثمَّ قال في رسالة أخرى : وكون هذا الأمر لم يكن في الصدر الأوَّل حيث الإيمان راسخ في القلوب وشرائع الإسلام مطويَّة علىٰ تعظيمها والانقياد إليها لملوّ الأضلاع والجنوب ، وليس بدافع له حيث لم يبق من الإيمان إلا الاسم ولا من شرائع الإسلام إلاّ الرسم ، وقريب أن يذهب من أيدي هؤلاء الناس اسم ورسم ، وتذهب عنهم معرفته وعمله ، فلم يبق اليوم بأيدي الناس من الدِّين إلاّ أنَّهم إذا سمعوا بذكر النبيِّ ﷺ تضطرب له أفئدتهم ، وتنطلق بالصلاة عليه ألسنتهم ، بل المتفقِّه في مثل هذا الوقت النحوس لو لم يحسن الناموس ، ويتحصَّل بالانقباض والعبوس ، ويلزم هيئة مستحسنةً في الجلوس ، لم يسمع أحد منه فتوىٰ ولا قبل له دعوىٰ ، وإن كان في علم مالك مثلاً ، والعوام لا يتأثَّرون إلاّ بالمحسوسات من المنظورات والمسموعات والملموسات ، وأمّا الأمور الروحانيَّة فهم بمعزل عنها ، فكذا ترىٰ الناس يصبحون في ذلك اليوم متجمّلين متشوِّقين إلىٰ أن يقرع سمعهم قارع من ذكر اسم نبيِّهم وحبيبهم ، فيلهجوا بذلك

فرحاً وسروراً ، ويبتهجوا به استلذاذاً وحبوراً ، ومثل هذا لا يضيع لهم عند ربِّهم في مرجعهم اهـ.

سُئل الإمام المحقِّق أبو زرعة العراقيّ عن عمل المولد : هل هو مستحبٌّ أو مكروه ، وهل ورد فيه شيء ، وهل نقل فعله عمَّن يُقتدىٰ به؟

فأجاب رحمه الله تعالىٰ : بأنَّ اتخاذ الوليمة وإطعام الطعام مستحسن في كلِّ وقت ، فكيف إذا انضمَّ إلىٰ ذلك الفرح والسرور بظهور نور النبوَّة في هذا الشهر الشريف ، ولا نعلم غير ذلك عن السلف ، ولا يلزم من كونه بدعة كونه مكروهاً ، فكم من بدعة مستحبَّة بل واجبة ، فهو بدعة حسنة .

قال الحافظ ابن حجر في جواب سؤال :

وظهر لي تخريجه علىٰ أصل ثابت وهو ما في الصحيحين : أنَّ النبيَّ ﷺ قدم المدينة ، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال لهم فقالوا : هو يوم أغرق الله فيه فرعون ، ونجّىٰ موسىٰ ، ونحن نصومه شُكراً .

قال : فيُستفاد منه مثل الشكر علىٰ ما منَّ به تعالىٰ في يوم معيَّن ، وأيُّ نعمةٍ أعظم من بروز نبيِّ الرحمة؟! والشكر يحصل بأنواع العبادات كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة .

قال الإمام القسطلانيّ رحمه الله تعالىٰ :

وقد رُؤي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له : ما حالك؟ فقال : في النار إلاّ أنَّهُ خُفِّف عنِّي كلَّ ليلة إثنين ، وأمص من بين أُصبعيَّ هاتين ماءً ، وأشار برأس أُصبعيه ، وأنَّ ذلك بإعتاقي لثُوَيْبَة عندما بشَّرتني بولادة النبيِّ ﷺ وبإرضاعها له .

قال ابن الجزريِّ : فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمِّه

جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبيِّ ﷺ به ، فما حال المسلم الموحِّد من أُمَّته ﷺ الذي يُسرُّ بمولده ، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبَّته ﷺ لعمري إنَّما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يُدخله بفضله العميم جنّات النعيم .

وقد قال المحدِّث العلامة السيوطيُّ :

إذا كان هذا حال من جاء ذمُّه ... وتبَّت يداه في الجحيم مخلَّدا
أتىٰ أنَّه في يوم الإثنين دائماً ... يخفَّف عنه للسُّرور بأحمدا
فما الظنُّ بالعبد الذي طول عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحِّدا

جاء في رسالة « حسن المقصد في عمل المولد » للإمام جلال الدِّين السيوطيِّ ما نصُّه : قد وقع السؤال عن عمل المولد النبويِّ في شهر ربيع الأوّل ما حكمه من حيث الشَّرع؟ وهل هو محمود أم مذموم؟

فالجواب عندي : أنَّ أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسَّر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبيِّ ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ، ثمَّ يُمدُّ لهم سماط فيأكلونه ، وينصرفون من غير زيادة علىٰ ذلك من البدع الحسنة التي يُثاب عليها صاحبها لما فيه من تعظيم قدر النبيِّ ﷺ وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف ﷺ .

وقال السيوطيُّ أيضاً :

وقد سُئل شيخ الإسلام حافظ العصر أبو الفضل ابن حجر عن عمل المولد ، فأجاب بما نصُّه :

أصل عمل المولد بدعة لم تُنقَل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ، ولكن مع ذلك اشتملت علىٰ محاسن وضدها ، من جرَّد في عمله المحاسن ، وتجنَّب ضدَّها كان بدعة حسنة ، ومن لا فلا . اهـ.

قال السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالىٰ :

فالاجتماع لسماع قصَّة مولد صاحب المعجزات ﷺ وأكمل التحيَّات من أعظم القُرُبات لما يشتمل عليه من المبرّات والصلوات وكثرة الصلاة عليه والتحيَّات بسبب حبِّه الموصل إلى قُربه .

قال العلامة محمد بن أحمد بنيس في « لوامع أنوار الكوكب الدرّيِّ في شرح همزية البوصيريّ » . عند قوله :

ليلة المولد الذي كان للديـ ـن سرور بيومه وازدهاءُ

إذا ثبت أنَّ ليلة ولادته التي ولد فيها أو ولد صبيحتها أفضل اللَّيالي واليوم الذي تُسفر عنه أفضل الأيّام ، فهو عيد وموسم ، فيُعظَّم ويحترم ويعمل فيه ما يدل علىٰ التعظيم والاحترام ، كما اختاره الحافظان الزَّين العراقيّ والجلال السيوطيّ .

قال العلاّمة سيِّدي محمد جعفر الكتانيّ :

إنَّ حكم اتخاذها ـ يعني الموالد ـ في الجملة ومن حيث ذاتها هو الإباحة ، إذ مع الأصل في الأشياء الإباحة حتىٰ يرد ما يعارضها أو يخالفها .

أقول : هذا بعض ما جاء عن العلماء الأفذاذ والأئمَّة الأعلام من المتقدِّمين والمتأخرين في بيان جواز المولد والترغيب في الاحتفال به ، ولقد فصَّل الشيخ الجليل والعلاّمة الكبير عبد ربِّه بن سليمان الشّهير بالقليوبيّ في الحديث عن عمل المولد وبيان أدلَّة جوازه وأقوال العلماء واحتجاجاتهم والردِّ علىٰ المنكرين في الجزء الخامس من كتابه « فيض الوهّاب في بيان أهل الحقِّ ومن ضلَّ عن الصواب » وعقد لذلك عدَّة فصول ، وما ذكرته هو قبسات مما انقدح به زِناد فكره ، ونطق به يراع عقله ، وفتح الله به عليه من أنوار الحقِّ والصواب .

* * *

في جواب من انتقد المولد وادّعىٰ أنّه بدعة باطلة

انتقد بعض الناس إحياء ذكرىٰ المولد النبويِّ الشَّريف وإقامة الاحتفالات بها وشيوع ذلك في سلوك المسلمين كلَّما أزف موعد هذه الذِّكْرىٰ المجيدة وحان زمانها مدَّعِين أنَّ هذه المظاهر التي تجري في ظلال الذكرىٰ ابتداع في الدِّين وإحداثٌ لأمر ليس من الإسلام في شيء ، واحتجُّوا بقوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »[1] ، وبقوله : « كلُّ بدعةٍ ضلالة »[2] ، واتَّهموا كلَّ من احتفل بهذه الذكرىٰ ، وجمع الناس عليها بالضلال والانحراف عن هدي الإسلام وعقيدة التوحيد ، وفي الجواب علىٰ هذا الانتقاد والردِّ عليه أقول :

إنَّ الاحتفال بذكرىٰ ميلاد النبيِّ ﷺ وإظهار الفرحة به ليس بِدْعاً في الدِّين وافتآتاً عليه ، وإنَّما هناك من نصوص القرآن الكريم والحديث النبويِّ الشَّريف وكلام السلف الصالح وأحوالهم إشارات واضحة وإيماءات لطيفة إلىٰ مشروعيَّة الاحتفال بذكرىٰ مولده ﷺ وجواز إعلان الفرحة بقدوم موعدها في كلِّ عام .

فالمحتفِل بذكرىٰ مولده ﷺ يُظهِر بذلك إجلاله وتعظيمه

---

(١) متّفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

لرسول الله ﷺ وبإجلال الرسول وتعظيمه يكون إجلالٌ وتعظيمٌ للمرسِل سبحانه وتعالىٰ ، كما أنَّ في تعظيمه ﷺ في حياته وبعد موته وعند ذكرىٰ مولده بل في كلِّ لحظة من لحظات الحياة إلىٰ قيام الساعة تعظيماً لمظهر من مظاهر الدِّين الحنيف وتمجيداً لسبب شعائره . ونحن إذا قرأنا القرآن وجدنا إشارةً لطيفةً إلىٰ هذا المعنىٰ الجليل والسلوك النبيل تُجاهه ﷺ في قوله تبارك وتعالىٰ :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢] .

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج : ٣٠] .

وفي إجلال رسول الله ﷺ وإظهار الفرحة بمولده والتمدُّح بمبعثه والثناء عليه والإطناب بذكره والصلاة عليه وإعلان ذلك بين الناس عبر المحافل وفي المجالس التي تنعقد في المساجد وفي البيوت وفي الساحات والطرقات مظهر من مظاهر رفع ذكره ونشره في العالمين ، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ بقوله :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] .

وإذا كان المولىٰ سبحانه وتعالىٰ قد أمر عباده أن يذكروا نِعَمه التي أنعم بها عليهم ، ليكون ذلك سبيلاً إلىٰ ذكره ، لأنَّ ذكر النِّعمة يُذكِّر بالمنعم بها نحو قوله تعالىٰ :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقوله لبني إسرائيل : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ٤٠] .

وقوله جلَّ ذكره علىٰ لسان موسى عليه السلام في خطاب قومه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم : ٦] .

فإنَّ ميلاده ﷺ من أعظم وأجلِّ النِّعم التي امتنَّ الله تعالىٰ بها علىٰ عباده ، وتفضَّل بها علىٰ خلقه ، ويكفينا دليلاً علىٰ ذلك أنه قال في حقِّه ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . فأصبح الاحتفال بذكرىٰ ميلاده ﷺ ذكراً لنعمة المولىٰ سبحانه علىٰ عباده في مبعثه وظهور دينه وهداية الإنسانيَّة به ، وهذا بعض مضمون قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحىٰ : ١١] . فإحياء ذكرىٰ ميلاده ﷺ بتلاوة القرآن الكريم ومدحه ﷺ وذكر مآثِره وصفاته ووقائع سيرته وفضائله هو مظهر من مظاهر التحدُّث بنعمة الله سبحانه .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] تصريح بمشروعية إعلان الفرحة وإظهار السرور بفضل الله وبرحمته ، وإن من جليل فضل الله تعالىٰ وكريم رحمته أن بعث إلى الوجود سيدنا محمداً ﷺ الذي قال في حقه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، فإعلان الفرح وإظهار الابتهاج كلما أقبلت على الحياة ذكرى ميلاده تحقيق لمضمون قوله تعالى : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] وامتثال لهديه .

ولابأس في أن نورد في هذا المقام طَرَفاً من كلام الإمام القليوبيّ في كتابه « فيض الوهَّاب » وذلك قوله :

(هذا ولا يخفىٰ علىٰ عاقل أنَّ مِن أجلِّ النِّعم من أرشدنا الله علىٰ يديه ، ودلَّنا بالهداية والتوفيق علىٰ قبول نُصْحه ورُشْده والنَّهج علىٰ السبيل الذي دعانا إليه ، فبطريق الأحرىٰ والأجدر أن نذكر تلك النعمة دائماً ، ولا ننسىٰ من كان سَبَباً في توصيلها إلينا . اهـ) .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] . إشارة إلىٰ أنَّ أيَّ

مظهر من مظاهر الصلاة علىٰ النبيِّ ﷺ تنفيذ لأمر الله وتحقيق لهديه . والاحتفال بذكرىٰ ميلاده ﷺ هو بعض مظاهر هذا الأمر الإلهيّ ، وذلك لما يحدث فيه من كثرة الصلاة والسلام عليه .

ثُمَّ إنَّ في إظهار الفرح والابتهاج بسيِّدنا رسول الله ﷺ عند حلول ذكرىٰ مولده الشريف وإقامة الاحتفالات العظيمة لها واجتماع المسلمين علىٰ ذلك تحقيقاً لبعض معاني الشكر للمولىٰ سبحانه علىٰ نعمة إرساله سيِّدنا محمداً ﷺ ، وفي هذا تنفيذ لهديه جلَّ وعلا في قوله : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] . وأيضاً فيه تحقيق لواجب الشكر للنبيِّ ﷺ علىٰ تبليغه الرسالة وأدائه الأمانة ونصحه للأُمَّة وجهاده في الله حقَّ الجهاد ، وفي هذا تنفيذ لهديه تعالىٰ في قوله : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] . فإذا أمر المولىٰ سبحانه العبدَ بشكر والديه بعد شكر الله لمّا كانا سبباً في وجوده ، ولِمَا قدَّماه إليه من الرعاية والعناية في تربيته والإنفاق عليه وتغذيته ودفع الآفات عنه ، فإنَّ رسول الله محمداً ﷺ أولىٰ بوجوب تقديم الشُّكر له ؛ لأنَّ فضله وحقَّه أكبر من حقِّ الوالدين علىٰ العبد وفضلهما عليه . وهذا ما أكَّده رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

ويتأكَّد هذا التوجُّه بالشُّكر في قوله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »[2] .

ولقد مرَّ معنا كلام الإمام ابن حجر في بعض ما احتجَّ به من السنَّة الصحيحة علىٰ جواز الاحتفال بالمولد الشَّريف ، وهو أنَّ الرسول ﷺ لما قدم المدينة المنَّورة وجد اليهود يصومون اليوم العاشر من محرَّم ،

---

(١) النَّسائيّ وأحمد وابن ماجه .

(٢) أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبي هريرة .

فسألهم : « ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ » قالوا : هذا يوم عظيم أنجىٰ الله فيه موسىٰ وقومه ، وغرَّق فرعون وقومه ، فصامه موسىٰ شُكراً ، فنحن نصومه ، فقال رسول الله ﷺ : « فنحن أحقُّ وأولىٰ بموسىٰ منكم » ، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه ، وقال : « لئِن بقيتُ إلىٰ قابلٍ لأصومنَّ التاسع » ، وجاء في مسند الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ : « صُوموا يوم عاشوراءَ ، وخالفوا اليهودَ وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً » . وروى البزّار والديلميُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ « عاشوراء عيد نبيٍّ كان قبلكم ، فصوموه أنتم » .

فأصبح صيامه فرضاً علىٰ المسلمين حتىٰ نسخ بفريضة صيام شهر رمضان المبارك .

أقول : إذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بصيام العاشر من محرّم ، وذلك تعظيماً لليوم الذي نجّىٰ الله تعالىٰ فيه سيِّدنا موسىٰ عليه السلام ، فإنَّ اليوم الذي وُلِد فيه النبيُّ ﷺ أولىٰ بالاحتفاء والتعظيم ، وأن يكون يوماً مشهوداً في حياة المسلمين يتكرَّر الاحتفال به وإظهارُ الفرحة بمناسبته كلَّما حلَّ موعده في شهر ربيع الأنور .

ومرَّ معنا أيضاً ما ذكره الإمام القسطلانيُّ من خبر رؤية أبي لهب بعد موته في النوم ، فلما سُئل عن حاله أجاب بأنَّه في النار ولكنَّ الله يُخفِّف عنه العذاب في كلِّ ليلة إثنين ويمصُّ من بين إصبعيه ماءً ، وذلك لإعتاقه أمته ثُوَيْبة حين بشَّرته بولادة النبيِّ ﷺ فقال ابن الجزريّ : فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمِّه جوزيَ بفرحه ليلة مولد النبيِّ ﷺ به فما حال المسلم الموحِّد من أُمتهِ ﷺ يُسَرُّ بمولده ويبذل ما تصِل إليه قدرته في محبَّته ﷺ لعمري إنَّما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يُدخله بفضله العميم جنات النعيم اهـ.

أقول : ليس هذا من المبالغة في القول ، وإنَّما هو حقٌّ لا مِرية فيه ولا شك لقوله ﷺ : « المرء مع من أحب »[1] . ولقوله : « من أحبَّ قوماً حُشِر معهم »[2] ، فمن احتفل بمولد النبيِّ ﷺ ، وبذل في سبيل إعلان الفرحة به ماله ولواعج حبِّه ، وكان من الصادقين ، أكرمه الله بأن يكون مع حبيبه المصطفىٰ ﷺ .

ورحم الله الإمام القليوبيَّ حين قال بعد أن ذكر الأدلَّة والبراهين القاطعة علىٰ جواز الاحتفال بالمولد الشريف :

أو لم تكفك هذه الأدلَّة من الكتاب والسنة والبراهين القاطعة علىٰ أنَّ قيام المسلمين بإحياء مولد سيِّد العالمين من الدِّين ، وجاء بها كلام ربِّ العالمين ، وأجمع عليها السّواد الأعظم من عقلاء المسلمين ، نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا والمسلمين ممن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه .

كيف لا وقد وقف أولو العلم والتحقُّق والبحث في السُّنَّة المطهَّرة والتنقيب علىٰ ما فعله الله الكريم في سنة ولادته ﷺ علىٰ عباده من الخير العظيم حتىٰ عمَّ الوجود والآفاق حتى سُمِّيت تلك السَّنة بسَنة العزِّ والابتهاج ، وما جاء أحد من ناحية إلاّ وحدَّث بالحقِّ والخيرات ، أفلا يقتدي المؤمنون بخالقهم امتثالاً لقول الصادق المصدوق ﷺ : « تخلَّقوا بأخلاق الله »[3] . ويوسِّعون في هذه الأيّام علىٰ الفقراء والمساكين وخاصة المعدَمين حتىٰ يعمَّ السرور كلَّ العالم من كلِّ الوجوه ، حتىٰ يكون هذا الفرح أعظم فرح للمسلمين ، ويشعر به العظيم والكبير والصغير . اهـ .

---

(١) رواه أحمد في المسند وأبو داود عن أنس .

(٢) رواه الطبرانيّ .

(٣) ذكره القليوبيّ في « فيض الوهّاب » .

بعد هذا الإيضاح والبيان والدليل والبرهان أقول :

إنَّ من طبيعة الإنسان أن يُظهر فرحه وابتهاجه بالأمر العظيم المحبوب الذي حدَث في حياته . وتتكرَّر فرحته كلّما جاء الموعد الذي وقع فيه ، فيجدِّد في نفسه ادِّكاراً وفي مشاعره انفعالاً . ونجد نحو هذا واضحاً في سلوك الشُّعوب والأُمم التي تقع في حياتها مناسبات وطنيَّة أو اجتماعيَّة أو إنسانيَّة أو نجاة من كارثة أو غير ذلك من الأمور العظيمة ذات الأثر الكبير في حياة الشعوب والأمم . فتعقد هذه الشعوب والأُمم الاحتفالات بذكرىٰ هذه المناسبات كلَّما حان موعدها في مسيرة حياتها ، وتجعل حلول موعدها أعياداً تُظهر فيها الأفراح ، وتنصب فيها الزينات ، تعبِّر بذلك عن حالة نفسيَّة من الابتهاج والسُّرور بهذه المناسبات الوطنيَّة أو الاجتماعيَّة أو الإنسانيَّة . ونحن في عصرنا الحاضر نجد في حياة الشعوب والأُمم الإنسانيَّة أعياداً كثيرةً لمناسبات عديدة عالميَّة وغير عالميَّة . ولا ريب في أنَّ عقد هذه الأعياد وإظهار الفرح والابتهاج بها لا مسوِّغ لإنكاره ولا يجد الناس فيه هُجنةً بل هو أمر محبَّب ومظهر مقبول ؛ لأنَّ هذه المناسبات تحمل في غضونها التذكير وبعث المعاني الطيِّبة ، وتنهض بالناس إلىٰ المكارم ومزاولة المبادىء السامية ، ومتابعة السَّيْر في العطاء والبناء والتقدُّم والازدهار في مختلف مجالات الحياة عبر أسمىٰ الأهداف وأجلِّ الغايات .

ولمّا كان ميلاد النبيِّ محمد ﷺ أجلَّ وأكرم حادثٍ وقع في الحياة ، وكان له الأثر البالغ في قلب الموازين وتغيير مجرى التاريخ ونَقْلِ الإنسانيَّة برُمَّتها من واقع إلىٰ واقع ، فقد أصبح هذا الميلاد العظيم جديراً بأن تحتفل الأُمَّة الإسلاميَّة بذكراه في كلِّ عام حين يطلُّ علىٰ الوجود موعد اليوم الذي شرَّف الله تعالىٰ فيه العوالم كلَّها بمولد حبيبه المصطفىٰ محمد ﷺ ، وأن تُظهر الفرح والابتهاج بهذه الذكرىٰ الجليلة تعبيراً عن

الحبِّ العميق لهذا الرسول الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين والمبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

ولا أجد أيَّ تعارض بين الاحتفال بذكرىٰ الميلاد الشريف وتصوُّرات العقيدة الإسلاميَّة ، بل أقول :

إنَّ التعبير عن حبِّ النبيِّ ﷺ وإظهار معاني هذا الحبِّ الطاهر من خلال الاحتفال بذكرىٰ مولده الشَّريف هو من صُلْب تصوُّرات العقيدة الإسلاميَّة المجيدة ، وذلك بناءً علىٰ قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

فأيّ مخالفة نجدها في التعبير عن هذا الحبِّ المقدَّس خلال الإشادة بفضل رسول الله ﷺ عندما يحتفل المسلمون بذكرىٰ ميلاده الشَّريف؟ وأيُّ مُنْكَر نجده في اجتماع المسلمين في المساجد وغير المساجد علىٰ مائدة محبَّته ﷺ في ظلِّ ذكرىٰ مولده كلَّما حان موعدها؟

وخاصّةً إذا ما تحقَّق في اجتماع المسلمين عبر احتفالهم بالذكرىٰ تناصح في الدِّين وتواصٍ بالحقِّ وتقوية للإيمان ، وبعث للهِمم علىٰ صعيد الدعوة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ وحمل أمانة الإسلام؟

ويحتجُّ المنكرون بأنَّ إحياء تلك الذكرىٰ وإشاعة الاحتفال بها يسوق إلىٰ كثير من المخالفات والمنكرات كاختلاط الرجال بالنِّساء ، وانكشاف العورات وممارسة الأعمال التي تؤدِّي إلىٰ فساد العقيدة كدخول بعض مظاهر الوثنيَّة في سلوك المحتفلين وتقليد غير المسلمين في مظاهر الاحتفال ، لذلك يجب أن نجزم بحُرمة الاحتفال بهذه الذكرىٰ سدّاً للذرائع ودرءاً للمفاسد .

---

(١) تقدمَّ تخريجه .

أقول : إنَّ تخلُّل هذه المفاسد وأمثالها في مظاهر الاحتفال بالمولد الشَّريف عند بعض الجَهَلةِ من الناس لا ينبغي أن يكون ذريعةً لتحريم إظهار الفرحة برسول الله ﷺ عند حلول ذكرىٰ مولده الشَّريف ، بل الواجب أن نصفِّي مظاهر الاحتفال بالذكرىٰ مما يلوِّث أجواءه الطاهرة ، ونمنع تسرُّب هذه المخالفات والمنكرات ، وذلك بنشر الوعي الدينيِّ عند المسلمين وإقامتهم عبر التوجيه السليم والتعليم المبين علىٰ المنهج الحقِّ ، لأنَّ اجتماعهم علىٰ هذه المناسبة العظيمة وإعلان الفرح بها في المحافل والمجامع والمنتديات يحقِّق لهم نفعاً كبيراً وخيراً كثيراً في أمر دينهم وعقيدتهم وواقع صلتهم برسول الله ﷺ ، وذلك بناءً علىٰ البرنامج المعدّ للاحتفال بهذه الذكرىٰ الجليلة ، فإذا امتلأت فقراته بالنافع من القول والإنشاد والحضور ، وخلت من المخالفات والمنكرات كان الاحتفال ذا فائدة كبيرة ونفع عميم ، وانفضَّ منه المحتفلون بغذاء روحي ورُشد وهداية . وإنَّ مظاهر الاحتفال بذكرىٰ المولد النبويِّ الشّريف التي تجري في بلادنا بلاد الشام وسائر مدن قطرنا العربيِّ السوريِّ تتحلّىٰ ـ ولله الحمد ـ بصبغة طيِّبة تنسجم في روحها ووقائعها مع هدي الإسلام وجوهر عقيدته ؛ حيث يُفتتح الاحتفال بقراءة نصٍّ من القرآن الكريم يذكِّر برسول الله والدعوة إلىٰ الله ومعاني الإسلام ، ثمَّ يبدأ المنشدون ـ وهم من الرّجال ـ ينشدون القصائد في مديح النبيِّ ﷺ ـ ذاكرين خصاله وأخلاقه ومحبَّته بأصواتهم العذبة وألحانهم الجميلة المؤثِّرة خالين من آلات اللَّهو والمعازف المحرَّمة . وبين فقرات الإنشاد يقوم أهل العلم من خطباء ووُعَّاظ يُلقون علىٰ الناس المحتشدين في موقع الاحتفال كلماتهم مذكِّرين وواعظين ، يشحذون بها هممهم في حمل أمانة الدِّين ، ويربطون قلوبهم بالله ورسوله ، ويوضِّحون لهم معالم الإسلام وتصوّرات العقيدة الصحيحة ، ويلقون الضَّوء من خلال خُطَبهم على واقع المسلمين وما آلوا

إليه من تأخُّرٍ وانحطاط وذلٍّ وهوان ، فيثيرون في نفوس الحاضرين الغَيْرة علىٰ كرامتهم الإسلاميَّة ، ويؤجِّجون عواطفهم الدينيَّة ، ويذكِّرونهم بالمسؤوليَّة عن دينهم ورسولهم وقرآنهم أمام الله يوم القيامة ، ويحضُّونهم علىٰ العمل الصالح والثبات علىٰ منهج الحقِّ والهداية .

وقد يلقي في غضون ذلك الاحتفال بعض الشعراء المسلمين قصائد شعريَّة تتضمَّن حديثاً عن رسول الله ﷺ في بيان صفاته وأخلاقه ووقائع سيرته وجهاده ونضاله في تبليغ دعوة ربِّه ، كما تتناول الحديث عن الإسلام والمسلمين وشحذ هِمَمهم في الدفاع عن الدِّين والذَّوْد عن حياضه وغير ذلك مما يرتبط بأجواء هذه الذكرىٰ العطرة ومعانيها السامية . ثم يُختَم الاحتفال بالدعاء الذي يؤدِّيه أحد العلماء الصالحين . ويتولّىٰ تقديم فقرات البرنامج عريفٌ للاحتفال يُنتَخَب من أهل العلم والبيان .

ويمتاز الاحتفال بعدم اختلاط الرجال بالنِّساء في موقعه ، فإذا كان في المسجد جلس الرجال والصبيان في مكان والنِّساء في مكان آخر ، بحيث لا يرىٰ أحد الفريقين الآخر .

كما يمتاز الاحتفال بخُلوِّه من المظاهر الفاسدة والانحرافات والمخالفات الشرعيَّة ، فتجري وقائعه طاهرةً زكيَّةً تتحقَّق فيها أمور جليلة ، منها :

أولاً ـ أن يجتمع المسلمون علىٰ طاعةٍ مِنْ ذكر لله وتلاوةٍ للقرآن الكريم وصلاةٍ علىٰ رسول الله محمد ﷺ وإصغاءٍ لموعظة إسلاميَّة نافعة في زمان كثر فيه البعد عن الله وانغماسُ الناس في مستنقعات حبِّ الدنيا ، وازدادت فيه حدَّة التفرُّق والتدابر بين المسلمين ، وقلَّتْ فيه لقاءاتُهم الإسلاميَّة ، واتّسعت فيه شُقَّةُ بعدهم عن جوهر دينهم والواقع العمليِّ لتطبيق شريعة

ربِّهم ، فيكون اجتماعهم في موقع الاحتفال بالذكرىٰ فرصةً طيِّبةً يحقِّقون فيها تواصلاً وتآلفاً فيما بينهم علىٰ الله وتذكرةً تُوقِظ فيهم الشُّعور بالمسؤوليَّة تُجاه إسلامهم ، وتدفعهم في مضمار التطبيق العمليِّ الصادق لمنهج ربِّهم سبحانه وتعالىٰ .

ثانياً- لقد اعتاد المسلمون في الاحتفالات التي يقيمونها بمناسبة ذكرىٰ مولده ﷺ أن يشهدها لفيف من علماء الإسلام ودعاته ، فيكون في ذلك فرصة يتمكَّن فيها المسلمون من أن يلتقوا عدداً من علماء دينهم في محفل واحد ، ويسمعوا من كلمات معظمهم ، ويصغوا إلىٰ مواعظهم ، بينما لا تُسعفهم خطبة الجمعة وحدها برؤية أكثر من واحد من أولئك العلماء في المحلَّة من المدينة أو القرية ، وشيءٌ جميل ورائع ومفيد جدّاً أن يظفر أهل المحلَّة بلقاء عدد من علماء الإسلام ودعاته في وقت واحد ، ويتكرَّر هذا الأمر في كلِّ حيٍّ في المدن أو القُرىٰ خلال تعدُّد الاحتفالات بهذه الذكرىٰ المباركة ، حيث يُدعىٰ عالم الحيِّ الفلانيِّ إلىٰ المشاركة في الاحتفال بذكرىٰ المولد النبويِّ في حيٍّ آخر ، وهكذا ينتقل العلماء والدعاة ورجال الفكر الإسلاميِّ في القرية أو المدينة من مكان إلىٰ آخر عبر احتفالات المسلمين بهذه الذكرى ، فيتحقَّق التواصل والترابط بينهم وبين سائر أفراد الأُمّة ، فيثمر هذا خيراً كثيراً وفوائد جمَّة ، منها أن يتمكّن المسلمون من التعرُّف علىٰ علماء الإسلام ودعاته ورجال فكره ، إذ لا يحظون بهذا التعرُّف غالباً في غير لقاءات هذه الذكرىٰ الجليلة .

ثالثاً- يحدث كثيراً أن يحضر الاحتفال بذكرىٰ المولد الشريف أناس من المسلمين ليس لهم أدنىٰ التزام إسلاميٍّ ، أو يكون التزامهم بالإسلام موسميّاً ، أَيْ يقتصرون من لقائهم به علىٰ بعض المواسم العباديَّة كشهر رمضان وصلاة العيدين والجمعة ، إلاّ أنَّهم إذا أطلَّت ذكرىٰ المولد النبويِّ

علىٰ الوجود تفجَّرت بين جوانحهم عواطف الشوق ولواعج الحبِّ لرسول الله ﷺ ، فيندفعون بشغف إلىٰ مواقع الاحتفال بتلك الذكرىٰ ليشهدوا وقائعه ، أو يكون الدافعُ لفريق آخر إلىٰ شهود الاحتفال بها مجرد فضول منهم لمعرفة وقائع ذلك الاحتفال وما يجري فيه من مظاهر ، فيكون حضور الجميع فرصةً كبيرةً لدعاة الإسلام وعلمائه أن يتلقَّوهم بمواعظهم وتذكراتهم التي يُلقونها علىٰ الناس أثناء الاحتفالات المنعقدة لأجل هذه الذكرىٰ الجليلة ، فيثمر ذلك غالباً أن يتأثَّر بعض أولئك الناس بتلك المواعظ والتذكرات ، فيحطِّمون علىٰ أثر سماعها حواجز البعد عن الله سبحانه ، ويصبحون قريبين منه حيث استجابت قلوبهم لصوت الدعوة إليه ، فيُفضي بهم ذلك إلىٰ استقامتهم علىٰ منهج الله الحقِّ وانقلابهم إلىٰ أهليهم أُناساً آخرين كأنَّهم خُلقوا من جديد .

أقول : لو لم يتحقَّق في الاجتماع علىٰ ذكرىٰ المولد الشريف سوىٰ هذه الفائدة لكفىٰ ذلك دليلاً علىٰ فضيلة إحيائها ومؤشِّراً إلىٰ الخير الكامن فيها .

فكم من إنسانٍ بعيد عن الله اتَّفق له شهود احتفال بذكرى مولده ﷺ ، فأنصت خلاله إلىٰ كلمة عالم أو تذكرة واعظ ذكَّر الناس فيها بدينهم وعطف قلوبهم علىٰ ربِّهم ورسولهم ، فأثَّرت موعظتُه في أعماقه فقلبته ظهراً لبطن ، وأصبح بعدها إنساناً سويّاً وعبداً صالحاً ملتزماً منهج الله سالكاً سبيل هداه . فماذا يقول المنكرون بعد ذلك؟

هل يجدون في إعلان الفرحة بذكرىٰ مولد النبيِّ الكريم محمد ﷺ والاجتماع عليها شرّاً وفساداً في تصوُّرات العقيدة الإسلاميَّة؟

أم هل يرون في لقاء المسلمين علماءَ دينهم ودعاة إسلامهم ظاهرةَ انحرافٍ ووضعاً لا يتَّفق مع منهج ربِّهم؟!

ومن المناسب أن أذكر هنا ما قاله الإمام القليوبيُّ رحمه الله تعالىٰ في كتاب « فيض الوهّاب » ، ونصّه ما يأتي :

ولنا أن نقول : إنَّ سيِّد الوجود ﷺ هو لكافَّة ما اشتمل عليه بالله ومن الله وإلىٰ الله ، فيكون هو أعظم مشعر من مشاعر الحقِّ عزَّ وجلَّ التي أمر عباده أن يعظِّموها بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] . وإذا كان تعظيم الشعائر لا يصدر إلاّ من وعن متحقِّقي الإيمان ، فكيف وهو أصل النِّعمة ومعرفتها ﷺ لا يُعظَّم؟

ومن جحد تلك النِّعمة يكون جاحداً لمن أجرىٰ الله تعالىٰ علىٰ يديه ذلك الفضل ، أفلا يكون على أقلِّ تقدير وأدنىٰ اعتبار عمل المولد الشريف ولما فيه من الظهور والبيان ورِفعة شأن الإسلام والمسلمين تعظيماً لشعائر الله تعالىٰ ، وإذا لفتنا النظر ، وأمعنَّا الفكر ، وجدنا أنَّ المولد الشريف تسعة أعشار قوامه والأسس التي يُبنى عليها ذلك الاحتفال العظيم والابتهاج الكبير هو :

أولاً : تلاوة القرآن الذي أمرنا الله عزَّ وجلَّ بحفظه وتلاوته ، وحثَّنا علىٰ الملازمة لذكره سيِّدُ العالمين ﷺ بما يعود علىٰ بني البشر من رحمة الله تعالىٰ لهم جميعاً ، إذ بتلاوته تنزل السكينة ، وتعمُّ الرَّحمة .

ثانياً : ذكر الله تعالىٰ الذي أمرنا به خالقنا المنعم علينا بنعمة الوجود التي هي أجلُّ النِّعم وأعظمها بقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] . ورغَّبنا فيه سيِّدُ المرسلين ﷺ بالوعد المبرور المحتوم المشمول بالرَّحمة والرضوان من الله الكبير الرَّحيم الرَّحمن .

ثالثاً : الصلوات علىٰ رسول الله ﷺ لكافَّة طرق التنويع في ألفاظها الواردة الثابتة في صحيح السنَّة المطهَّرة ، وقد أمرنا الله تعالىٰ بالصلاة عليه ووعدنا بوعده المنجز المحتوم عِظَم الأجر عليها ، قال تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

والوارد فيها عمَّن لا ينطق عن الهوىٰ في قوله الشّريف : « من صلّىٰ عليّ مرَّة صلّىٰ الله عليه بها عشراً »[١] ، وفي قوله : « أنا حبيب الله والمصلي عليَّ حبيبي »[٢] ، فمن أراد أن يكون حبيباً للحبيب فليكثر من الصلاة علىٰ الحبيب .

رابعاً- إطعام الطعام والتوسعة علىٰ الفقراء حيث أمر الله عزَّ وجلَّ في قوله الكريم الذي يؤخذ منه بعُموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقد قرن الله تعالىٰ العناية بإطعام الفقراء الإيمان به تعالىٰ حيث قال :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة : ٣٣-٣٤] .

وفي ذلك تشديد الحثِّ علىٰ إطعام الفقراء والمساكين في قوله تعالىٰ :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾ [الطلاق : ٧] .

وقوله تعالىٰ في الآية العامَّة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] .

وفي قول الصادق المصدوق ﷺ : « وإطعام الطعام »[٣] - الحديث - أليس ذلك كله تعظيماً لشعائر الله تعالىٰ وقياماً بما رغَّب عباده فيه ، ووعدهم عليه الثواب العظيم والنعيم المقيم . اهـ.

ناقشني أحدهم في موضوع الاحتفال بذكرىٰ ميلاد النبيِّ محمد ﷺ والاجتماع في المساجد والأحياء والبيوت لمناسبتها العظيمة ، فقلت له :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ذكره القليوبي في « فيض الوهّاب » .

(٣) رواه مسلم .

إنَّ الاحتفال بذكرىٰ الميلاد الشريف وإقامة المجامع والمحافل والمنتديات لها سبيل إلىٰ توفُّر مظاهر عباديَّة لها أصل في التشريع الإسلاميّ ، ومن أهمِّ هذه المظاهر :

اجتماع المؤمنين علىٰ ذكر الله وتلاوة القرآن والصلاة علىٰ رسول الله ﷺ والتناصح في دين الله ، وهذه المظاهر كان الصحابة الكرام يحرصون عليها ويمارسونها في معظم أحوالهم حيث ربّاهم رسول الله ﷺ عليها .

وأمّا ما جاء في فضل الاجتماع :

فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال ﷺ : « الجماعة رحمة والفرقة عذاب »[١] .

وقال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلاّ نزلتْ عليهم السكينةُ ، وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده »[٢] .

وقال : « عليكم بالجماعة فإنَّ يد الله علىٰ الجماعة »[٣] .

وأما في فضل ذكر الله جماعة :

فقد قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٢] .

وجاء في الحديث القدسي قال الله عزّ وجلَّ : « من ذكرني في نفسه

---

(١) عبد الله في زوائد المسند والقضاعي عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) ابن مردويه ، والبيهقيّ .

ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه »[1] .

وقال ﷺ : « ما اجتمع قوم علىٰ ذكر الله إلاّ حفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة »[2] .

وقال : « ما اجتمع قوم علىٰ ذِكْرٍ ، فتفرَّقوا عنه إلاَّ قيل لهم : قوموا مغفوراً لكم »[3] .

وأما ما جاء في فضل الاجتماع علىٰ القرآن :

فقد روىٰ الإمام مسلم في حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه ، فيه قال رسول الله ﷺ : « وما اجتمعُ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالىٰ يتلون كتاب الله تعالىٰ ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[4] .

هذه هي أهم خصال الاحتفال بذكرىٰ المولد الشريف ، بل أقول :

إنَّ الاحتفال بسائر المناسبات الإسلاميَّة يجري في حياة المسلمين على هذا النسق الطيِّب والطراز النافع ، وما في هذا لعمري ضَيْر علىٰ إيمان المؤمنين ، ولا خلل في عقيدة المسلمين ، ولا افتآت علىٰ الدِّين ، ولا مجانبة لهدي سيِّد المرسلين ، ولا مخالفة لسيرة عباد الله المتَّقين . وإذا قالوا : هو ابتداع ، فإنّا نقول : أجل هو ابتداع في المظهر ، ولكنَّه اتّباع في الجوهر ، وحسبنا كلام أشرف الخلق ورسول الحقِّ سيِّدنا محمد ﷺ عندما قال : « من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم من شيء ، ومن سنَّ في

---

(١) رواه ابن شاهين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر كنز العمال ١/ ١٨٨١ .

(٣) رواه الحسن بن سفيان عن سهيل بن الحنظلية (كنز العمال ١/ ١٨٠٩) .

(٤) رواه مسلم .

الإسلام سُنَّةً سيِّئةً ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم من شيء »[1] .

وما أكثر الخيرَ والحسنَ والبِرَّ والصلاح في إحياء ذكرىٰ المولد الشريف والاجتماع عليها في المساجد والأحياء والبيوت ، ألا فليتَّعظ من أعرض ، ونأىٰ بجنبه ورفض ، وليكن مِعْواناً علىٰ الخير داعيةً إلىٰ الهُدىٰ . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

وإنِّي أقول مؤكِّداً : إنَّ الاحتفال بذكرىٰ ميلاد النبيِّ ﷺ والاجتماع علىٰ مناسبتها مظهر من مظاهر الدعوة إلىٰ الله ربِّ العالمين .

* * *

(١) رواه مسلم .

التأليف في قصّة
المولد النبويّ الشريف

لقد بلغت عناية العلماء والأدباء المتقدِّمين والمتأخِّرين بذكرىٰ المولد النبويِّ الشَّريف إلىٰ أن ألَّفوا الكُتُب البديعة في قصَّة المولد الشريف ، وملؤوها بالأخبار النافعة والمعجزات الخارقة والأبيات السائرة والقصائد العذبة ، وابتغوا أن تُقرأ في ليلة المولد الشَّريف ، فانتشر بعضها بين الناس حتّىٰ كادوا يحفظونه عن ظهر قلب ، بل قد حفظوه لكثرة ترداده علىٰ أسماعهم في اللّيالي الجميلة والأمسيات السعيدة التي كانوا يُمضونها عبر احتفالاتهم بذكرىٰ المولد النبويِّ في أيّام شَهْرَيْ ربيع .

وامتاز معظمها بالبيان الساطع والنَّظم الرائع والديباجة الحسنة والصياغة البديعة ، وكان منها المنثور المسجَّع والمنظوم المرصَّع .

وبلغت منذ انبثاق فجر التأليف في قصَّة المولد إلىٰ أيامنا هذه المئات من التآليف ، وتمَّ تأليفها بلغات عِدَّة بالعربيَّة والفارسيَّة والتُّركيَّة ونحوها من اللُّغات التي تكلَّم بها المسلمون في بلاد الإسلام ، وما يزالون حتىٰ الآن يتكلَّمون بها .

وممَّن ألَّف في ذلك المضمار الطيِّب والدَّوْح النضير :

* أبو الخطَّاب عمر بن الحسن المعروف بابن دِحْيَة الكلبيِّ المتوفّىٰ سنة ٦٣٣هـ : كان من أعيان العلماء ومشاهير الفُضلاء في المغرب ذكر ابن خَلِّكان : أنَّه دخل الشام والعراق واجتاز بإربل سنة ٦٠٤هـ ، وهو

متوجِّه إلىٰ خُراسان ، فوجد ملكها المعظَّم مظفَّر الدِّين يعتني بالمولد النبويِّ ، فعمل كتاب « التنوير في مولد السِّراج المنير » ، وقرأه عليه بنفسه ، فأجازه الملك المظفَّر عليه بألف دينار . ويُعدُّ ابن دحية الكلبيُّ أوَّل من ابتكر التأليف في قصة المولد الشريف .

* الإمام الحافظ عماد الدِّين إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير المتوفّىٰ في دمشق سنة ٧٧٤هـ .

عمل كتاباً في مولد رسول الله ﷺ أوَّله :

« الحمد لله الذي أنار الوجود بطلعة سيِّد المرسلين ، وأزاح ظلمات الباطل بضياء الحقِّ المبين ، وأوضح طرق الحقِّ بعد ما كان الناس في مسالك الجهل جايزين » .

* الشيخ محمد بن محمد الجزريُّ المتوفىٰ سنة ٨٣٣ هجريّة .

عمل كتاب « التعريف بالمولد الشريف » ، وهو مختصر علىٰ مقالة ومقصدين ، أوَّله :

« الحمد لله الذي نوَّر أطراف الآفاق . . . » .

ثمَّ لخَّصه في كُرّاسة سمَّاها « عرف التعريف » ، وهو مشتمل علىٰ مجمَل لسيرة النبيِّ ﷺ ، ونقله حسين الواعظ إلىٰ الفارسيَّة بشيء من التفصيل .

* الحافظ محمد بن ناصر الدِّين الدمشقيّ المتوفّىٰ سنة ٨٤٢ هجريَّة .

عمل كتاب « جامع الآثار في مولد النبيِّ المختار » في ثلاث مجلَّدات ، وهو من أجمع الكُتُب المؤلَّفة في قصَّة المولد الشريف .

وله « المورد الصادي في مولد الهادي » في كُرّاسة .

و « اللَّفظ الرائق في مولد خير الخلائق » وهو كراسة مختصرة .

* محمد بن محمد بن عبد الله الإيجي الشِّيرازيُّ . المتوفّىٰ بالمدينة المنوَّرة سنة ٨٥٥ هجريَّة .

جمع عِدَّة موالد .

* الشيخ محمد بن عثمان اللؤلؤي الدمشقيّ المتوفّىٰ سنة ٨٦٧ هجريَّة .

عمل كتاب « الدرُّ المنظَّم في مولد النبيِّ الأعظم » في مجلَّدين ، ثم اختصره في كتاب سمَّاه : « اللَّفظ الجميل في مولد النبيِّ الجليل » .

* الفخر أبو بكر الدنقليُّ . كتب في المولد جزأين .

* البرهان محمد الناصحيُّ . عمل مولداً في كراريس .

* البرهان أبو الصفاة . عمل كتاب « فتح الله حسبي وكفىٰ في مولد المصطفىٰ » .

* الشمس الدمياطيُّ المعروف بابن السنباطيِّ . عمل مولداً نَظْماً .

* البرهان ابن يوسف الفاقوسيُّ . عمل أُرجوزة تزيد علىٰ أربعمئة بيت .

* الحافظ زين الدِّين العراقيُّ . له في المولد جزء .

* الحافظ السخاويُّ صاحب « الضوء اللامع » . عمل في المولد جُزءاً .

* الإمام الحافظ عبد الرحمن بن الربيع الشيبانيُّ المتوفّىٰ سنة ٩٤٤ هجريَّة .

عمل مختصراً في السيرة النبويَّة ، أوَّله : « الحمد لله القويُّ الغالب ، الباعث الوارث المانح السالب » .

* أبو الحسن ابن عبد الله البكريُّ المتوفّىٰ سنة ٩٥٢ هجريَّة .

عمل كتاب « الأنوار في مولد النبيِّ محمد » في مجلَّد واحد ، قسمه إلىٰ سبعة أجزاء صغيرة ، وختمه بحديث صراع النبيِّ ﷺ مع أبي جهل ، وسبب خروج النبيِّ ﷺ بتجارة خديجة رضي الله عنها إلى الشام . وصاغه علىٰ طريقة الرواة الذين يقصُّون الحكايات ، وضمَّنه أخباراً وأحاديث خالية من الأسانيد بعيدة عن الصواب كثيرة الضعيف والموضوع ، وملأه بأشعار صحيحة ومضطربة ، وصاغه بلُغة ضعيفة تشبه لغة القُصّاص .

* الإمام أحمد بن حجر الهيتميُّ المتوفّىٰ بمكَّة سنة ٩٧٤ هجريَّة .

ألَّف في قصَّة المولد الشريف كتاب « النعمة الكبرىٰ علىٰ العالم في مولد سيِّد ولد آدم » أوَّله :

(الحمد لله الذي نوَّر وقوَّىٰ هذه الأُمَّة الضعيفة بوجود محمد سيِّد المرسلين ، الذي ألبسه الله تاج النُّبوَّة وجعله نبيَّ الأنبياء . . » .

وله أيضاً « تحفة الأخيار بمولد المختار » أوَّله :

(الحمد لله الذي شرَّف هذا العالم بمولد سيِّد ولد آدم ، وكمَّل به سعود الأنبياء والمرسلين » .

* الإمام جعفر بن حسن بن عبد الكريم البَرْزَنْجيّ المتوفّىٰ في المدينة المنوَّرة سنة ١١٨٧ هجريَّة .

عمل « قصَّة المولد النبويِّ » ، وهو مطبوع مشهور في آفاق كثير من الناس . أوَّله :

« أبتدىء الإملاء باسم الذات العليَّة ، مستدرّاً فيض البركات علىٰ ما أناله وأَولاه » .

وآخره : « اللَّهم وصلِّ وسلِّم علىٰ أوَّل قابل للتجلِّي من الحقيقة الكليَّة ، وعلىٰ آله وأصحابه ومن نصره ووالاه . ما شُنِّفت الآذان من

وصفه الدّريِّ بأقراط جوهريَّة . وتحلَّت صدور المحافل المُنيفة بعقود حُلاه . وأفضل الصلاة والتسليم علىٰ سيِّدنا محمد خاتم النبيِّين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين . سبحان ربِّك ربِّ العزّة عمَّا يصفون ، وسلام علىٰ المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين » .

وللإمام جعفر البرزنجيِّ نظم المولد شعراً أوَّله :

بدأت باسم الذات عالية الشانِ بها مستدرّاً فيض جودٍ وإحسانِ
وثنَّيت بالحمد الهنيِّ مواراً مع الشُّكر للمولىٰ بما منه أولاني

* الشيخ أحمد الدردير المتوفّىٰ في القاهرة سنة ١٢٠١ هجريَّة .

عمل قصَّة المولد ، أوَّله :

« الحمد لله الواجب الوجود . الواسع الكرم والجود . المنزَّه عن الوالد والمولود . الذي بعث فينا نبيَّه وحبيبه محمداً ﷺ بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات . . » .

* الشيخ محمد أبو الوفاء الصياديُّ الرِّفاعيُّ المتوفَّىٰ في حلب سنة ١٢٦٤ هجريَّة .

نظم المولد الشريف ، ومطلعه :

باسم الله خلاَّقِ البرايا وبالرّحمٰن وهّاب العطايا
وبالربِّ الرحيم رجاء قلبي بأنَّ الله غفّار الخطايا

ونظم مولداً آخر مطلعه :

باسم ربِّ العرش خلاق الأنام نبتدي في الذكر من قبلِ النِّظام
كلّ ذكر قبله ذكر الإلهْ إن تلاه ذاكرٌ يبلُغ مناه

* العارف بالله تعالىٰ محمد عثمان الميرغنيُّ المتوفَّىٰ بالطائف سنة ١٢٦٨ هجريَّة .

عمل مولد النبيِّ ﷺ المسمّىٰ : « الأسرار الربّانيّة » ، أوّله :

« الحمد لله الذي اصطفى لمحبّته الذات المحمديّة . من القدم وجعلها واسطةً لكلِّ إنسان . وأبرزها أوّلاً في حضرته الواحديّة ، وفرّع عنها سائر الأكوان » .

* الشيخ محمد التُّرك .

عمل كتاب « المنح الرّبانيّة بمولد خير البريّة » ، أوّله :

« الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل شمس أنوار معارف النبوّة المحمديّة . وأشرق من أفق أنوار الرسالة تجلّي الصفات الأحمديّة . . » .

* الشيخ عبده الحمصيُّ نزيل دمشق المتوفّىٰ سنة ١٣٢٠ هجريّة .

كتب قصّة مولد النبي ﷺ أوّله :

« الحمد لله الذي أظهر من باطن خفاء عماء ليل هويّة الأحديّة . مطالع أنوار فجر صبح حضرة الحقيقة المحمديّة » .

* العارف بالله عليّ بن محمد الحبشيّ المتوفّى سنة ١٣٣٣ هجريّة .

عمل مولداً سمّاه : « سمط الدرر في أخبار مولد خير البشر وماله من أخلاق وأوصاف وسِيَر » أوّله :

« الحمد لله القويّ سلطانه . الواضح برهانه . المبسوط في الوجود كرمه وإحسانه . . » .

* الشيخ محمد القصّاب المتوفّى سنة ١٣٣٣ هجريّة .

عمل في المولد الشريف كتاب « من خير القُرىٰ ذكرىٰ مولد خير الورىٰ » أوّله :

« باسمك اللهمَّ نستفتح يا من تفرَّد بالوحدانيّة . فلا حلول ولا اتحاد ولا معبود بحقٍّ في الوجود سواه » .

* الإمام السيِّد الشَّريف محمد بن جعفر الكتاني المتوفَّىٰ سنة ١٣٤٥ هجريَّة .

عمل مولداً وسمّاه « اليمن والإسعاد بمولد خير العباد » . أوَّله :

« الحمد لله الذي شرَّف هذا الوجود بميلاد أكرم نبيٍّ وأعزِّ مولود سيِّدنا ومولانا محمد النبيِّ المقدَّس المحمود . ذي الشفاعة العُظمىٰ والحوض المورود » .

* الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهانيّ المتوفَّىٰ سنة ١٣٥٠ هجريَّة .

نظم المولد الشريف وسمّاه : « النَّظم البديع في مولد الشَّفيع » أوَّله :

الحمـــد لله علـــى آلائـــهِ حمـد امـرىءٍ أخلـص فـي أدائـهِ
أحمـده والحمـد مـن نعمـائـهِ أن خصَّنـــا بخيـــر أنبيـــائِـــهِ
محمـدٍ سيِّـد كـلِّ عبـدِ

* الشيخ محمد صالح بن أحمد .

ألف كتاب « المولد العصريّ » أوَّله :

« الحمد لله على آلائه . والصلاة والسلام علىٰ أشرف أنبيائه . سيدنا محمد وعلىٰ أخويه موسىٰ كليم الله وعيسى كلمته وعلىٰ أبيهم إبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة وسلاماً دائمين ما دامت الأرض دائرة والكواكب سائرة » .

* الشيخ عبد الله العلميّ الحسنيّ المتوفَّىٰ سنة ١٣٥٥ هجريَّة .

نظم المولد الشريف وسمّاه « المورد النديِّ في المولد المحمّديّ » أوَّله :

الحمـــد لله بليـــغ الحكمـــةْ جـــاد بمـــولـــد النبـــيِّ نعمـــةْ
لكـــلّ شـــيء هـــدىً ورحمـــةْ يـــرحـــم عـــرب خلقـــه وعُجْمـــةْ
بِيُمْـنِ نـور المصطفـىٰ مـن فِهْـر

* الشيخ محمد شاكر المصري الحمصي المتوفَّىٰ بحمص سنة ١٣٧١ هجريَّة .

عمل « مختصر سعادة العالَمِين في مولد سيِّد المرسلين » ، أوَّله :

« حمداً لمن منَّ علىٰ الأنام ، بأعظم هادٍ لسبل السلام ، وجعله أهدىٰ دليلٍ ، علىٰ توحيد الملك الجليل » .

* الشيخ محمد بن سالم نظم مولد الحافظ عماد الدِّين بن كثير ، وذكر فيه أنَّه فرغ من تأليفه سنة ١٣٨٤هـ ، وأوَّله :

الحمد لله الذي أنارا ذا الكون بالنبيِّ فاستنارا
أزاح كلَّ ظلمات الباطلِ بنور طه خير كلِّ كامل

* الأستاذ الشيخ خير الدين وانليّ

عمل « مولد المصطفى » ، وهو في كراسةٍ قرَّظه عدد من علماء المسلمين بدمشق وسيأتي تفصيل الحديث عنه لاحقاً .

* الدكتور نور الدِّين عتر .

عمل كتاب « النفحات العطريَّة في سيرة خير البريَّة » ، وهو مختصر لطيف للسيرة النبويَّة الشريفة ، أوَّله :

« اعلم أخي المؤمن أنَّ الله تبارك وتعالىٰ قد خصَّ نبيَّه محمداً ﷺ بأن جعله أفضل النبيِّين والمرسلين وخاتم النبِّيين والمرسلين ، وأعظمهم رسالةً وأكملهم شريعةً » .

* * *

مولد المصطفىٰ ﷺ

هذا هو عنوان المولد الذي كتبه الأستاذ خير الدِّين الوانليّ ، وجمعه في كُرّاسة لطيفة بصياغة لغويَّة جميلة وعبارات أدبيَّة بديعة وترتيب أنيق ذي فصول قصيرة وفِقَرٍ متناسقة ، يسهل حفظها ، ويعذب إنشادها . جعله بريئاً من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة ، واقتصر فيه علىٰ الصحيح الموثوق ، ونسجه بأسلوب عصريٍّ ملائمٍ لأهل زماننا بعيدٍ عن التكلُّف مُشرِقِ الفِكَرة مأنوسِ اللَّفظة واضحِ التركيب ، تلقّاه العلماء بالقبول ، فقرَّظه بعضهم مبدياً استحسانه له وإعجابه به ، وهم :

الشيخ أبو الخير الميداني (رحمه الله)	رئيس رابطة العلماء .
الدكتور محمد أبو اليسر عابدين (رحمه الله)	مفتي الجمهورية العربية السورية .
الشيخ محمد جميل الشطِّي (رحمه الله)	مفتي الحنابلة .
الشيخ حسن حَبنّكة الميداني (رحمه الله)	رئيس جمعية التوجيه الإسلاميّ
الشيخ أحمد كفتارو	مفتي الشافعيَّة سابقاً ، والمفتي العام للجمهورية العربية السورية حالياً

وقد تولَّت جمعية التمدُّن الإسلاميِّ بدمشق طباعته وإخراجه بثوب جميل ، ونورد فيما يلي صورة عن نسخته الكاملة لطبعة جمعيّة التمدُّن الإسلاميِّ سنة ١٣٧٤هـ .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

حمداً لله وصلاة علىٰ رسوله ، وبعد ، فلما لم تعد أكثر الموالد تفي بحاجة العصر ـ تبعاً لسنة التطور ـ لذا رأينا أن نعرض سيرة الرسول العظيم محمد ﷺ عرضاً جديداً . يأخذ منها القارىء عبرة وتوجيهاً . وقد توخَّينا أن نسرد ما صح من سيرة النبي ﷺ وأقواله بأسلوب مبسط سهل ليس فيه تعقيد ولا حشو . وقد حافظنا فيه عَلَى النهج القديم في الموالد المقفاة التي يسهل إنشادها وحفظها .

ونسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، ويلهم المسلمين التمسك بسنة نبيهم والتأسي بأخلاق هذا الرسول الكريم الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وأرسل رحمة للعالمين .

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الاستهلال

الحمد لله الذي هَيَّأ سَبيلَ الخَلاصِ للإنسانيَّه
بِدَعْوَةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ المُنْقِذَةِ مِنَ الأصنامْ
الذي مَدَّنَ العَرَبَ بَعْدَ أَنْ كانُوا في فَوْضَى الجَاهِليَّهْ
وبَعْدَ أنْ كانُوا خاضِعينَ لِلْفُرْسِ وَالأعْجَامْ
هَمُّهم شَنُّ الغاراتِ وَنَهْبُ الأَمْوالِ والتَّفاخُر بِالعَصبيَّهْ
فَصَيَّرَهُمْ أُمَّةً خالِدَةً تَنْشُرُ العَدْلَ والسلامْ
وقلَبَهمْ منْ قبائلَ مُسْتَعْبَدَةٍ جاهِلةٍ متخاصمةٍ فوضويَّه
إلىٰ أُمَّةٍ مُتَحرِّرةٍ عالِمةٍ مُنظَّمةٍ مَدَّنتِ الأنامْ
وكان مدْرَسةً للعباقرةِ أَخْرَجَتْ بُناةَ الحضارةِ والتَّقدُّميَّه
أمثالَ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ وعليٍّ والصَّحابةِ الكرامْ
فصلاةُ الله وسلامُهُ وبَرَكاتُهُ علىٰ صاحبِ الشَّريعَةِ الحَنِيفيَّه
الَّذي شَبَّ عَلَى الأَمَانَةِ والصِّدْقِ وَكُرْهِ الخِصَامْ
يَخْتَلي لنفسهِ مُفَكِّراً ومُبْتَعِداً عمَّا كانَتْ تَخُوضُ فيهِ البَشَرِيَّه
حَتىٰ هَدَاهُ اللهُ إلىٰ شَريعَةِ الإِسْلامْ
فَعَابَ عَقَائِدَ قَوْمِهِ الباطِلَةَ وَهَدَمَ النُّظُمَ الْوَثَنِيهْ
لَمْ يَثْنِهِ عَنْ ذٰلِكَ حُبُّهُ الأَهْلَ وَالأَعْمامْ
وَلَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ والسِّيادَةَ وَالْمَلَكِيَّةْ[1]

---

(١) كان النبي ﷺ يقول لعمه ـ حين يستعطفه لينزل عن رأيه ـ «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».

فَـأبـى أَنْ يَحِيـدَ عَـنْ شَـريعَـةِ التَّـوْحِيـدِ وَالنِّظـامْ
وَلَـمْ يَخَـفْ بَطْـشَ خُصـومِـهِ وَلا قُـوَّتَهُـمُ الْجَلِيَّـهْ
لأَنَّ هٰـذِهِ الـدَّعْـوَةَ قَـدْ مَلَكَـتْ عَلَيْـهِ الـزِّمـامْ
فَهـلْ رَأَيْتُـمْ كَشَجَـاعَتِـهِ إِذْ قـامَ وَحِيـداً بَيْـنَ أُمَّـةٍ وَثَنِيَّـهْ
يَـدْعُـو إِلـىٰ اللهِ وَالعـالَـمُ يُـواجِهُـهُ بـالعَـداوَةِ وَالخِصـامْ

* * *

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « لا طاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَةِ الخالِقِ »[1] .

صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « يَسِّروا وَلا تُعَسِّروا بَشِّروا وَلا تُنَفِّروا »[2] .

صَلواتُ اللهِ وَسلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلىٰ عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قاتَلَ عَلىٰ عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ ماتَ عَلَىٰ عَصَبِيَّةٍ »[3] . اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْهِ .

* * *

أَتَيْتَ وَالنَّاسُ فَوْضىٰ لا تَمُرُّ بِهِمْ إِلاَّ عَلىٰ صَنَمٍ قَدْ هامَ في صَنَمِ[4]
وَالأَرْضُ مملـوءَةٌ جَـوْراً مُسَخَّـرَةٌ لِكُلِّ طاغِيَةٍ في الحُكْمِ مُحْتَكِمِ
مُسيْطِـرُ الفُـرْسِ يَبْغـي فـي رَعِيَّتِـهِ وَقَيْصَرُ الرُّومِ مِنْ كِبْرٍ أَصَمُّ عَمِ
يُعـذِّبـانِ عِبـاد اللهِ فـي شُبَـهٍ وَيَـذْبَحـانِ كمـا ضَحَّيْـتَ بِـالْغَنَـمِ

* * *

---

(١) في الصحيحين .
(٢) في الصحيحين .
(٣) رواه أبو داود .
(٤) من قصيدة نهج البردة لأحمد شوقي .

أُنْسُه ولُطْفه ﷺ

آثَرَ المُسْلِمونَ رَسُولَهمْ عَلىٰ أَهْلِيهِمْ لأَخْلاقِهِ الرَّضِيَّهْ
فَما قالَ لِخادِمِه أُفٍّ ، وَلا حَقَدَ عَلىٰ إِنْسانْ
وَكانَ يَعْطِفُ عَلىٰ رَعِيَّتِهِ وَيَسْتَشيرُ عُقَلاءَهُمْ في الأُمورِ الدُّنْيَوِيَّهْ
وَيُكْرِمُ ضَيْفَهُ وَيَحْفَظُ حَقَّ جارِهِ وَيَغوثُ اللَّهْفانْ
يُكَنِّي أَصْحابَه بِأَحَبِّ الأَسْماءِ إِلىٰ نُفوسِهِمُ الأَبِيَّهْ
وَيَبْدأُ النَّاسَ بِالسَّلامِ ولا يَحْتَقِرُ إِنْساناً أَيّاً كانْ
وَكانَ بَشُوشاً مَعَ النَّاسِ دائِمَ البِشْرِ سَمْحَ السَّجِيَّهْ
لا يَقْطَعُ حَديثَ مُتَحَدِّثٍ بَلْ يَنْصَرِف إِلَيْهِ بِكُلِّ اطْمِئْنانْ
وَقَدْ طابَقَتْ أَقْوالُهُ أَفْعالُهُ المِثالِيَّهْ
فَصارَ الْمَثَلَ الكامِلَ لِلإِنْسانِ في كُلِّ زَمانْ

مُزاحُه وصِدْقُه ﷺ

نَهى عَنِ اللَّغْوِ وَإِذا مَزَحَ قالَ الحَقَّ وَالأَشْياءَ الحَقِيقِيَّهْ[1]

---

(١) جاءت امرأة إلىٰ النبيِّ ﷺ فقالتْ : « يا رسول الله احملني على جمل » . فقال : « أحملك على ولد الناقة » . قالت : « لا يطيقني » . قال : « لا أحملك إلا على ولد الناقة » . قالت : « لا يطيقني » . فقال لها الناس : « وهل الجمل إلا ولد الناقة »؟

وأتت إليه امرأة فقالت : « يا رسول الله إن بعلي مريض وهو يدعوك » . فقال : « لعل زوجك الذي في عينه بياض » فرجعت وفتحت عين زوجها فقال : « ما بالك » فقالت : « أخبرني رسول الله ﷺ أن في عينك بياضاً » . فقال لها : « وهل من أحد إلا وفي عينه بياض؟ » .

وقالت له امرأة : « يا رسول الله ادعُ الله أن يدخلني الجنة » فقال : « يا أم فلان إن=

وكَـانَ كَـلامُـهُ فَصْـلاً لَيِّنـاً يَفْهَمُـهُ كُـلُّ إِنْسـانْ
وَكـانَتْ نُصْـرَةَ المَظْلـومِ أَحَـبَّ الأُمـورِ إِلـىٰ نَفْسِـهِ الـزَّكِيَّـهْ
ومَـا جَـرَّبَ عَلَيْـهِ قَـوْمُـهُ الكَـذِبَ أَوْ قِلَّـةَ الائْتِمـانْ

عفوه وصبره ﷺ

لا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ يَغْضَبُ لَها وَكانَ الحِلْمُ فيهِ سَجِيهْ[1]
فَلَقَـدْ عَفـا عَـنْ أَعْـدائِـهِ الَّـذيـنَ شَنُّـوا عَلَيْـهِ العُـدْوانْ
وَطَلَبَتْ قَبيلَةُ هَوازِنَ العَفْوَ مِنْ صاحِبِ الشَّريعَةِ الحَنِيفِيَّهْ
فَأَطلَقَهُمْ لأَنَّهُ رَضَعَ في هَوازِنَ فَيا لَلْوَفاءِ وَالحَنانْ[2]

= الجنة لا يدخلها عجوز » . فولت المرأة وهي تبكي فقال : « أخبروها أنها لا تدخل الجنة وهي عجوز » . إن الله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : ٣٥ـ٣٧] .

(١) عن جابر بن عبد الله قال : « لما قفلت الصحابة من غزوة ذات الرقاع أدركتهم القائلة في واد ، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . فنمنا نومة ثم إذا رسول الله يدعونا فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس فقال رسول الله : « إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال لي : « من يمنعك مني؟ » قلت : « الله » . فسقط السيف من يده فأخذته فقلت : « من يمنعك مني؟ » فقال : « كن خير آخذ » . فتركه النبي وعفا عنه . فجاء إلى قومه فقال : « جئتكم من عند خير الناس » .

وقد عفا النبي ﷺ عن (وحشي) الذي قتل عمه حمزة .

ولما وضعت اليهودية السمَّ في الشاة عفا عنها ولم ينتقم منها .

وجيء إليه ﷺ برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك . فقال له : لن تراع . . وعفا عنه .

(٢) وذلك أنه لما انتصر النبيُّ ﷺ على هوازن في غزوة حُنَيْن وقسم الغنائم بين المسلمين جاءه وفد من هوازن يقبل عليه مسلماً مبشراً بإسلام من وراءه من الناس وكان في هذا الوفد عمه في الرضاعة ـ وهو يطلب العفو عن الأسرى ـ فتخلَّى النبيُّ ﷺ عن حصته من السبي وشفع لهوازن عند المسلمين فردَّت عليهم نساؤهم وأبناؤهم . =

ويَمـــوتُ أَوْلادُهُ وَأَعِـــزَّاؤُهُ فَيَصْبِـــرُ لِكُـــلِّ بَلِيَّـــهْ[1]
راضِيـــاً بِقَضـــاءِ اللهِ وَمُسْتَسْلِمـــاً لِحُكْـــمِ الـــدَّيَّـــانْ

الرسول والأطفال

وكان النبيُّ ﷺ يُلاَطِفُ الصِّبْيَةَ وإذا رآهُمْ بادَرَهُمْ بالتحِيَّهْ[2]
وَلا يَسْتـاءُ إذا رُزِقَ بـالْبَنـاتِ وَيُعـامِلُهُـنَّ بـالإِحْسـانْ[3]
حَثَّ عَلىٰ تَعْليمِ الأَطْفالِ وَتَقْوِيَتِهِمْ وَالمساواةِ بَيْنَهُمْ بالْعَطِيَّهْ
وَكـانَ يُـرَبِّيهِـمْ عَلـىٰ الشَّجـاعَـةِ وَالثِّقَـةِ بِـالنَّفْـسِ وَالإِيمـانْ
فَيا أَيُّها المُسْلِمونَ كُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّ راعٍ مَسْؤولٌ عَنِ الرَّعِيَّهْ

= وقد علق زويمر المبشِّر الإنكليزيّ المشهور على هذه الحادثة بقوله : « وهذا وفاء بليغ الأثر في النفوس وفيه ردّ للحريَّة علىٰ آلاف من الناس وتخليص من الضغينة . . » .

(١) رزق النبي ﷺ وهو في الستين من عمره ولداً سماه إبراهيم وكان يعطف عليه كثيراً ويجد فيه سلوانه ومُتعته . ولكن القدر عاجله فاختطفه الموت من بين يدي والده فاعتصم بالصبر .

وتشاء المصادفة أن تكسف الشمس في ذلك اليوم فقال بعض الناس إنما كُسِفت إكراماً للنبي لتشاطره حزنه ، فلم يقر ذلك النبيّ ولم يتخذ من هذه الحادثة سلَّماً للفخر فقال : « إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تُخسفان لموت أحدٍ . . . » .

(٢) ومما يروى أن الرسول ﷺ كان يصلي فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه ، فكان النبي يرفع رفعاً رفيقاً لئلا يصرع الغلام .

وامتطاه حفيده مرة وهو يؤم المسلمين فأطال سجوده كثيراً كراهة أن يعجل الغلام ، وحمل حفيدته مرة وهو يؤم المسلمين فكان إذا ركع وضعها وإذا قام حملها على عاتقه . ونزل مرة عن المنبر فأخذ حفيده فرقى به المنبر وأتم خطبته .

(٣) قال ﷺ : « من عال جاريتين جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ـ وضم أصبعيه ـ » رواه مسلم .

فَـأَدِّبُـوا أَوْلادَكُـمْ وَرَعِيَّتَكُـمْ بِـآدابِ القُـرْآنْ[1]
وَعَلِّمُـوهُـمْ دِينَهُـمُ العَظِيـمَ وَسِيـرَةَ نَبِيِّهِـمُ السَّـوِيَّـهْ
لِيُـرْشِـدوا العَـالَـمَ الْحـائِـرَ إِلـىٰ شـاطِـىءِ الْخَيْـرِ والأَمـانْ

* * *

صَلواتُ اللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَأَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ وَجَميعِ خَلْقِهِ عَلىٰ مُحمدٍ وَعَلىٰ آلِ مُحمدٍ . عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلامُ وَرَحْمةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ .

* * *

صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « إِنَّما بُعِثْت لأتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ »[2] .

صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلىٰ القائِلِ : « المُؤْمِنُ أَليفٌ وَلا خَيرَ فيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ »[3] .

صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلى مَنْ قالَ : « لا يُؤمِن أَحَدُكمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهْ »[4] .

---

(١) نشرت مجلة (ملة) التركية عام ١٩٢٨ ما يلي :
« عقدت حكومات اسوج ونروج وفنلندا والدانيمرك مؤتمراً واتخذوا قراراً أثبتوا فيه بأن القرآن الكريم هو المنبع الحقيقي والدستور الكامل لكل أنواع الرقي والتقدم المادي والمعنوي والأخلاق الفاضلة وحب الوطن والديمقراطية والعدالة والمدنية . . . . وقالوا إن القرآن الكريم يشمل أقدس وأفضل ما تتطلبه المدنية ويقرر حقوق الإنسان ويدعو إلى السلام والطمأنينة والحرية والعدالة والإخاء العام ، ويحب الوجوه الضاحكة فهو خير كتاب يجب أن ينقل إلىٰ جميع اللغات ويدرس في جميع المدارس » .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٣) رواه أحمد عن سهل بن سعد .

(٤) في الصحيحين .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَيْهِ .

* * *

يا مَنْ لَهُ الأَخْلاَقُ ما تَهْوىٰ العُلا ... مِنهـا ومَـا يَتَعَشَّـقُ الكُبَـراءُ[1]
فَإذا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالجُودِ الْمَدَىٰ ... وَفَعَلْـتَ مـا لا تَفْعَـلُ الأَنْـواءُ
وإذا عَفَـوْتَ فَقـادِراً ومُقَـدَّراً ... لا يَسْتَهِيـنُ بِعَفْـوِكَ الْجُبَنـاءُ
وإذا رَحِمْـتَ فَـأَنْـتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ ... هٰـذانِ فـي الـدُّنْيا هما الـرُّحَماءُ
وَإِذا خَطَبْـتَ فَلِلْمَنَـابِـرِ هِـزَّةٌ[2] ... تَعْـرُو النَّبِـيَّ وَلِلْقُلـوبِ بُكـاءُ
وإِذا أَخَـذْتَ الْعَهْـدَ أَوْ أَعْطَيْتَـهُ ... فَجَمِيـعُ عَهْـدِكَ ذِمَّـةٌ وَوَفـاءُ

* * *

إصلاحه ﷺ للمجتمع

دَعَا النَّاسَ إلىٰ التَّعاونِ والتَّحابُبِ والعَدالَةِ الاجتِماعيَّةْ[3]
وأَنْصَفَ الضَّعيفَ مِنَ القَوِيِّ وقَارَبَ بَيْنَ الفُقَراءِ وَذَوي اليَسارْ
جاءَ بِدينٍ يُغْنِي عَنِ الشيوعيَّةِ وَيُنْقِذُ مِنْ شُرورِ الإِباحيَّهْ
وَيُشَخِّصُ أَمْراضَ المُجْتَمعِ فَيَصِفُ أَحْسَنَ عِلاَجٍ في هذا المِضْمارْ

---

(١) من قصيدة الهمزية النبوية لشوقي .

(٢) فلقد كان النبي ﷺ إذا خطب احمرت منه الحدق فكأنه منذر جيش يقول: «صبحكم مساكم» ، فهكذا فليتشبه به خطباؤنا ليكونوا وسيلة إيقاظ للناس لا وسيلة للتنويم والتخدير .

(٣) عن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر ، جاء رجل على ناقة له فجعل يصرّفها يميناً وشمالاً . فقال رسول الله ﷺ : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به علىٰ من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به علىٰ من لا زاد له » ، حتى ظننا أنه لا حق لأحدنا في فضل . (رواه مسلم) .

حَرَّمَ الْخَمْرَ والزِّنَى والقِمارَ والإسرافَ[1] وَالحَمِيَّةَ الجاهِلِيَّهْ
وَدَعا إلىٰ العَفافِ وَالشَّهامَةِ وَالإخاءِ وَحُسْنِ الْجِوارْ
ثارَ عَلى الخُرافاتِ وَالتَّواكُلِ وَالجمودِ وَأَمَرَ باستِخْدامِ القِوىٰ الكَوْنِيَّهْ
ومَنَعَ الطمَعَ والبُخْلَ وَالبَطالَةَ وَالرِّشْوَةَ والغِشَّ وَالاحْتِكارْ
كانَ أَوَّلَ مَنْ قَرَّرَ حُقوقَ الإنْسانِ وَأَزالَ الفُروقَ العُنْصُرِيَّهْ
فَمَنَعَ بِذلكَ الحُروبَ ووَطَّدَ السَّلامَ في الدِّيارْ
هَلْ تَعْرِفونَ الَّذي مَنَعَ اسْتِبْدادَ الحُكّامِ وقَرَّرَ الأُصُولَ الشُّورِيَّهْ؟
وَأَعْلَنَ المُساواةَ بَيْنَ النَّاسِ فكُلُّهُمْ مُتَساوونَ أَحْرارْ؟
وَأَنْقَذَ المرْأَةَ بِمَنْعِ الوَأْدِ وَاحْتِرامِ الأُمِّ وَحِفْظِ الحُقوقِ الزَّوْجِيَّهْ
هَلْ تَعْرِفونَ الَّذي فَرَضَ طَلَبَ العِلْمِ عَلىٰ الكِبارِ وَالصِّغارْ؟
وَأَنْصَفَ العُمَّالَ والكادِحينَ وخَلَّصَ الرَّقيقَ مِنَ المُعامَلَةِ البَرْبَرِيَّهْ
ودَعا لِلرِّفْقِ بِالإنْسانِ وَالحَيَوانِ وَمَنَعَ الاسْتِعْمارْ[2]؟

---

(١) قال ثوبان : « دخل النبي ﷺ علىٰ فاطمة ـ وأنا معه ـ وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب » فقالت : « هذا أهداه لي أبو حسن » . وفي يدها السلسلة فقال ﷺ : « يا فاطمة : أيسرك أن يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار . . . » وخرج ولم يقعد . فباعت فاطمة السلسلة واشترت بها نسمة ـ أي رقيقاً ـ فأعتقتها . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار » .

(٢) روىٰ البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وجاء عن النبي ﷺ قوله : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني . فنزل فملأ خُفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال : « في كل كبد رطبة أجر » . في صحيح البخاري وصحيح مسلم .

وكان النبي واقفاً فمر حمار قد وسم وجهه فقال ﷺ : « لعن الله الذي وسمه » .

لا شَكَّ أَنَّكُمْ تَعْرِفُونَهُ . فَهُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الرَّحْمَةِ وَالإِنْسانِيَّهْ
وَهُـوَ الَّـذي لَـوْلاهُ لَسـارَ الكَـوْنُ إِلـى الانْهِيـارْ
أَعْلَنَ الحَرْبَ عَلىٰ المُرابِينَ الَّذينَ يُسَبِّبون الضّائقاتِ الاقتصادِيَّهْ
ويَمْتَصُّـونَ دِمـاءَ الفُقَـراءِ بِـالظُّلْـمِ والاسْتِئْثـارْ
حَضَّ عَلَى الرِّياضَةِ وأَمَرَ بِالصَّلاةِ وَهِيَ رياضَةٌ روحِيَّةٌ وَجِسْمِيَّهْ
ودَعَا لِلنظافَةِ[1] والمُداواةِ وَالبُعْدِ عَنِ الأَمْراضِ والانتِحارْ
نَهَى عَنِ التَّقْليدِ الأَعْمَى وَرَفَعَ شَأْنَ العَقْلِ والشَّجاعَةِ الأَدَبِيَّهْ
وَأَمَرَ بِالتَّيَقُّظِ وَحَرَّمَ الإشاعاتِ الكاذِبَةَ وَالْخِيانَةَ وإِفْشاءَ الأَسْرارْ
حَـثَّ عَلَـى الـدَّعْـوَةِ إِلـىٰ اللهِ بِـالطُّـرُقِ السِّلْمِيَّـهْ
وَلَـمْ يُكْـرِهْ أَحَـداً عَلَـى الإِسْـلاَمِ بَـلْ تَـرَكَ لِلنَّـاسِ الْخِيـارْ
وَآمَـنَ النَّبـيُّ ﷺ بِمـا تَقَـدَّمَـهُ مِـنْ رَسـائِـلَ سَمـاوِيَّـهْ
وَلَقَدْ بَشَّرَتْ بِهِ الأَنْبِياءُ والكُتُبُ وَعَرَفَهُ الرُّهْبانُ والأَحْبارْ
جَـاءَ النَّـاس بِـالتَّسـامُـحِ والتَّكـافُـلِ وَالآدابِ الاجْتِمـاعِيَّـهْ
وَأَمَـرَ بِـالعَـدْلِ وَالإِحْسـانِ والتَّنـاصُـحِ وَالإِيثـارْ[2]

* * *

صَلَواتُ اللهِ وَسَلاَمُه عَلَىٰ مَنْ قالَ : « أَعْطوا الأَجِيرَ أَجْرَه قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقهُ »[3] .

---

(١) رأى النبي ﷺ رجلاً عليه ثياب وسخة فقال : « أما كان هذا يجد ما يغسل ثوبه ». وكان يقول : « نظفوا أفنيتكم (دوركم) ولا تشبَّهوا باليهود » . (رواه الترمذي) .

(٢) حتى صار المؤمنون يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فيأبىٰ الجريح أن يشرب جرعة من الماء لأنه يسمع أنين غيره من الجرحى فيقول للذي يحمل إليه الماء اذهب وأعط جاري فإنه أحوج إلىٰ الماء مني .

(٣) رواه أبو يعلىٰ عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن عمر .

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « لَيْسَ بالمؤمِنِ مَنْ يَشْبَع وَجَارُهُ جائِعٌ إِلى جَنْبِهِ »[١] .

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلى القائِلِ : « لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلا لأَسْوَدَ عَلىٰ أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوىٰ »[٢] .

يا سَيِّدَ العُرْبِ وَالأَيامُ شاهِدَةٌ ... أَنِّي أُوَفِّي لِعَهْدِ العُرْبِ كُلِّهِمِ[٣]
قَدْ قدْتَهُمْ صُعُداً وَالدِّينُ قائِدُهُمْ ... وَالعَدْلُ رائِدُهُمْ في مَسْلَكِ العَلَمِ
فَصافَحوا المَجْدَ وَالأَيّامُ في يَدِهِمْ ... طَوْعَ البَنانِ وَأَضْحَوْا سادَةَ الأُمَمِ

* * *

الاشتِراكِيّونَ أَنْتَ إِمامُهُمْ ... لَوْلا دَعاوَى القَوْمِ وَالْغُلَواءُ[٤]
داوَيْتَ مُتَّئِداً وَداوَوْا طَفْرَةً ... وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّواءِ الدَّاءُ
الْحَرْبُ في حَقٍّ لَدَيْكَ شَريعَةٌ ... وَمِنَ السُّمومِ النّاقِعاتِ دَوَاءُ
وَالبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَريضَةٌ ... لا مِنَّةٌ مَمْنُونَةٌ وَجِباءُ
جاءَتْ فَوَحَّدَتِ الزَّكاةُ سَبِيلَهُ ... حَتَّىٰ اسْتَوىٰ الكُرَماءُ وَالبُخَلاءُ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الغِنىٰ ... فالْكُلُّ في حَقِّ الْحَياةِ سَواءُ

* * *

معاملته ﷺ للذميين

ما عَرَفَتِ البَشَرِيَّةُ مُتَسامِحاً مِثْلَهُ مَعَ الأُمَمِ غَيْرِ الإِسْلامِيَّهْ
وَمَا شَاهَدَ الذِّمِّيُّونَ كَدينِهِ يَكْفُلُ لَهُمُ الرَّخاءْ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير .
(٢) رواه أحمد في مسنده .
(٣) من قصيدة بعنوان نهج البردة لشاب مسيحي وقد نشرتها الفتح سنة ١٣٥٠هـ .
(٤) هذه أبيات من قصيدة الهمزية النبوية للمرحوم أحمد شوقي .

فَلَقَدْ أَوْصىٰ بِهِمْ خَيْراً وَحَفِظَ لَهُمْ مَعابِدَهُمُ الدّينيَّهْ
وَعامَلَهُمْ بِالإِحْسانِ وَالمَعْروفِ وَعَدَمِ الإِيذاءْ

جوده ﷺ

مَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ رَدَّ مُحْتاجاً بِدُونِ عَطِيَّهْ
وَرُبَّما جَادَ بِبُرْدَتِهِ وَهُوَ لَها أَحْوجُ مِنَ الفُقَراءْ
وَكانَ يُعْطي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشى الإِقْلالَ مِنْ رَبِّ البَرِيَّهْ[1]
وَإِنَّ جُودَهُ وَسَخاءَهُ للهِ لا لِلرِّياءْ

تواضعه ﷺ وبساطته

وَكانَ لا يَأْخُذ مِمّا آتاهُ اللهُ إِلاَّ أَقْواتَه الضَّرورِيَّهْ[2]
وَيَأْكُلُ مَعَ الْخادِمِ وَيَحْمِلُ حَوائِجَهُ بِدُونِ اسْتِحْياءْ
ما مالَ إِلىٰ فَخْرٍ وَلا سَعىٰ إِلىٰ رِئاسَةٍ دُنْيَوِيَّهْ
وَكانَ يَكْرَه التَّعاظُمَ وَالتَّزَلُّفَ وَالإِطْراءْ[3]

---

(١) « سأله رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع الرجل إلى قومه فقال : أسلموا فإن محمداً (ﷺ) يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقر » .

(٢) ذكر وهو في مرض موته ﷺ أن في بيته سبعة دنانير فأمر أهله أن يتصدقوا بها فنسوا لاشتغالهم بمرضه . وأفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته فسأل عائشة : « ما فعلت بالدنانير؟ » فأجابت إنها لا تزال عندها فطلبها ووضعها في كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه » . ثم تصدق بها علىٰ الفقراء .

(٣) جاء وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقالوا : « أنت سيدنا » . قال : « السيد هو الله » . قالوا : « وأفضلنا وأعظمنا طولاً » . قال : « قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان » . (في مسند أحمد) . =

لَـمْ يَـدَعْ أَنْ يَقُـومَ لَـهُ أَحَـدٌ كَمـا تَفْعَـلُ الأُمَـمُ الأَعْجَمِيَّـهْ
وَكانَ يَخْدِمُ نَفْسَهُ وَيَقْضي حَوائِجَ الْمَساكِينِ وَالضعَفاءْ
ماتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ وَلَمْ يُخَلِّفْ ضِياعاً ولا قُصوراً عَلِيَّهْ
وَرُبَّمـا مَكَـثَ الأَيّـامَ جـائِعـاً وَطَعـامُـهُ التَّمْـرُ وَالمـاءْ
فَكانَ هٰذا القائِدُ العَظيمُ يَشُدُّ الْحَجَرَ عَلىٰ بَطْنِهِ لِتَشْبَعَ الرَّعِيَّهْ
لِيُعْطِـيَ دَرْسـاً عَمَلِيّـاً لِـلأُمَـرَاءِ والـرُّؤَسـاءْ
فِـراشُـهُ عَبـاءَةٌ وَمَسْكَنُـهُ حُجُـراتٌ مِـنَ اللِّبْـنِ مَبْنِيَّـهْ
وَلُبْسُـهُ كمـا يَلْبَـسُ عـامَّـةُ المُسْلِميـنَ الفُقَـراءْ
كانَ يَكْرَهُ أَنْ يَتَمَيَّزَ عَلىٰ أصحابِهِ وَيَنْصَرِفُ لِمُحَدِّثِهِ بالكُلِيَّهْ
وَدَعا إِلىٰ التَّواضُعِ[1] وَقَضىٰ عَلىٰ تَكَبُّرِ المُلوكِ والزُّعماءْ
وَيُـرْدِفُ عَلَـى دَابَّتِـهِ مَـنْ يَـراهُ مـاشِيـاً بِـدونِ مَطِيَّـهْ
وَيَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهىٰ بِهِ المَجْلِسُ لِيُعَلِّمَنَا تَرْكَ الكِبْرِياءْ

* * *

معاملته ﷺ لأهله

وَكانَ ﷺ يُؤانِسُ نِساءَهُ وَيُعاوِنُهُنَّ في الشُّؤونِ المَنْزِلِيَّهْ
وَمَـا ضَـرَبَ امـرَأَةً قَـطُّ وَلا أَهـانَ إِحْـدىٰ النِّسـاءْ
وَلَـمْ يَكُـنْ يُهْمِـلُ تَـرْبِيَتَهـنَّ عَلَـىٰ الأَخْـلاَقِ القُـرآنِيَّـهْ
حَتَّـىٰ صـارَ نِسـاؤُهُ القُـدْوَةَ فـي الْخُلـقِ وَالطُّهْـرِ والْحَيـاءْ

= وهكذا رفض الرسول العظيم ﷺ كل هذه الألقاب ، وطلب من الوفد ذكر حاجتهم بدون إطراء وتزلف . وكان يقول لأصحابه : « لا تطروني » .

(١) وقام بين يديه رجل فأخذته رِعدة ومهابة ، فقال له : « هوِّن عليك فإني لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكلُ القديد بمكّة » .

توحيده ربَّه

نَزَّه مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ عَنِ الشَّريك وَالمَثِيلِ وَخَصَّهُ بِالأُلوهِيَّهْ
وَمَا اسْتَغاثَ أَوِ استَجَارَ أَوِ استعانَ بِغَيْرِ ذِي الجَلالِ والبَهاءْ
نَهىٰ عَنِ الكَهانَةِ والسِّحْرِ وَتَعليقِ التَّمائِمِ شَأنَ الْجاهِلِيَّهْ
وَمَا حَلَفَ أَوْ نَذَرَ أَوْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِ رَبِّ السَّماءْ[1]
وقالَ : « لا تُطْروني » لكي لا يُخْرِجوهُ عَنْ مَرْتَبَةِ العُبُودِيَّهْ
وَلَمْ يَخَفْ غَيْرَ رَبِّهِ وَلَمْ يَيْأَسْ رَغْمَ طُولِ البَلاءْ

* * *

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلىٰ مَنْ قالَ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ »[2] .

صَلواتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَىٰ مَنْ كانَ يَقولُ : « خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ »[3] .

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَىٰ القائِلِ : « أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعاهَداً (ذمياً) أَوِ

---

(١) قال ﷺ : « لا تنذروا فإن النذر لا يرد من قدر الله شيئاً إنما يستخرج به من البخيل » (الحديث في الصحيحين) . وجاء في مسند أحمد قوله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد » .

وروى البخاري ومسلم والنسائي في قوله ﷺ في جماعة من الحبشة : « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار خلق الله » .

وفي صحيح مسلم : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك » .

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم ، والمراد بالشرك الشرك الخفي .

(٣) رواه القضاعيّ عن جابر .

انتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بِغَيْرِ طِيبِ نَفْس فَأنا خَصْمُهُ يَوْمَ القِيامَةِ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه .

* * *

يا أَيُّها المُصْطَفىٰ المَيْمُونُ طالِعُه ... قَدْ أَطْلَعَ اللهُ مِنْكَ النُّورَ لِلظُلَمِ[2]

وحَّدْتَ رَبَّكَ لَمْ تُشْرِكْ بِهِ أَحَداً ... وَلَسْتَ تَسْجُدُ بِالإِغْراءِ لِلصَّنَمِ

وَكَيْفَ تُشْرِكُ بِالرَّحْمٰنِ آلِهَةً ... لا يَسْتَطِيعونَ رَدَّ الرُّوحِ لِلرُّمَمِ

وَكُنْتَ أَرْأَفَ بِالمِسْكينِ مِنْ دُوَلٍ ... رَأَتْ بِأَمْثالِهِ سِرْباً مِنَ الغَنَمِ

يا أَزْهَدَ النَّاسِ في الدُّنْيا وَفي يَدِهِ ... خَزائِنُ المُلْكِ ، والأَنْصارُ كالخَدَمِ

لَوْ يتْبَعِ الْخَلْقُ ما خَلَّدْتَ مِنْ سُنَنٍ ... لَم يَفْتِكِ الجَهْلُ والإِعْواز في الأُمَمِ

وَلَمْ يَرَ النّاسُ أَحْكاماً وَفَلْسَفَةً ... في الاجتماعِ ستُلْقِيهِمْ إِلىٰ العَدَمِ

شَرْعٌ عَلَى أَقْوَمِ الأَرْكانِ أَسَّسَهُ ... لِلْعالَمينَ نَبِيٌّ طاهِرُ الشِّيَمِ

* * *

حروبه ﷺ وشجاعته

وكانَ يُضَمِّرُ الخَيْلَ ويُسابِقُ بِها ويُوصِي بِتَعَلمِ الفُنونِ الحَربيَّهْ

وَيَحُضُّ عَلَىٰ السِّباحَةِ والرِّمايَةِ وَرُكوبِ الخَيْلِ ـ جماعَتَه المُسْلِمينْ

لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الوَعْظِ وإِنَّما تَهَيَّأَ لِحِمايَةِ الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّهْ

فـأَلَّـفَ جَيْشـاً مُطِيعـاً مُنَظَّمـاً يَشْتـاقُ لِجَنَّـةِ المُجـاهِـديـنْ

---

(١) في سنن أبي داود .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة لميخائيل الله ويردي ، عنوانها (وحي البردة) .

قاوَمَ قُريشاً في بَدْرٍ بِكَتيبَةٍ لا تُضاهي الجُيوش القُرَشِيَّهْ
فَخُذِلَ المُشرِكونَ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾
وَلَمْ تَكُنْ حُروبُ هٰذا النَّبيِّ لِغايَةٍ استِعْمارِيَّهْ
وَإنَّما كانَتْ لِتَحْريرِ الضُّعَفاءِ وَنَشْرِ العَدْلِ وَمَحْقِ الظَّالِمينْ
وَكانَ حَسَنَ الاسْتِخْبارِ حَسَنَ التَّكَتُّمِ لِلأَسْرارِ الحَرْبِيَّهْ
وَكانَ يَسْبِقُ النَّاسَ إلىٰ العَدُوِّ لِيُعَلِّمَنا البُطولَةَ في المَيادينْ[1]

* * *

سياسته ﷺ

وَهوَ البَصيرُ بِالشؤونِ السِّياسيَّةِ وَالحُقوقِ الدَّوليَّهْ
فَيَعْقِدُ المُعاهَداتِ وَيُسَيِّرُ أُمورَ الدَّوْلَةِ وَيُكاتِبُ الحاكِمينْ
آخَىٰ بينَ الأنصارِ والمُهاجرينَ فَما أَجْمَلَها مِنْ أُخُوَّةٍ دِينيَّهْ
وَجَمعَ العَرَبَ بِحُسْنِ سِياسَتِهِ بَعْدَ أَنْ كانوا مُتَفَرِّقينْ
وفَتَحَ مَكَّةَ حِصْنَ المُشْرِكينَ ذَوِي النُّفوسِ القَوِيَّهْ
فَأَلَّفَ القُلوبَ المُتنافِرَةَ وَأزالَ أَضْغانَ المُتَعادِينْ
وَعَفا عَنْ أَعْدائِهِ الَّذينَ فَعَلوا الأفاعِيلَ العُدْوانِيَّهْ

---

(١) وقد كان النبي كثير الشجاعة ، فقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق أناسٌ قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستقرأ الخبر علىٰ فرس لأبي طلحة عُرْي والسيف في عنقه وهو يقول : لن تراعوا .

حتى قال علي : كنا إذا حمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ . وفي غزوة حنين وبعد أن هُزم المسلمون بقي النبي ثابتاً يتحدى جيش هوازن العظيم وهو يصيح :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وذلك منتهى الشجاعة .

مُتبعـاً بـذلِـكَ سِيـاسَتَـهُ القَـويمَـةَ سِيـاسَـة الـرِّفْـقِ وَاللِّيـنْ
جَعَلَ مَعْتوقَهُ (زَيْداً) قَائِداً وَوَجَّهَهُ لِمُقاتَلَةِ الدَّوْلَةِ الرُّومانِيَّهْ
وَأَمَّر الفَتىٰ (أُسامَة) لِخِبْرَتِهِ عَلَى جَيْشٍ مِنَ الأَنْصارِ والْمهاجِرينْ
لِيُـدَرِّبَ الشَّبـابَ علـى أَعْمـالِ القِيـادَةِ العَسْكَـرِيَّـهْ
وَلِكَـيْ يُنَبِّـهَ الأَذْهـانَ لِشَـأْنِ الشَّبـابِ فـي جَميـعِ المَيـادينْ

صَلَوات اللهِ وسَلاَمُهُ عَلَىٰ مَنْ قالَ : « إنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً »(١) .

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَى القائِلِ : « أَفْضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِرٍ »(٢) .

صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَى مَنْ كانَ يَقُولُ : « إذا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »(٣) .

* * *

مَـنْ لِلـزَّمـانِ بِمِثْـلِ فَضْـلِ مُحَمَّـدٍ وَعَـدالَـةٍ كَعَـدالَـةِ الْخَطـابِ(٤)
رَفَـعَ الـرَّسُـولُ عِمـادَ أُمَّـةِ يَعْـرُبٍ وَأَعـزَّهَـا بِـالآلِ وَالأَصْحـابِ
مَشَـتِ الفُتُـوحُ وَصَفَّقَـتْ رايـاتُهـا في الشَّرْقِ فَوْقَ أَباطِحٍ وَهِضابِ
وَتَغلْغَلَتْ في الغَرْبِ طائِرةً علَىٰ أَكْتـافِ صَقْـرٍ جـارِحٍ وَعُقـابِ

* * *

---

(١) في البخاري ومسلم .
(٢) رواه البيهقي عن أبي أمامة وابن ماجه عن أبي سعيد .
(٣) أي إذا دعا داعي الجهاد فابذلوا أنفسكم وأموالكم ، والحديث في البخاري .
(٤) هذه الأبيات الأربعة من قصيدة قالها الشاعر اللبناني شبلي ملاط في مهرجان شوقي .

معجزاته ﷺ

أُوتِـيَ الأُسْلـوبَ المُعْجِـزَ فَيـا لَلْفَصـاحَـةِ المُحَمَّـدِيَّـهْ
وَيَكْفيهِ مُعْجِزَةً هٰذا القُرآنُ الذي بَهَرَ المُؤمِنينَ والكفَّارْ

* * *

مجمل دعوته ﷺ

وَكانَتْ دَعْوتُهُ خُلقِيَّةً وسياسيَّةً وَصِحِّيَّةً واجْتماعِيَّةً واقْتِصادِيَّهْ
وَوَضَعَ أُسُسَ مُجْتَمعٍ عالَميٍّ مُتكافِلٍ فاضِلٍ يَحُفه الازْدِهارْ
أُرْسِـلَ بِنِظـامٍ رَبَّـانِـيٍّ مُسْتَقِـلٍ مُحَقِّـقٍ لِلْعَـدَالَـةِ الاجْتِمـاعِيَّـهْ
وَدَعَـا إِلـىٰ دِيـنٍ فِطْـرِيٍ سَهْـلٍ شَهِـدَ بِعظَمتِـهِ الأَغيـارْ[1]

---

(١) قال (ولز): «الإسلام قد ساد لأنه أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت عنه الأعصر».

وقال الباحث (سنكس): «إن الديانة الإسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً في الفكرة الدينية في العالم وخلصت العقل الانساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوي الصبغ الدينية المختلفة».

وقال (المسيو شانليه الفرنسي): «إن رسالة محمد ﷺ هي أفضل الرسالات التي جاء بها الأنبياء قبله.».

وقال (مواشي): «إن الدين المحمدي حفظ ما كان معقولاً من الدين النصراني وزاد عليه ما هو موافق لقانون الطبيعة».

ومما قاله (هربرت): «إن شريعة الإسلام تحتوي على أحكام عقلية عجيبة ولا يمكن أن يكون في الوجود أجود منها».

وفي كتاب (محمد والقران) للشيخ كاظم الشيخ سليمان آل نوح المئات من شهادات الأجانب من فلاسفة وعلماء.. فمن شاء المزيد فليرجع إليه.

جَاءَ النَّبِيُّ بِدِينٍ كُلُّه حِكَمٌ[1] يَستَنْهِضُ النَّاسَ مِنْ إِغْراقَةِ الحُلُمِ
دِينٍ يُشَيِّدُ مَجْداً لا نَظِيرَ لَهُ يَدْعو إِلى اليُسْرِ والتَّوْحيدِ والسَّلَمِ
يُهيبُ بالنَّاسِ هُبُّوا مِنْ رُقادِكُم وَحَطِّمِوا الظُّلْمَ والظُّلاَّمَ بالقَدَمِ
الخَلْقُ في شَرْعِهِ أَهْلٌ ذَوُو رَحِمٍ والحُكْمُ شورى كَحَقِّ القَوْلِ مُحترَمِ

مولده ﷺ

وَكانَ ظهورُهُ لِلْوُجودِ نَصْراً مُبيناً لِلإِنْسانِيَّهْ
لِتَرْجِعَ عَنْ عِبادَةِ المادَّةِ إِلىٰ عِبادَةِ الواحِدِ القهَّارْ
فَسُبْحانَ الذي أَسْرىٰ بِهٰذا النَّبِيِّ وَأَيَّدَهُ بِالمُعْجِزاتِ العِلْمِيَّه
وَأَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلأَخْيارْ
وَأَرْسَلَه مُؤَيِّداً لِلْعَقْلِ ناصِراً لِلْفَضِيلَةِ داعياً لِلْحُرِيَّهْ
وَلَوْلاهُ لَمَا تَمَدَّنَ العالَمُ وَلا كانَ لِلْعَرَبِ ذاكَ الفَخارْ
فَمَنْ كانَ يُحِبُّ مُحَمَّداً فَلْيَقْتَدِ بِهِ ولْيَعْمَلْ بِشَرِيعَتِهِ التَّقَدُّمِيَّهْ
لِيَتَحَرَّرَ مِنَ الذُّلِّ والضَّعَفِ والاضْطِهادِ والاسْتِعْمارْ
وَلَمَّا آنَ للإِنسانِيَّةِ أَنْ تَخْلَعَ ثَوْبَ الظُّلْمِ والْجَهْلِ والعُبودِيَّهْ
وَأَرادَ اللهُ لَها الْخَلاصَ مِنَ الشِّرْكِ والفَقْرِ والْجُمودِ والعارْ
وَقَدْ تَمَّ لآمِنَةَ مِنْ حَمْلِها تِسْعَةُ أَشْهُرٍ قَمَرِيَّهْ
وَلَدَتْ مُحَمَّداً ﷺ خاتَمَ الأَنْبِياءِ الأَبْرارْ

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة بعنوان (وحي البُردة) للمؤلِّف .

أيها المسلمون : إنكم استمعتم إلى بعض سيرة نبيكم عليه السلام ، وهي للعبرة والقدوة . فينبغي لكل واحد منا أن يفكر ويقول في نفسه : ماذا أستطيع أن أعمل لأقتدي بهذا الرسول العظيم وأستحق رضاء الله .

فيسرع منذ الساعة إلى تنفيذ أوامر ربه والقيام بها ، فيهتم بتقوية جيشه ومؤازرته ويعنىٰ بإصلاح نفسه وأهله ويأمرهم بالصلاة ويسعى لتربيتهم تربية إسلامية قوية تقدمية ، ويتفقد جيرانه وأقرباءه ويواسيهم ، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر راضياً بما يصيبه بسبب ذلك من مشاق ويتعاون مع إخوانه الذين سمعوا معه سيرة المولد لعمل جمعية خيرية إصلاحية أو الانضمام إليها ومساعدتها إذا كانت موجودة . قال تعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢] .

وقال سبحانه : ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] .

لينْظر كل منا إلى نفسه فإذا وجد عنده فضلة من مال أو حليّ وأساور يعد ثمنها بالمئات وحوله إخوان جياع عراة وبدون مأوى ، فليسع ليخفف عنهم ما استطاع ، وليتجنب الشيطان الذي يوسوس له بالفقر ولزوم الشح فإنه لا يتم إيمان أحدكم حتى يكون ما عند الله أقرب مما هو عنده . وإن من لا يهتم للمسلمين فليس منهم .

أيها المسلمون : إننا إذا فعلنا ذلك نكون قد سمعنا سيرة الرسول عليه السلام واستفدنا منها وإلا فإنها تكون حجة علينا ونكون قد تسلينا وطربنا وأكلنا وشربنا . ما لهذا تقرأ السيرة ـ يا قوم ـ ولا لهذا جاء الرسول عليه السلام ، وما بهذا يتم الإصلاح ويطلب الفرج والنصر من الله تعالىٰ .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] .

* * *

التقاريظ

كلمة رئيس رابطة العلماء

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمَّا بعد فقد سرَّحت طرفي في هذه الرسالة المباركة فوجدتها حاوية علىٰ محاسن هذه الملَّة السمحاء بعبارة واضحة وقوالب تقرب من أفهام عامة الناس فجزى المولى مؤلفها وجامعها خير الجزاء وضاعف أجره ونفع بها العباد فقد اشتملت علىٰ أحاديث وفوائد وفرائد وأبيات صالحات وبينت للناس سبيل السلام وطريق السعادة في الدنيا والآخرة .

حُرِّر في ضحى الإثنين الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٤

أبو الخير الميداني

* * *

كلمة المفتي العام للجمهورية السورية

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام الرسل أجمعين سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وبعد فقد اطلعت على المولد الذي حرره السيد خير الدين وانلي فوجدته مناسباً لروح العصر ، وحاوياً لما يجب الإشارة إليه من أخلاق سيد البشر ﷺ ، فجزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله الشباب الصلحاء ووفقنا وإياه لمرضاة رب الأرض والسماء آمين .

١٢ ربيع الأول الأنور ١٣٧٤

حرره الفقير الطبيب

محمد أبو اليسر عابدين

* * *

obeikandl.com

كلمة مفتي الحنابلة

الحمد لله رب البرية الهادي من شاء إلى دين الإسلام ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب السيرة الزكية ، وعلى آله الكرام وصحبه الأعلام وبعد فقد أطلعني الشاب المهذب الذكي الأستاذ محمد خير وانلي على هذا المولد الشريف الموجز اللطيف ، فوجدته شذرة من السيرة النبوية ودعوة إلى الأخلاق العظيمة المحمدية مؤيدة بالنقل شاهدة لمؤلفها بالفضل ، وقد وشحها بالفوائد ، وضمنها بالقصائد الفرائد ، فجزاه الله عن عمله خير الجزاء وأكثر من أمثاله الشبان الصلحاء ، إنه سميع الدعاء.

في ١٢ ربيع الأول ١٣٧٤

كتبه الفقير محمد جميل الشطي

المفتي الحنبلي بدمشق

* * *

كلمة مفتي الشافعية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وآله وصحبه أجمعين .

وبعد فقد اطلعت على ما كتبه الأستاذ خير الدين وانلي من سيرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وما أوضح فيه من أخلاق المصطفى ورسالته السماوية وذكر مولده الشريف فسرني حسن التأليف وجديد التركيب بما يتناسب وعصرنا الحاضر والحاجة الماسّة إلى توجيه الأمة الوجهة الصحيحة . فالله أسأل أن ينفع بهذا المولد قارئه وسامعه ويجعله ذخراً عند الله لمؤلفه والسلام .

أحمد كفتارو

* * *

كلمة رئيس جمعية التوجيه الإسلامي

لقد أطلعني الأخ المهذب الصالح الأستاذ خير الدين وانلي على سيرة نبوية وضعها على طريقة الموالد المألوفة بعبارات مرصوفة وأسلوب سهل واضح وقد جمع فيها من السيرة النبوية ما يناسب العصر الحاضر ومفاهيم الناس مما ينفعهم في حياتهم الدنيا ويسعدهم في الآخرة ويسرني جداً أن ينهج شبابنا هذا النهج فيستقون معارفهم من هذه العين الثرة والمعين الذي لا ينضب وفق الله المسلمين للتمسك بأهداب هذه الشريعة الطاهرة والعمل بما فيها ، والحمد لله رب العالمين .

حسن الميداني

* * *

غار حراء

تفجر من غار النبيِّ شريعةٌ غدتْ بعدها ريّاً بلاد وأنهر
فللهِ ما أسماكِ ديناً ومرشداً وأغلاكِ دستوراً به الحق يزهر

(أحمد مظهر العظمة)

* * *

ثورة محمد ﷺ

في صَحارٍ مُغبَرَّةِ الأرجاءِ ... سطعتْ شمسُ رحمةٍ ورخاءِ
في قِفارٍ جدباءَ لا ماءَ فيها ... سال ذوبُ السماء عذبَ الصفاء
منْ لعمري قد ظنَّ أنَّ صحارى ... مقفراتٍ تهتز بالإنماء
لن تراعوا فذاك فيضُ قديرٍ ... مخرج الحيِّ من بطونِ الفناء

* * *

صاح نجلُ الصحراء فانجابَ وقرٌ ... قرَّ في سمعِ أنفسٍ صمَّاء
صاح هبُّوا من نومكم وتعالوا ... فاسمعوا الحقّ واركنوا للنداء
فتعالىٰ صوتُ التحرُّرِ يسمو ... ويشقُّ الإذلالَ في كبرياء
وتعامىٰ اللِّئامُ عنه فمالوا ... للحياةِ المذمومة الحمقاء

* * *

إيه أرضَ الحجاز يا منبتَ الطهـ ... ـرِ ومجلى الفخارِ والارتقاء
من صحاريك مطلعُ الحقِّ يزهو ... وبقفر الحجاز زهرُ العلاء
جلجل الحقُّ فاستطارت نفوس ... تُنكر النورَ رَغْم ذاك الضياء
وترامتْ أخبارُ ثورةِ طه ... تقرع الأذنَ قَرع رعدِ السماء
ثار لله والعدالةِ والعقـ ... ـلِ ونادى يُعلي لواءَ الإخاءِ
ثورةٌ تشمل العبادَ جميعاً ... وتعم البلادَ في كلِ ناء
ليس فيها شعبٌ فضيلٌ وشعب ... قابعٌ في الخنوع أو في الشقاء
ما دعا مرسَلُ التَّيقُّظ قوماً ... دون قوم بل عمَّهم بالدعاء
إنها ثورةُ التحرُّر مما ... كبَّل العقلَ فالحجا في هَباء

صـرخـةٌ لاجتنـاب كـل انقيـاد ... طـائـشٍ وارتقـاءِ كـلِ ارتقـاء
سطع الفجرُ لـلأنـاسِ الكُسـالىٰ ... ورمـى النـور حـزمـةً مـن ضيـاء
فاستفاق المكسال يسعى ويرقى ... وتنـاسـى كـلَّ الـرؤى فـي مضـاء
وسمـا النـاسُ للعَـلاء وقـامـوا ... ينشـرون الإنصـافَ بعـد العنـاء
فـإذا الأرض جنـةٌ تتـراءى ... وإذا النـاسُ إِخـوةٌ فـي الهنـاء
بـدّد العـدلُ كـلَّ ظلـم وعَسْـفٍ ... كظـلامٍ ينجـاب إِثـرَ الضيـاء
حطَّمـتْ ثـورةُ النبـيِّ عـروشـاً ... شيَّـدتهـا مظـالـمُ الـزعمـاء
حطَّمـتْ ثـورة النبـي قيـوداً ... أوجـدتهـا مطـامـعُ الأثْـريـاء
لـم يَعـدْ ثـمَّ سيِّـدٌ أَو مَسـودٌ ... سيِّـدُ القـومِ خـادِمُ الأبنـاء
ليـسَ يُجنـى الفخـارُ إِلا بسعـيٍ ... لا بفخـرٍ أو عُصبـةٍ وادّعـاءِ

نظم : خير الدين وانلي

obeikandl.com

يا تلاميذ محمد

حطمـوا ظُلَـمَ الليـالـي واسبقـوا ركـبَ المعـالـي
وابـذُلـوا كـلَّ الغـوالـي وارفعـوا ديـنَ محمَّـدْ

* * *

لا تلينـوا لـلأعـادي لا تهـونـوا للعـوادي
أعلنـوا فـي كـلِّ نـادي أنَّكـم صَحْـبُ محمَّـدْ

* * *

لستـمُ عُبّـادَ مـالِ لستـمُ طُـلاَّبَ نـالِ
أنتـمُ مجـدُ اللَّيـالـي أنتـمُ جُنـدُ محمَّـدْ

* * *

فـي ديـاجيـرِ المبـادِئْ فـي أعـاصيـرِ المسـاوئْ
أفْهِمـوا كـلَّ مُنـاوئْ أنكـم آلُ محمَّـدْ

* * *

أنتـمُ نـورُ الهـدايـهْ أنتـمُ للحـقِّ رايـهْ
حطِّمـوا قيـدَ الغَـوايـهْ وانشـروا نـورَ محمَّـدْ

* * *

إنْ تخـاذلتـم فشلتـمْ أو تخلَّيتـم نـدمتـمْ
أو تعـادَيْتـم خُـذلتـمْ يـا تـلاميـذَ محمَّـدْ

* * *

دعـــوةُ الحـــقِّ لـــديكـــمْ وهُـــدى الكـــونِ عليكـــمْ
أرســـــلَ اللهُ إليكـــــمْ قـــدوةَ الكـــوْنِ محمَّـــدْ

* * *

لا تميلـــوا عـــن هـــدَاهُ لا تُقـــــادوا لِســـــواهُ
تُحشـــروا فيمـــن حمـــاهُ مـــعَ أصحـــابِ محمَّـــدْ

* * *

ينظـــرُ الكـــونُ إِليكـــمْ يطلـــبُ البُـــرْءَ لـــديكـــمْ
فـــاعلمـــوا مـــاذا عليكـــمْ نحـــو تشـــريـــعِ محمَّـــدْ

* * *

ليـــس فـــي الإســـلام ذلٌّ ليـــس فيـــه مـــا يُمَـــلُّ
كـــل مـــافيـــه يَجِـــلُّ إنـــه ديـــنُ محمَّـــدْ

* * *

إنَّمـــا الإســـلامُ قُـــوَّهْ وجهـــــادٌ وفتـــــوَّهْ
ونظـــــامٌ وأُخـــــوَّهْ واتِّبـــــاعٌ لمحمَّـــــدْ

* * *

(خير الدين وانلي)